الألف كتاب
الثاني
٢٧٠

يانيس ريتسوس

البعيد

مختارات شعرية شاملة

ترجمة : رفعت سلام

Bibliotheca Alexandrina
00703302

الهيئة المصرية العامة للكتاب

البعيدُ

مختارات شعرية شاملة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

لمياء محرم

يانيس ريتسوس

البعيد

مختارات شعرية شاملة

ترجمة وتقديم
رفعت سلام

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف ٨٨١
رقم التسجيل ٢٧٢٨٨

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٧

الصورة من رسم الأستاذ محمد نادى

الفهـــرس

سيد البساطة الماكرة ٩
أغنية أختى ٥٣
مسـيرة المحيـط ٧٥
روميوســـينى ١١٠
من شهادات ١٢٨
أوريســـت ١٣٦
١٨ غنوة عن الوطن المرير ١٦٥
أقـواس ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ . . . . ١٧٠
أقـواس ١٩٥٠ ـ ١٩٦١ . . . . ١٨٣
البعيـــد ١٩٦
دمار ميلوس ٢١٠
حجرة البـواب ٢٣٩
الجســد والدم ٢٥٣
مختارات من القصائد القصيرة ٢٧٧
أعمال ريتسوس الشعرية باليونانية حتى عام ١٩٨٠ . ٣٠٥
المراجع ٣٠٧
تعريف بالمترجم ٣٠٨
للمترجم ٣٠٦

فـكل مــا أحببت

أخذه مني الجنون

والمـــــوت •

سيد البساطة الماكرة

في اللحظة التى كدت أن أمسك به انقطع الخيط ، وانفلت الى الناحية المستحيلة • وبدأت المطاردة • كان الخيط لم ينقطع ، أو كأنه استبدل بخيط سرى ، ان شده أرخيته ، وان أرخاه شددته ، فلا أحدنا يفلت الخيط ، أو ينسى •

كان ما يشبه النزوة أن كتبت اليه • نزوة لا تأمل في اكتمال الدائرة • حسبها الانفلات من الكبح الذاتي الى فضاء ما ، مكتفية بذاتها ، في ذاتها • انفتحت دائرة الى نصفها ، وتعلقت قوسا مضيئا في الفضاء المراوغ • واستدرت الى اليومى ، ونسيت • كأننى اكتفيت • كأننى •

هل كنت أتناسى أن الدائرة منقوصة ، معلقة في قلبى بين بين ؟ هل كنت أهرب من عجزى عن اكمال الدائرة التى فتحتها بنفسى ؟ أم كنت أراوغ الاعتراف بالهزيمة القادمة ، اذا ما تجاهل السيد البعيد دعوتى ـ أنا الحد المجهول لديه ـ فلم ير قوسا ولا دائرة ؟

لكنه ـ قبل أن أنسى تماما ـ أدركنى بالرسالة التى أملاها على « كاثرين ماكرينيكولا » ، بدار « كيدروس » صاحبة حقوق نشر أعماله باليونانية : « لقد سعد بأن يعرف باهتمامك بقصائده ، وبنيتك أن تنشر مجموعة منها بالعربية • وهو يمنحك حق القيام بهذا النشر حينما تكون مستعدا » • واكتملت الدائرة • ومرة أخرى ، نسيت ، كأننى اكتفيت • كأننى •

5th April, 1987

Mr. Rifaat Sallam,
5 Rue Cheik Mahammad Rifaat,
(Station Myra)
Héliopolis

Dear Mr. Sallam,

It is through Mr. Yannis Kritikos, a friend of your father-in-law that we were informed of your interest in the poetry of Yannis Ritsos. Kedros is the exclusive publisher of Yannis Ritsos in Greece but the foreign rights for the translation of his poems are owned by him and handled by him personally.

He was pleased to hear of your interest in his poems and of your intention to publish a collection of them in arabic. He gives you the right to proceed to such a publication when you are ready. Unfortunately, he never writes introductory notes to his poems and generally avoids to speak about his poetry. On his recommendation, I enclose some material on his life and work which you will find helpful. If you want to contact him, his address is:

39 M. Koraka Street,
Athens 104 45.

With best regards,

Yours sincerely,

C. Makrinikola

Catherine Makrinikola

لم يكن « حق النشر » شاغلا لى ، أو حافز الكتابة اليه . بل كانت الكتابة فى ذاتها اليه ، نعم الكتابة فى ذاتها . لا أكثر ، ربما . وها هى دائرة الكتابة قد اكتملت ، أى انغلقت ، فماذا بعد ؟

هكذا امتد بيننا خيط . واليونان — آنذاك — بعيدة بعيدة على . وهو — فى تلك البعيدة البعيدة — بعيد بعيد . مسافة عصية ، وزمن مراوغ ، والحلم لا يخرج من أبجديته الداخلية الى الامكانية . فيا أيتها المسافة العصية ، المستعصية على اليد القصيرة ، من أين أمسك بك ؟ وكيف ؟

فهل كنت سيد الأبدية ، ليكون لى أن أنسى ما يدبره الزمن من ضربة قادمة ؟ هل كنت سيد المصير ، ليكون لى أن أستند على جدار من هواء ؟

ما كنت هذا ولا ذاك ، لكننى نسيت ، واستندت .

وفى اللحظة التى كدت أن أمسك بالخيط ، انقطع .

وانفلت — دون أن يقول لى — الى الناحية المستحيلة من الأبدية .

(١)

ظل أبى كان شاهقا ، كان يظلل المنزل كله ،

ويسد الأبواب والنوافذ من أعلى لأسفل .

هو « اليفثيريوس ريتسوس » الأب المولع بالقمار حتى تبديد الأرض ، كأحد كبار ملاك الأراضى فى مدينة « مونيمفاسيا » ، بالجنوب الشرقى من « البلوبونيز » .

وحينما ولد « يانيس » — فى ١ مايو ١٩٠٩ — كان الصوت المرعب للأب المقامر يحتل فراغات المنزل ، وظله يسد الأبواب والنوافذ المفتوحة على البحر . حالة أقرب الى الجنون الذى يعقب الخراب فالسقوط .

جنون يمارس تجلياته على طفلين وطفلتين ينطلقون ـ بلا وعى ـ الى مصائرهم المجهولة .

كان ظل الأب ظلا للخراب الراهن والقادم . فالعام الذى أنهى فيه ريتسوس دراسته الابتدائية (١٩٢١) هو عام موت الشقيق الأكبر بالسل . وبعد شهور ، تدرك الأم ابنها الراحل ، وهى فى الثانية والأربعين .

هى الأم التى ستأتى فى « **أغنية أختى** » (١٩٣٧) :

ملاكا أبيض فى الليالى البيضاء .
نسمع صوتها البعيد والحفيف الناعس لجوتلتها
فينما نغمض عيوننا فى نوم ملىء بالنجوم .

ويكون رحيلها رحيلا لطفولته . تكسرت البراءة الطفولية شظايا انغرست ـ جارحة ـ فى القلب الصغير . لابهجة ، ولا حنان . لا طمأنينة، ولا فرح . بل هو الانزواء فى الأركان المعتمة ، فى ظل الأشياء ، بعيدا عن عين الأب السامة .

وحيدا مع أشياء المنزل ساعات من التأمل والكلام الصامت الداخلى. هى التى تؤويه ، وتتواطأ على وجوده ، وتمنحه ظلالها والسكينة : الغرفة، والمقاعد ، والستائر ، المنضدة ، والنافذة ، والملاءة ، والسرير ، والكوب ، والجدار . هى التى تحنو عليه ، وترتضيه . هى الملجأ الحانى ، والأسرة البديلة . وسيكون له ـ فيما بعد ـ أن يبيح لها قصائده لتصبح محورا أساسيا من محاورها ومحاور العالم ، باعتبارها شهودا صامتين على الوجود ، وشارة على حضور الآخرين الغائبين .. هى حضور الغياب ، الحضور الوديع المكتفى بذاته ، بلا صوت أو عنف .

ويصبح المنزل المشرع على البحر نصبا تذكاريا للخراب واللعنة . ومع الفرصة الأولى للهرب ؛ يدير له ريتسوس ظهره ، الى « جيثيون » ومدرستها الاعدادية ، صبيا فى الثانية عشرة من عمره ، بعد الاعدادية ،

يفر الى الأبعد : أثينا ، وهو فى السادسة عشرة · صبى قروى ضال يرمى بنفسه ـ وحيدا ـ فى متاهـات العـالم ، هربا من لعنة المنزل القديم ، وكوابيس الليل والنهار ·

لكن اللعنـة لا تفلتـه ، فتحل به على نحو آخر · انه نفس المرض الذى أودى بشـقيقه وأمه : السـل · فـلا مفر من العودة الى المنطلق « مونيمفاسـيا » · لكن رعبه الكابوسى من المنزل يدفع به بعيدا عنه ، الى فندق المدينة البائس مخفورا بأشباح الموت ونعيب البوم · وسيكون عليه أن يكبت مشاعره هذه لتنفجر ـ متأخرة ـ فى « **البيت الميت** » ، بعد أكثر من ثلاثين عاما : فانتازيا الرعب والجنون فى ذلك الحد الفاصل بين الوجود والعدم ، بين الوهم والحقيقة ·

عام واحد فى « مونيمفاسيا » ، فالعودة الى أثينا فى خريف ١٩٢٦ ، ليعمل فى نسـخ شهادات الأعضـاء الجدد بنقابة المحامين · وبعد شهور قليلة ، يدخل مستشفى « باباديميتريو » ، فمصحة « سوتيريا » ، لثلاثة أعوام تحت العلاج الذى لن ينتهى بخروجه منها · سيطارده لأعوام طويلة قادمة ، يتأرجح فيها بين النقاهة والانتكاس ·

ويكتشف الشـعر · كتابـة تأخذ شـكل الزخرفة البيزنطية ، والصفحات البيضاء تمتلىء بكتابة لن تجـد طريقها الى النشر : قصائـد تبحث عن الشـعر ، عن الشـعرى ، فتضرب ـ فى بحثها ـ فى كل الاتجاهات ، مرتبكة ، مترددة ، متهورة ، متعثرة · لكنها الكتابـة التى ترأب ـ الى حد ما ـ الصدع الذى انشق بينه وبين العالم ، تعيد اليـه ـ الى حد ما ـ التوازن والقبول والتعويض الروحى ·

فى ديوانيـه الأولين ـ « **تراكتوريات** » (١٩٣٤) و « **أهرامـات** » (١٩٣٥) ـ يمنح الفرصة للأصوات الكبرى أن تحتله بلا مقاومة · انها سطوة « بالاماس »و « فارناليز » و « كاريوتاكيس » ، التى حاصرته فى « سوتيريا » ، فى أجواء المرض والحمى والزحف الواهن نحو مسـتقبل غامض ، ضبابى · لم يكن صوته الشعرى تماما ، ولم يكن ـ بالطبع ـ

صوتهم تماما · كانت الغنائية تختلط بالخطابية ، والتحريض بالمأساة · ديوانان ينتميان ـ بصورة واضحة ـ الى الشعر السياسى · ورغم ذلك ، فعندما ظهرا لم يستقبلهما نقاد اليسار استقبالا طيبا ، اذ اتهموا الشاعر بكونه مثاليا ومشغولا ـ أكثر من اللازم ـ بالشكل الفنى · وانتقدوا ـ على وجه الخصوص ـ لغته الشعرية ، باعتبارها لغة « زخرفية » ، وأكثر تعقيدا من أن تستوعبها الجماهير ·

يبدأ « تراكتورات » بنداء الى الأم / الشعر كى تستقبله ، لينتهى بسيل جارف ضد المجتمع المتعفن المتدهور · وما بين البداية والنهاية قصائد أليمة عن اذلاله على يد « جماعات من البرابرة » التى تحيط به ، ووالده المحجوز فى مصحة للأمراض العقلية ، بينما يحادثه ابنه المريض من مصحة سوتيريا · ويضم الديوان ـ فى نفس الوقت ـ أناشيد الى ماركس وانجلز وروسيا ، ودعوة من أجل عالم واحد ، يكون فيه الجميع أخوة متساوين ·

ويستمر هذا التوجه المزدوج ـ الذاتى / السياسى ـ فى « أهرامات » : رثاء عاطفى لأخته يمتزج برثاء صباه التعيس :

آه ، لا أذكر أبدا أننى كنت ذات يوم صغيرا
مثل عجوز مشلول كنت أختبىء بالداخل
أقرأ الكتب العتيقة ·

وينتهى الديوان برؤى عن نفسه ، كجندى بسيط بين صفوف العمال ، يحارب من أجلهم بـ « قيثارة ومعرفة » ·

وفى مايو ١٩٣٦ ، يقوم عمال مصنع التبغ ـ فى مدينة سالونيك ـ بالاضراب احتجاجا على تدنى الأجور · وحينما يستدعى رجال البوليس ، يطلقون النار على المضربين العزل ، فيقتلون اثنى عشر شخصا ويجرحون المئات · وفى اليوم التالى ، نشرت الصحف صورة أم متشحة بالسواد ، تبكى ابنها القتيل فى أحد شوارع المدينة · التقط ريتسوس الصورة ، وبعد يومين من العمل الخلاق ، كانت « ابيتافيوس » (تراتيل الدفن التى

تؤدى فى الكنائس اليونانية الأرثوذكسية يوم الجمعة الحزينة) ٠ انها
ـ من جديد ـ مأسـاة صلب المسيح ، بل تتعدى الصلب الى القيامة ٠
والعويل فاتحة القصيدة :

تركتني ذات يوم من مايو ،
وذات يوم من مايو فقدتك ٠

عويل أم لا تستطيع ادراك سبب موته ، كما لا تستطيع فهم أفكاره السياسية ٠ لكنها ـ عبر القصيدة ـ تصل ، فى منتهاها الى :

لقد حملت بندقيتك ، فنم الآن ، نم ، يا بنى ٠

وأصبحت القصـيدة النشيـد الوطنى ـ غير الرسمى ـ لليسـار اليونـانى ، وخاصـة بعد أن قـام « ثيودراكيس » بتلحينها فى أواخر الخمسينيات ٠ ففى مايو آخر ـ عام ١٩٦٣ ـ وفى مدينة سالونيك أيضا انطلقت الحشود المرابطة خارج المستشفى الذى يرقد فيه النائب البرلمانى اليسارى « لامبراكيس » ـ اثر الاعتداء عليه من قبل مأجورين سياسيين ـ فى انشاد « ابيتافيوس » وبينهم ريتسوس وثيودراكيس ، رثاء للشهيد ، لينتقل النشيد الى أثينـا أثناء تشييع جنازتـه ٠ وخلال حكم الجنرالات القادم ـ الذى سيعتقل ريتسوس ـ كانت القصيدة شعار كل احتجاج على الديكتاتورية ٠

وفى أعماله التالية مبـاشرة ـ التى تبدأ بقصيدة « **أغنية أختى** » ـ واصل ريتسوس استخدامه المطور للغـة ، بل وذهب الى أبعد مما تحتمل متطلبات الفن « المناضل » ٠ انها مفاهيم جمالية جديدة لا علاقة ذات بال بينها وبين مفاهيم اليسار٠ وبدءا من ذلك الحين ، سيكون حافز ريتسوس هو البحث عن « بعد رابـــع » فى الشعر ، ربما لأنه اكتشف محدوديـة الاطار الفنى الذى تتخذ فيه جميع الظواهر الاجتماعية دلالة اجتماعية ٠ لا يعنى ذلك أنه لم يعد « واقعيا » ، أو أنه قد تخلى عن « اشتراكيته » ، بل يعنى أنه قد تخلى عن استهداف « الواقعية الاشتراكية » ٠

وقبل وفاته بحوالى أربعة أعوام ، سيكون لريتسوس أن يرى :

«ان المضمون الاجتماعي للشعر ليس ــ بالطبع ــ المقياس الأول لقيمة الشعر ، لكنه ــ بلا شك ــ المقياس الأخير ، المحدد • فعندما يخرج الشعر من أطر الاعتراف الذاتى للشـاعر ، فانه يصبح بالضرورة ــ تعبيرا عن حاجة الناس ، كل الناس ، للعدالة والحرية والبهجة ، الحاجة الى التغلب على العزلة المرهقة ، وتعفن الموت • ان الفن الأصيل والشعر الأصيل يجب أن يصل حتما الى ذلك • لكن هناك مسألة أخرى ، اذ اننا أحيانا ما نكون ــ فى الشعر ــ اجتماعيين أكثر مما يجب ، وأحيانـا ما نصـنع ــ باسم السياسة ــ سياسة رديئة فى الفن • ان الجانب الاجتماعى والجانب الجمالى فى الشعر يجب أن يكونا متجانسين ومتكاملين ومتوحدين بشكل لا يمكن ــ معه ــ فصمهما •

ولا أحد ــ بالطبع ــ يمتلك الحق فى أن يفرض على الفنان أن يجعل من فنه « فنا اجتماعيا » • فلابد أن يكون ذلك مطلبـا ينبعث من أعماق الفنان نفسه • ان متطلبات وحاجات الشـاعر الحقيقى والفنان الأصيـل تتطابق حتما ودائما مع متطلبات الشعب وحاجاته ، وهى المتطلبـات التى يكشفها الشاعر ويبلورها جماليا فى ابداعاته الفنية• وعلى هذا الأساس ، يشارك الشاعر ــ بشـكل مبـاشر ــ فى العملية العامة لتغيير العـالم • ويناضل الفنان طوال حياته ضد الظلم والاستغلال ، وضد كل أشكال الموت الاجتماعى ، حتى وان كان هذا النضـال يبـدو ــ للوهلة الأولى ــ وكأنه نضال خاص ومنعزل ، الا أنه ــ فى الواقع ــ نضال عام وجماهيرى، اذ ان هذا النضال يستجيب لشىء مهم جدا عند الفنان ، وهو الحاجة الى التعبير عن مكنونات ذاته ، الحاجة للاعتراف بالحرية ، الحرية التى تزيل الأطر الضيقة لاغتراب الشخصية الانسـانية • ان هذا النضـال تأكيد لأهمية الحياة الانسانية •

واذا ما كانت ثمة قيمة ما فى عملنا ، نحن الشعراء ، فانها تكمن فى أننـا قد تجاسرنـا بالتغلغل فى أعماق الألم الانسـانى ، واسـتطعنا أن نستخرج الأمل من كل الآلام الانسانية، وأن نساند الضياء وسط الظلام »

« **أغنية أختى** » هى النموذج الأول للشكل المفضل عند ريتسوس ٠ القصيدة الطويلة التى توصف بأنها « سيمفونية » أو « تركيبية » ٠ كتبت القصيدة عام ١٩٣٧ ، لكنها تعكس التجارب المريرة التى مر بها ريتسوس وأخته « لولا » عندما رحلا الى أثينا ، بعد خسارة الأسرة لثروتها ، وهما يجاهدان من أجل البقاء وسط الغليان الاقتصادى والسياسى الذى أعقب كارثة آسيا الصغرى ، وما واجهاه من مصاعب مروعة ٠ هو الحزن الشخصى ملتحما بالوعى التاريخى ٠ وهى أحد أطراف الثلاثية التى تضم ـ معها ـ « **سيمفونية الربيع** » (١٩٣٨) و « **مسيرة المحيط** » (١٩٤٠) ، والتى تمثل ـ بصورة غير مباشرة ـ روح المقاومة ضد ديكتاتورية ميتاكساس فى اليونان ، وصعود الفاشية فى أوربا ٠ والشمس ـ التى تحتل أفق القصيدة ـ هى رمز الايمان الراسخ لدى ريتسوس بالقدرة المخلصة للشعر ، والمقدرة الانسانية ـ مهما كانت الظروف ـ على الاستجابة لنداء الحياة الذى لايقاوم ٠ ولا يتحقق انتصاره على اليأس بسهولة ، بل بعد رحلة مريرة نحو الضوء وسط الظلام ٠

(٢)

سمعنا أغنية البحر
فلم نعد قادرين على النوم

أعوام من الرعب تجىء ، مع النقاهة ٠

فى مقابل الديكتاتورية الحاكمة ، تصعد الفاشية الى عرش أوربا ٠ وتقتحم القوات الألمانية الحدود ، فالاحتلال ٠ وتدرك المجاعة الشاملة الشاعر ـ مجاعة ١٩٤١/١٩٤٢ ـ فيتهدده خطر الموت ، بعد أن أصبح أرضا خصبة بفعل المرض ٠ ويكتشف وضعيته أحد أصدقائه الصحفيين ، فيطلق صرخة تحذير فى جريدته واسعة الانتشار ٠ وتم فتح اكتتاب عام لانقاذ الشاعر ، فاذا به يرفض استلام النقود ، ويطلب توزيعها على الأدباء الشبان ٠

البقاء على قيد الحياة : كان الشعار المرفوع في وجه المجاعة ٠

وجبهة التحرير الوطنى : كانت تنظيم المقـاومة الشـعبية ضـد الاحتلال. والتحق ريتسوس بالقسم الثقافى للجبهة مع الكتاب والفنانين، يلقون القصائد ، يعرضون المسرحيات الحماسية ومن بينها « أثينا تحت السلاح » لريتسوس . هو العمل الذى سيعيد صياغته ــ بعد سنوات ــ ليتحول الى « قصيدة حوارية » تحمل عنوانا آخر : «**أبعد من ظلال السرو**».

كأنه « **القرن الأخير قبـل الانسـانية** » : القصـيدة التى كتبها ريتسوس فى صيف ١٩٤٢ ، أملا فى عهد جديد شبيه بالعهد الذى بدأه المسيح ، وهو الشـاعر الذى سيكون حلقة وصـل بين العهدين القديم والجديد . وهى احتفـال بأبطال الموقعـة الألبانية الذين صـدوا جيش موسولينى ، وبكاء للمجاعة والغزو الألمانى ، وتمجيد لجبهة التحرير . وهى الأمل الكبير فى مستقبل يمشى فيه الرجال تحت الشمس بحريـة كاملة . قصيدة تستخدم رموزا مسيحية لتأكيد ايمان ريتسوس النهائى ، لا بالمسـيح ولا بأية قوة ميتافيزيقية ، وانما بأسمى غرائز الانسـان ، فى الوقت الذى تطفو على السـطح ــ مؤقتا ــ أسوأ تلك الغرائز وأكثرهـا انحطاطا. وتنتهى القصيدة بلافتة على مفترق الطرق : « **من هنا الطريق الى الشمس** » . وعندما يتساءل أحدهـم عمن رسم تلك اللافتة « **بحروفها الغليظة تلك** » ، يجيب آخر : « **انه يانيس ريتسوس ، شاعر القرن الأخير قبل الانسانية** » .

كان الجميع يأملون فى بعث وحدتهم من جديد عند انسحاب الألمان. لكن النتيجة كانت حربا أهلية جاءت مباشرة بعد التحرير ، حيث انهزمت المقاومة التى كان يقودها اليسار ، فى ديسمبر ١٩٤٤ ، بمساعدة الدبابات البريطانية . وهو ما عمق الفجوة بين الطرفـين المتقاتلين . وما ان حلت المرحلة النهائية للحرب الأهليـة ، حتى استقبلت المعتقـلات اليونانية فى الجزر ما يزيد على عشرين ألف معتقل ، حكم على ثلاثة آلاف منهم بالاعدام، الذى تم تنفيذه فى ألف معتقل بصورة عاجلة .

معهم ، تم القبض على ريتسوس عـام ١٩٤٨ ، الى معتقـل جزيرة « ليمنوس » ، وبعدها الى « مؤسسة اعـادة التثقيف الوطنى » فى جزيرة

« ماكرونيسوس » ، حيث مارس عليه حراسه كافة أشكال التعذيب الجسدى والنفسى كسياسة عامة ، لتحويل الشيوعيين الى « هيللينيين صالحين » · بعدها نقل الى « آى ستراتس » (أجيوس افستراتيوس) · ولم يصمت طوال السنوات الأربع التى قضاها فى المعتقلات · فقد واصل الكتابة فى أحلك الظروف ، ليضع قصائده داخل زجاجة يدفنها فى أرض المعتقل الحجرية · وأولا بأول ، كان يلقى قصائده على زملائه المعتقلين · ذلك ما يفسر استخدامه للأسلوب المباشر فى قصائد تلك الفترة ، ومن بينها « **رسالة الى جوليوت كورى** » (نوفمبر ١٩٥٠) :

عزيزى جوليوت ، أكتب لك من آى ستراتيس
حوالى ثلاثة آلاف منا هنا ،
أناس بسطاء · عمال أشداء ، كتاب أدباء ،
تغطى ظهورنا جميعا بطانية واحدة مهترئة ،
بصلة ، وخمس زيتونات وكسرة جافة من ضوء فى
أكياسنا ،

أناس بسطاء كالأشجار فى ضوء الشمس ،
جريمتهم الوحيدة المدونة فى سجلاتهم :
هى ـ فقط ـ أننا ، مثلك ، نحب السلام والحرية ·

حقبة أعاد فيها ريتسوس النظر فى رؤيته للعالم واليونان والتواريخ ، بحثا عن ذاته التاريخية الشعرية ، وعن صوته الشعرى الذى يختصر الذاكرة اليونانية، ليجد بين يديه « **روميوسينى** » : قصيدة ملحمية تستمد لغتها وايقاعها من التراث الشفاهى الذى يرجع الى الأناشيد البطولية للفدائيين فى حرب الاستقلال (١٨٢١ ـ ١٨٢٧) ، والقصائد **الأكريتية البيزنطية خلال الحكم التركى** ، رجوعا الى الأغانى الهومرية ، حيث الشاعر منشد الجماهير ، راوى الحكايات الذى يمجد ويحتفل بمن يعشقون التراب اليونانى ، الموتى منهم والأحياء · عشق يجعل المشهد الطبيعى ـ فى القصيدة ـ يتخذ نفس نسيج الوعى الحى للعاشق ، فيما يتخذ العاشق ووعيه نفس نسيج المشهد الطبيعي الحي ·

وليست « رومبوسيني » مكانا فحسب ، بل هي ـ أيضا ـ زمان • فالطبيعة اليونـانية هي محور التشكيل الشعرى للقصيدة ، لكن هنـاك ـ أيضا ، وبصورة متزامنـة ـ الوعى الحاد بالانفصـامات المرعبـة فى التاريخ اليونانى • هى تجربة الحقبة المأساوية والفاصلة بين الاحتـلال الألمانى والحرب الأهلية، والتى تعنى ـ من وجهة نظره ـ خيانة للمقاومة•

قصيدة ملحمية ، لكنها لا تتطور خطيـا وفقـا لبنيـة سرديـة أو أيديولوجية • فالشكل الزمنى ليس تعاقبيا ، يتحرك أفقيا من بدايـة ـ عبر وسط ـ الى نهاية ، ولا جدليا ، من فكرة الى نقيضها الى مركبهما • بل تتمحور القصيدة ـ على نحو مكثف ـ على موقف تاريخى معاصر ينفتح رأسيا حتى أقصى حدود الماضى اليونانى• فخيال ريتسوس الشعبى واللغة المفعمة بالحيويـة التى تعبر عنه يكتشفان ، أو ـ تحديدا ـ يفتحان زمن الذاكرة الذى يتحقق فيه حضور كل الأزمان اليونانية ، زمن تلتئم فيـه الشظايا الزمنية وأطلال التاريخ اليونانى ـ صورة مطاريد الحكم التركى والثورة اليونانية ، حراس الحدود المدنيين ، والمقاتلين الهومريين ـ تنبثق من البنية العرقية لما تحت الوعى ، لتحقق الهوية والتواصل مع الصورة المعاصرة (رجال الميليشيات الجبلية) • فالخيال العامى لريتسوس ـ بمعنى آخر ـ يحول سلسـلة من المواضى الميتة الى حاضر حى لابد من ادراكه ـ بالطبع ـ بصورة متزامنة •

بذلك ـ على سبيل المثال ـ يحتسى البحار (المعاصر) البحر المرير من كأس أوديسيوس ، ويلتقى رجال حرب العصابـات مع « ديجينيس » فى نفس تلك الطوابـق التحتية على الحدود البيزنطية حيث تصـارع مع الموت ، والمرأة العجوز تصعد الى مواقع المراقبة حين تبلى الرسوم الجصية المينوية للغروب فى البعيد ، والشـاعر يحفز الريـح كى تدفـع « دب الليل » الى رقص « التساميكو » فى الميدان ، بينما يقرع القمر الدف الى أن تهتز شرفات الجزيرة •

واستعادة الماضى ـ هنـا ـ ليست استحضارا رومانسيا ، ولا بحثا عن الزمن الضائع ، ولا هي ـ حتي ـ استعادة اليوتية (نسبة الي اليوت)

ل « الحس التاريخي » ، حيث يبحث الشاعر ـ بوعي ـ عن تواصل الماضي مع الحاضر • فبالنسبة لريتسوس، فانه لا يتخلى أبدا عن الوضع الراهن؛ واحتمالاته فى مستقبل حقيقي • فالراهن المفتوح يبقى فى الخلفية منذ البداية حتى النهاية التى ما تزال فى طور البداية • وتواصل الماضى اليونانى متحقق ـ لديه ـ كمعرفة مباشرة فى ذاكرته العرقية ، أو فى ايقاع دمه اليونانى ، ويحيا ضمن امكانيات لغته الدارجة الديموطيقية ، الشفاهية •

انه التزامن سمة أساسية ، والمعرفة الوجودية المباشرة محور أساسى للرؤية • وتلتحم الاحالات ـ المتعلقة بكائنات بشرية ، أو أشياء من الطبيعة ـ فى شخص اليونان الأم ، التى تتخذ ـ فى قفزات سيريالية خاطفة ـ تشكيلة مدهشة من الهويات الأنثوية التى تنتمى الى الماضى اليونانى المتشظى والكثيف : حورية الماء ، ربة الأرض الأم الأورفية التى تنجب ايروس وسط الهيولى ، وليدا التى تثمر تاريخ اليونان القديمة ، وأثينا الربة المقاتلة ، وأخيرا برسفون (بالاحالة الى ابنة الحداد) ، وأمها ديميتر التى توزع عليهم خصب الأرض والنشور •

استدعاء للتواصل التاريخي أو ـ بالأحرى ـ الاكتمال التاريخى ، دون أن يتحقق على حساب الحاضر • فهو يكتشف ـ من ناحية ـ التوحيد بين ابنة الحداد المعاصرة والأم النائحة ، و ـ من ناحية أخرى ـ بين الأرض الأم وحورية البحر والعذراء وديميتر وبرسفون • لكن موضوعه الدائم الملح هو الأنصار اليونانيون المعاصرون • فالاستدعاءات من الماضى اليونانى لاتستهدف ـ كما عند اليوت وييتس وجويس ـ اجتذاب البانوراما الهائلة للاجدوى والفوضى « المرادفة للتاريخ الانسانى » الى علاقة متوازية من أجل ضبط وتنظيم وتشكيل ومنح المعنى لها• فهى ليست أداة لتشكيل عالم جمالى أو روحى متعال من الخيال ، يترفع على الحاضر الخشن • انها حاضرة من أجل الاحتفال بالخيال المعاصر الواقعى لليونانى، الذى يعرف أن « هذه الأرض لهم (للموتى) ولنا ، ولا يمكن لأحد أن ينتزعها منا » • ذلك هو السبب فى أن ريتسوس ـ باعتباره مغنى الجماعة ـ يقدم الصورة التاريخية والأسطورية والشعبية عن الماضى من

منظور الاحساس اليونـاني البيولوجي أو الطقسي (أكثر من الذهني) بالزمن والتاريخ ٠

وصورة هذا العالم الذي يكتشفه ريتسوس ـ العالم الذي تندمـج فيه كل الأزمان والفضاءات ، كل الأحداث والأشياء في انسجام خالص ـ تصبح ، بذلك ، مقياسا حيـا للتهديد الذي يوجهه ال « هـم » الغزاة في القصيدة ٠ وفي ذلك يكمن السبب في قدرة ريتسوس على أن ينطق ـ في المقطع السابع ـ بكلمات الحب في سياق يستدعي الكراهية والمرارة ، وأن يؤكد الأمل في سياق يستدعي اليأس ٠

هكذا ، تقدم القصيدة الزمن اليوناني ، دون أن يهم كم هو مشتت ظاهريا ، كراهن أبدي ٠ انه حضور حي في وعي « الشعب » المعاصر :

★★★

« الشعر ظاهرة معقدة للغايـة ، لأنها تتحدد بتأثير عوامل عديدة ، اجتماعية وتاريخية وأخلاقية وبيولوجية ٠ وأنا واثق أن آلاف الصفحات من النصوص التوضيحية ، وآلاف الخطب ، لا تستطيع ـ بشكل كامل ـ أن تعبر عن الشيء الذي تتضمنه هذه القصيدة أو تلك ٠ بل أقول ما هو أكثر : ان قيمة القصيدة لا تكمن ـ فقط ـ فيما تتحـدث عنــه ، وانما ـ بالأساس ـ فيما يجعـل القصيدة نتاجا فنيا ٠ وبعبارة أخرى ، فان القصيدة فعل جمالي متكامل ٠ ولهذا ، فان اخضـاع القصيدة للتأويـل والتفسير مسألة خطيرة للغاية ٠٠٠ فلا يمكن تفسير الشعر حتى النهاية ، وروعة الشعر وسحره المتفرد يكمن في ذلك بالذات ٠ انه التعبير عن أدق حركات روح الشاعر وفكره ٠

ومهمة النقـد هي تقسـيم الصـورة النسـيجية التي يكمن فيها جوهر الشعر نفسه الى أفكار منفصلة وأحاسيس وصور فنية وايقاعات ، ثم يجرد ارتباطات كل هذه العناصر ، ويكتشف فيها آلية تأثيراتها ، ومن ثم الموقف الوجداني المحدد للشاعر في علاقته بالواقع الاجتماعي والخلفية الفكرية لتلك العلاقة ٠ لكن ذلك يجب ألا يفضي بالنقد الى وضع متطلبات

وشروط قسرية ازاء الانتاج الأدبى قد تؤدى الى ابتعاد القارىء نتيجة لتلك الآراء والادعاءات .

وأسوأ ما فى الأمر أن نرى الناقد يؤدى دور المراقب أو المعلم تجاه الشاعر . ان هذا الموقف هو خرق للأخلاق وظلم للشعر والشعراء. يجب أن يتخلص النقد من نبرة الحاكم أو الرقيب ، ويجب أن يتفاعل مع أخلاقية الفن ، وهو ما سيؤدى بالنقاد (والقراء أيضا) الى اكتشافات واستخلاصات كثيرة وجديدة . يجب على النقد أن يقرب الشعر للقارىء ، وهى مهمة عظيمة ، اذ ان الشعر هو منبع التقنية الجمالية للروح الانسانية ، انه يعلم الانسان أن يحس بعمق ورقة ، ويغنيه روحيا، ويعمق عالمه الوجدانى . ان الشعر يربى فى الانسان الأوليات الجمالية ، والتى هى – فى جوهرها – اجتماعية بلاشك، اجتماعية بأوسع مفهوم للكلمة » .

(٣)

لا يستطيع أحد أن يسكت غناءنا .

سنواصل الغناء .

فالعالم جميل – نحن نؤكد –

جميل ، جميل ، جميل – وسنواصل الغناء .

لم يكن ممكنا نشر « روميوسينى » عند كتابتها . وكان لها أن تنتظر ست سنوات كى تنشر عام ١٩٥٤ للمرة الأولى . وللمرة الثانية ، يقوم « ثيودراكيس » بتلحين احدى قصائد ريتسوس ، ليقدمها الاثنان معا الى الجماهير الحاشدة قبل فترة وجيزة من منع النظام لأعمال الاثنين .

لا يستطيع أحد أن يسكت غناءنا .

كأنه يكتبها وأسنانه مطبقة ، وشفتاه مزمومتان . لمحة من السخرية والمرارة بدأت تظلل قصائده الأخيرة، دون أن تقمع الأمل الكامن فى قلبها. وبعد اطلاق سراحه ، جمع القصائد المكتوبة فى ظلمات الحقبة الماضية

(١٩٤١ — ١٩٥٣) فى مجموعة بعنوان شامل : « **سهر** » ، تحت عبارة اقتبسها من فترة حالكة أخرى فى تاريخ اليونان ، من « ديونيسيوس سولوموس » : « أعين روحى مفتوحة دائما ، لترقب دائما » · انه السهر على جثة الميت فى مواجهة انحطاط وظلم الحياة ، بلا يأس أو انكسار ، بل بالأمل والعنفوان ·

تزوج عام ١٩٥٤ ، وفى العام التالى احتفل بطفلته القادمة بديوان « **نجمة الصباح** » ، الديوان الأول الذى لا تشوبه لمحة مرارة أو حزن · لكن الفرح بنجمة الصباح الوليدة لا يلغى الاحساس بضياع ما · كما أن الوضع اليونانى — بالرغم من تحسنه الجزئى — لم يكن ليرضى شاعرا بقامة وأفكار ريتسوس ·

كانت الحقبة التالية — وحتى اعتقاله الجديد عام ١٩٦٧ — فترة خصوبة انتاجية هائلة : ما لا يقل عن ثمانية وعشرين ديوانا من الأعمال الجديدة ، وثلاثة مجلدات لقصائد ١٩٣٠ — ١٩٦٠ ، وتسعة مجلدات لترجماته الى اليونانية · ويتكشف الاهتمام بتعميق التجربة الشعرية ، والتجاوب مع المتناقضات والتعقيدات الصارخة التى مر بها · نزوع الى الحوار الذاتى الدرامى ، كشكل طيع لتقديم رؤية للعالم يمتزج فيها الأسطورى بالآنى ، والصفاء والبساطة يتعايشان مع الغموض والكوابيس، واليومى يمتزج بالفانتازى ·

هكذا ، يستعيد « **أوريست** » من الذاكرة الأسطورية فى مونولوج درامى يطرح الصراع بين « الفعل » و « الفكر » · وتقود القصيدة بطلها الأسطورى فى طريق تأملى يفضى به — فى نهايته — الى الرغبة فى الفعل ، برغم ادراكه لأعمق تعقيدات الحياة · وبمعنى ما — اذن — يقدم ريتسوس مراجعته ل « هاملت » · فهناك :

·· الوعى جعلنا جميعا جبناء ·
ولهذا فالمظهر الأصيل للقرار
قد علاه شحوب الفكر ·

أما بالنسبة لأوريست ، فالقرار ليس مقموعا بفعل الفكر، بل يقوى به • انه مشلول ـ بصورة مؤقتة ـ بفعل تأملاته ، لكنه ـ فى النهاية ـ يذبـــح « كليتمينسترا » ، ويقدم على ذلك لا برغـم ادراكه الأعمق ، بل بســـببه •

انها الوحدة التناقضية للتعارضـات • فليس غريبـا ـ اذن ـ أن يكون الأسلوب البلاغى المهيمن فى القصيدة هو « المفارقـة » : (« حركة بلا حركة » ، « ضبابى ، لكنه محدد » ، « صرخة صامتة » ، « ما لا يعزى، •• يعزى ») • ولا يمثل ذلك تلاعبـا ماهرا بالألفاظ ، بل تحقق لغوى لمادة الموضـوع • وهو ما لابد أن يوجـه انتباهنا الى الطبيعة الثنائيـة والتناقضية للصور التى تنقسم ـ فى عمقها ـ الى نمطين • ثنائية محددة و / أو مدمرة ، فى النمط الأول تتجلى فى تشبيه لسان الجرس والجرس ، الذى يصف اغتراب اليكترا عن صوت عويلها :

وهى تتـدلى هنـاك داخل صورتها
كلسان جرس ، وهو يقرع ويقرع الجرس •

وصوتها هو صوت الانتقام ، أو هكذا تظن • لكن أوريست ـ وهو يمضى تدريجيا الى المعنى الأعمق للأشياء ـ يدرك أنها « سجينة عدالتها الضيقة » • انها مفارقـة أن الدوافـع الطبيعية للفعـل الانتقامى تسجن الذات ، وتحد منها • ولهذا ، فاليكترا الشابة انما هى عجوز ، وحزامها « يشبه شريانا بلا دماء حول بطنها » •

ويرفض « أوريست » أن ينحصر فى نفس الطريق • واذ يبحث عن « مخرج وأيضا مدخل » ، فانه يتوصل الى ذلك عن طريق النمط الثانى للرؤية الثنائية ، حيث الذات الفردية الراغبة فى الفعل (اللسان) تكف عن التصادم مع المحيط الضيق ، الفظ ـ (الجرس) ـ ويتم استيعابها فى لانهائية ما غامضة وحافزة • وما ان يدرك أن النضال الانسانى كله ـ حتى قتل « كليتمينسترا » و « أيجيثيوس » ـ « يحفز الحياة » ، فانـــه يقوم ـ راضيا ـ بالفعل •

والصور – فى هذا النمط الثانى – تجمع المتعارضات معا : السكينة والغليان ، الحركة والسكون ، والمتناهى واللانهائى ، والموت والبعث • فالليلة الساكنة – التى تكسرها صرخات « اليكترا » – تشبه نهرا مظلما :

ينساب نحو البحر بقفزات لا مرئية
(ربما كان أحدهم يرمى أحجارا فى النهر)
وفلاح يسير على حافة حقل
وهو يحمل تحت ذراعه الظل الذى رمته غيمة –
ظل يرسم مشهدا طبيعيا بعيدا للانهاية)
(فأر يهوى فى الآبار ويغرق ،
لكن الآبار نفسها تعكس الكواكب
وهى تتحرك ببطء عبر السماء)

وفى جميع هذه الحالات ، يرتبط شىء ما صغير ، محدود ، ومدمر فى الغالب ، بشىء كبير ، غامض ، بلا ايذاء : نجوم ، غيوم ، النهر ، الظلال ، مربوطين معا ضمن :

ايقاع الحياة المتكرر •

فى هذا السياق من السكينة والايقاع الأبدى ، والصمت الكامن فى النسق الذى ينتظم البذور والنجوم ، نلتقى – لأول مرة – بالبقرة الصابرة المتحملة ، التى تساعد عيناها الكبيرتان الأرض على التآلف مع الأبدية •

وعندما نلتقى بالبقرة مرة ثانية ، فاننا ندرك أنها – أيضا – وأكثر حضورا من أى رمز آخر ، تتوج التعارضات المتصارعة • فهى لم تعد مربوطة – فى كسل – كما السابق ، بالأوراق والسماء الزرقاء والتربة الدافئة • وما ان تتحرر من النير حتى نكتشف أنها :

مجروحة فى ضلوعها وظهرها ...

فهى – بذلك – مشاركة فى كل من الايقاعات الخلاقة للأبدية ، والمعاناة المدمرة للحياة الأرضية •

أما ذلك النهر الآخر ــ النهر المظلم الذى ينساب نحو البحر مضطربا بفعل الصخور التى ربما ألقاها أحدهم فيه ــ فقد تصعدت أحجاره الى دماء ، ترتبط بالسيف الدامى الذى سيستخدمه « أوريست » فى قتل « كليتمينسترا » و « أيجيثيوس » • وفيما كان التقابل ــ فى الثنائية السابقة ــ قائما بين الأشياء الصافية وغير الصافية ، فان الايقاع المتكرر للحياة يفتقد ــ الآن ــ صفاءه ، بل انه ــ الآن ــ جرح كونى • مفارقة تتراكم فوق أخرى، فما كان ــ فى البداية ــ متناقضا لأنه جمع التعارضات الظاهرية معا ، يصبح ــ الآن ــ مزدوج التناقض • ورغم ذلك ، فالنهر المعتكر للحياة المنسابة أبدا ما يزال يستبقى خصائصه الشفافية • والدم النازف من شفتى البقرة قد تلاشى ــ بالتدريج ــ فى ذلك الجرح العظيم ، كأنه ينساب :

متحررا ، بلا ألم ،
خلال شريان خفى للعالم ••

وهذا الشريان الخافق للحياة هو المقابل لذلك الشريان الآخر ، الذاوى بلا دماء حول بطن « اليكترا » • وبينما تظل « اليكترا » ــ فى عماها السجان ــ عدوا للمفارقة ، لأى شىء « غير منطقى » ، فان البقرة ــ بحكمتها ــ تبدو وقد تعلمت ، تبدو قادرة على القبول فى سكينة :

بأن دمنا لم يهدر ، أن لا شىء قد أهدر ،
لا شىء مطلقا قد أهدر فى هذا الهباء العظيم •

وهذه الحكمة يتبناها الآن « أوريست » ، ثمرة لتأمله الطويل أمام بوابة الأسد • يدرك أنه يحمل هذه البقرة فى ظله (نذكر ذلك الفلاح الذى يحمل ظل غيمة تحت ذراعه) ، يدرك ــ أيضا ــ أن الظلال اللينة ، اللامحسوسة لقرنى البقرة يمكن أن تتحول الى أجنحة مسنونة يتمكن بها من عبور الباب المغلق (فلنتذكر « اليكترا » ــ فى المقابل ــ وهى معلقة فى واجهة جرسها الفظ) •

لقد اكتشف أننا نشارك فى الحقيقة الكونية (للاشىء العظيم) بأن نسمح لأنفسنا ــ من خلال التأمل ــ بأن نتعلم المفارقة أن كل

المغتصبين أبرياء ، « لأننا جميعا مغتصبون على نحو ما » • اننا نشارك فى حقيقة كونية بالعمل فى توافق معها •ذلك هو قدرنا • وقد يبدو أوريست وكأنه يفعل باسم تبريرات « اليكترا » غير المقنعة ـ العقاب ، العدالة ، الانتقام والكراهية ـ لكن تلك التبريرات لا تزيد عن أقنعة يرتديها كى تغطى ذاته الحقيقية • وحين يشارك فى الموت ، فانه يختار ـ بحريـة ـ « المعرفة وفعل الموت الذى يولد الحياة » •

ولهذا ، فالأفعال التى تشارك فى كلية تتضمن التدميرية هى ـ الى حد ما ـ ايجابية • ولا يسـتطيع « أوريست » أن يقوم بالفعل بنـاء على أسباب غير مقنعة تقترحها « اليكترا » ، لكنه ربما يستطيع الفعل من أجل هذه ال « نعم » اللامنطقية ، التى تشرق غامضة ومنيعـة فيما هو أبعد من كل فرد ، أو « ربما من أجـل انتصـار ما بلا فائـدة على أول وآخر مخاوفنـا » •

تلك هى الكيفية التى يحـل بها ريتسوس الصراع بين « الفـكر » و « الفعل » • فهو ـ من ناحية ـ يرفض القبول بالفعل الطائش ، فيما يرفض ـ من ناحية أخرى ـ السماح للمعرفة العميقة ـ المعرفـة المتحققة بفعل التـأمل ـ أن تشـل بطله • وعلى النقيض من « هاملت » ، يقهر « أوريست » تردده بفعل الحكمة المأساوية، ويقوم بالفعل ، بينما صرخات « كليتمنيسترا » و « أيجيثيوس » تذوب فى الايقـاع المتـكرر للحياة ، الايقـاع الذى يتضمن ـ الآن ـ لا أصوات الطيور المغردة فحسب ، بـل ـ أيضا ـ أصوات الصـيادين المدمرين • ولهذا ، ففى نهاية المونولوج ، تستقر البقرة ـ وهى الصورة الأسـاسية فى القصيـدة عن المفارقـة المحلولة ـ فى منتصف بوابة الأسد ، وتحدق بعينين سوداوين فى ضوء الصبـاح •

(٤)

أتخفى وراء الأشياء البسيطة كى تعثروا على ،
فان لم تعثروا على ، فستعثرون على الأشياء ،
ستلمسون ما لمسته يـدى ،
فتمتزج بصمات أيدينـا •

وكأن سدا ما قد انفتح فى هذه الحقبة من السلام النسبى ، التى تشبه هدنــة ما ، أو استراحة المحارب ، قبـــل أن يعود الى الجحيم • فيضان من الأعمال المنشورة ـ التى أجلتها المطاردات والمصادرات وظلمات الاعتقال • وفيضان آخر من الكتابة الجديدة التى أنضجتها المحن ونيران المواجهة والتصادمات •

كتابة تخترق كل الاتجاهــات بلا حدود ، وكل الأشــكال والأزمان التاريخية والأسطورية • أعمال مونولوجية درامية تستمد من الأســاطير الاغريقية شخوصها المعذبة ، الأليمة ، ومناخاتها الكابوسية ، الفانتازية ، المشحونــة بالصراخ والجنون وحكمة الزمن • وذاكرة متخمة بالتواريــخ والرموز الحية التى تتزاحم بحثا عن مخرج شعرى الى الضوء ، دون أن تســتغرق البصيرة ـ أو تســتلب ـ فى الوراء • انه الراهن ، الآنى ، والبصيرة المعاصرة ، والعين التى تدور حول محورها ـ أفقيا ورأسيا ، فى آن ـ بزاوية ٣٦٠ درجة ، فترى ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون •

ولا بحث عن أفعال بطولية خارقــة ، ولا عن أبطال يتسامون على البشرى • فالبطولة ـ فى ذاتها ـ كامنة فى البشرى ، اليومى ، الاعتيادى فى مواجهة الكارثة ، ومواجهة الحياة المأزومة• لا رومانتيكية ولا تجريد ، لا عدمية ولا ذهنيــة • احتفال دائم بالحيــاة كلها ، بشهواتها الانسانيــة العارمة ، بمكنوناتها التى تضج بالرغبات والأحلام والتشوفــات ، دون تواطؤ على شئ • اضاءة ـ فى نفس الوقت ـ للحظات الانكسار ، للعجز عن التواصل ، للأحلام المحبطة ، للبكاء الليلى فى الوحدة الباهظة •

هنا ـ بالتحديد ـ تبـدأ « **الأقواس** » ، تلك القصائـد التى كتب ريتسوس مجموعتها الأولى عام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ، ولن تعرف طريقها الى النشر ـ أول مرة ـ الا عام ١٩٦١ ، والمجموعة الثانية التى كتبت بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٦١ • أما ديوان « **البعيـد** » ، فكتب عام ١٩٧٥ ، ونشر فى مارس ١٩٧٧ •

ما يجمع المجموعات الثلاث هو وحدة الرؤية الرمزية والحساسية، سواء في قصائد المجموعة الواحدة أو قصائد المجموعات الثلاث معا • رؤية شاسعة الفضاء داخل القوسين • هما قوسان يشبهان يدين متواجهتين عبر مسافة ما ، تجاهدان من أجل التحامهما معا والغاء المسافة، من أجل اللقاء الذي يعيد تأكيد التواصل الانساني بين الذوات المعزولة • لكن ، بالرغم من أن هناك اشارات واضحة نحو انغلاق الفجوة بين اليدين، فان الاشارات تبدو محكومة ـ بصورة حتمية ـ بالفشل •

والقصيدة الافتتاحية في الأقواس الأولى ـ « معنى البساطة » ـ تصلح تقديما للانشغالات الأساسية للشاعر • انه الاقرار بمسافة مفترضة بين الأنا والآخر ـ قد تكون المسافة بين القوسين ـ واحتمالي الفشل في اللقاء • لكنه الالحاح ـ في نفس الوقت ـ على ضرورة المحاولة • وهي قصيدة يتم تأويلها ـ غالبا ـ باعتبارها عقيدة :

« مثل كافافي ، لا يمكن فهمي الا من خلال الأشياء المختبئة ، لكن الأشياء التي أختبئ وراءها بسيطة ، وهناك مدخل لها عبر الكلمات عندما تكون الكلمات صادقة : أيها القارئ، حاول أن تعثر علي من خلال كلماتي، لأنني أريد اللقاء ، ولا يهم مدى الصعوبة التي تواجهنا من أجل أن يصل كل منا الى الآخر ـ في الحقيقة ، انني أصر على اللقاء » •

انها احدى قصائد ريتسوس القليلة التي تحمل خطابا شخصيا • ولن يظهر صوت « الأنا » ـ مرة أخرى ، في الأقواس الأولى ـ حتى القصيدة الأخيرة • وبين الأولى والأخيرة ، سنجد القصائد تستخدم ضمير المخاطب ، وضمير الغائب ، وضمير المتكلم الجمع ، وضمير المخاطب الجمع، وأية صيغة نحوية أخرى من أجل تفادي « أنا » الشائعة في الخطاب الغنائي أو الذاتي ، وهو ما يمثل شاهدا اضافيا على اصرار الشاعر على التخفي في هذا المثال وراء موقف موضوعي •

وليست القصائد بسيطة ـ بالمعنى الشائع ـ رغم تركيز بؤرتها الظاهرة على الأشياء البسيطة ، نسبيا • فالأشياء البسيطة ـ في

« نسخة مصغرة » ، على سبيل المثال ــ تكمن فى امرأة بلا هوية ، وضابط بلا هويــة ، وبعض شرائــح الليمون النحيلة ، ومقعد قديــم ، وكبريت وسيجارة وكوب شاى • ويكمن الفعل فى غياب الفعل : زيارة قد تفضى الى تــلاق من نوع ما ، التقــاء لا يحدث فى النهاية • وشرائح الليمون البسيطة تلك تصبح مجازا مركبا يمثل قلب القصيدة • وتواجــه المرأة والضابط بعضهما عبر قطع الأثاث المحدودة ، مع أمل ما فى علاقتهما غير المحددة ، أمل يكفى ــ على أية حال ــ لمنع الزائر من النظر الى المرأة ، ولبث الرعشة فى يــده التى تمسك بالكبريت • أهو احتمال شهوانى ، لقــاء محتمل لعاشقين عند أكثر المستويــات جوهريــة ؟ بالكاد يبدو كذلك ، عندما تشكل شرائح الليمون ــ تلك التى أعدتها اليدان الحزينتان للمرأة من أجل الشاى ــ عربة صغيرة تستعيد عالم الطفولة بحكاياته الخرافية البعيدة ، بقدر ما تستعيد بعد المرأة / الابن فى هذا اللقاء بين امرأة غير محددة العمر وضابط محدد ــ بوجه خاص ــ كشاب « له ذقن رقيقة » • وقبل ادراك هذا التوقع بالحب ، توقف الساعة دقاتها لبرهة ، وتوقف الوقت • بعدها ، تأجل اللقاء أيا ما كان مستواه ، ولحظة التلامس المحتمل ، سواء كان جسديا أم عاطفيا أم الاثنين معا ، تمر وتنقضى • وفى مرورها ، تستبدل عربة شرائح الليمون الخاصــة بحكاية الطفل الخرافية بعربــة لا مرئيــة تحمل الموت • أهو موت امكانيــــات تلك اللحظة ؟ موت تلك التوقعات الغامضة ؟ أم انه نذير بموت الضابط فى معركة ما ، والقضاء على أى مستقبل له ؟ (كتبت هذه القصائد فيما بين عامى ١٩٤٦ و ١٩٤٧ ، لتعطى ــ أحيانا ــ تلميحات قوية الى السياق التاريخى الأكبر ، الحرب الأهلية القاسية) •

والأسئلة العديدة المطروحة تتخطى الأشياء البسيطة ، دون أن تقدم القصيدة اجابة محددة على أى منها ، فلا نعرف سوى أن العربة التى تحمل الموت قد جاءت ومضت فى لحظة الغموض التى توقفت فيها الساعــة عن دقاتها ، وأن الأمل فيما هو أكثر من مجرد لقاء على شاى قد تأجل ، وأن الوقت الآن قد فات على اكمال هذا اللقاء المرتعش بين رجل وامرأة يؤديان أحيانــا ــ دورى الأم والابن • ولا مجال الآن لتبجدى الموت العــــارض

أو الدائم • ويعود انتباههما الى مائدة الشاى ، المنسية بالعربة ذات العجلات الليمون المتوقفة فى الجانب المظلم من الشارع ـ شارع الآمال الضائعة ، والتوقعات المستحيلة ، ربما •

والقصيدة التالية ـ« امرأة » ـ تمثل ما يعتبر المجرى العام لشعر ريتسوس ، ذلك الانشغال بالفقراء وهمومهم • لكن ما تحت السطح ينطوى على استراتيجيات وتوجهات تربط هذه القصيدة بالسابقة وبالقصائد الأخرى ، فتضىء الايماءات التى فشلت فى تأسيس تواصل ما بين أشخاص منعزلين، والمحاولات الفاشلة لاختراق العزلة أو الوحدة ، أو تقصير المسافة التى تفصل بين اليدين اللتين تتواجهان فى شكل قوسين • وعنوان القصيدة ـ المتضمن حذف أداة التعريف ـ يؤسس مسافة ما ، وانتفاء للشخصية ، على نحو ما يفعل الضمير المقابل (نحن) فى السطر الثانى ، لندخل ـ بذلك ـ فى متاهة الايماءات ، حيث تفترض الايماءة الأولى الصادرة من العنوان ـ الدلالة على « النساء » عامة ، اللائى يعنين ب « **تصبح على خير** » ادارة الظهر • لكن ايماءة أخرى سرعان ما تتقدم كمحاولة لملء الفجوة بين « هن » و « نحن » : « **يضعن الخبز على المائدة** » كى يصبح حضورهن أقل ايلاما لنا • ونستجيب بايماءة مشابهة ، بأن نعرض اضاءة المصباح ، لأننا ندرك دورنا فى خلق هذه المسافة : « **كان ذلك خطأنا** » • وبينما نشعل الكبريت ، تصبح النساء عامة ـ فجأة ـ مفردا ، « هى » شخصية ، لتبتعد عن ايماءتنا بعبء موت على ظهرها ، يشمل « موتك » •

وعند نهاية المقطع الثانى ، لا تحدث ـ فحسب ـ نقلة نحوية من الجمع الى المفرد ، فى حالة النساء ، لكن ضمير المتكلم الجمع ـ المطابق للأنا المذكور العام ـ يتقلص الى ضمير المخاطب المفرد ، كاشارة نحوية الى حميمية أكبر ، وهو ما يمتد الى مخاطبة القارىء أيضا ، « القارىء المنافق hypcorile lecture » ، ان صح التعبير • واذ تستدير النساء ويبتعدن الى عالمهن الحزين حيث تصرخ الأطباق فى الرفوف ، فانك ـ أنت ، وأنا ، وشخص الشاعر ـ نرى أن حزنها ربما لم يكن شخصيا كما كنا نظن •

انه نتيجة لدورنا فى حياتها ، وايماءاتنا الفاشلة ، أو حتى بفعل موتى العائلة وموتنا نحن الذى تحمله داخلها ، مثل هؤلاء الذين يمضون الى جبهة القتال ، وبفعل الدور الرمزى للمرأة كعاشقة وزوجة وأم تندبهم جميعا • وقد حولت الاشارة الى الجنود الذاهبين الى المعركة من ايقاع الدراما فى اتجاه السياق العام الذى بدأت منه ، والذى بدا التأثير النحوى — فى المقطع الثانى — وكأنه ينقذنا منه • وبالرغم من جسور الايماءات الوقتية ، تبدو المسافة الفاصلة محتومة ومنيعة ، حينما نصل الى السطر الأخير ، على نحو ما كان الشاعر قد افترض فى السطر الأول •

هكذا يؤسس ريتسوس خطابا كليا عبر تكرار جزئيات مترابطة من قصيدة لأخرى ، وهو نمط أصبح أكثر وضوحا ودرامية — فى تأثيره — فى مجموعاته الأخيرة • وسوف تكشف لنا سطور قليلة من قصائد أخرى الملمح الكلى لاحدى الأفكار المركزية التى سبق استكشافها، فكرة الشخص الوحيد الطامح — والذى يفشل دائما — الى الالتقاء بالآخر المعزول • ومع الفشل ، فانه أحيانا ما يتوصل الى نوع من الاكتفاء الذاتى • من قصيدة « ربما ، ذات يوم » : « **لكننى أصر على الرؤية وأن أريك ، قال ، / لأنك ان لم تر أنت أيضا ، فكأننى لم أر — / سأصر ، على الأقل ، على ألا أرى بعينيك —/وربما ذات يوم،من اتجاه مختلف، سوف نلتقى** »، ومن قصيدة « اكتفاء ذاتى ؟ » : « **تحت الأشجار كرسيان • لماذا هما اثنان ؟ / آه ، نعم ، واحد لتجلس عليه ، وواحد لتمدد رجليك** » ، ومن « فهم » : « **كى تستطيع النظر خارج نفسك — دفء وسكينة • / لا أن يكون « انت وحدك »** ، **بل « أنت أيضا »** » • ومن « نفس النجمة » : « **ذلك الرجل يشك فى أن كل مرآة / بها امرأة واضحة ، أخرى ، محبوسة فى عريها — / تقريبا كأنك تريد أن توقظها ، لن تستيقظ • / تستغرق فى النوم وهى تتشمم نجمة • / ويستلقى يقظانا وهو يتشمم نفس النجمة** » •

***

وفى **الأقواس الثانية** (١٩٥٠ — ١٩٦١) ، ثمة انشغالات واستراتيجيات ترتبط بالسابقة ، على نحو ما يؤكده اختيار الشاعر

للعنوان المشترك • فالفشل فى التواصل ، والنكوص الى اكتفاء ذاتى ، حاضران — مرة أخرى — فى احدى القصائد القليلة التى تستخدم ضمير المتكلم — « اكليل » — حيث يقرر الشخص المنعزل أن يتوج نفسه بالاكليل المجدول من الغار ، والذى ظل محتفظا به من أجل الآخر الذى يحاول — سدى — العثور عليه • وهناك — أيضا — فشلنا فى التآلف مع حقائق كل من الحضارة والطبيعة ، وضياعنا فى محيط لا يستوعب مقاصدنا الطائشة والخرقاء أحيانا •

لكن الفكرة الأكثر الحاحا فى هذه المجموعة تكمن فى عجزنا عن الفعل ، أو فى هواجسنا ازاء الأشياء التى لا تحدث ، والأماكن الخاوية والمغلقة • ففى « الوحيد » ، لا يكفى أن ما تم انتظاره زمنا لا يحدث — وهو ما لا يتم تحديده — لكن هؤلاء الذين انتظروا شيئا ما أن يحدث يجدون — وهم يخفضون الأعلام — أنهم متروكون وليس معهم سند وحيد،أو بديل وحيد لما كان متوقعا ، مع افتقاد الحل البربرى فى هذا العالم الكافافى الجديد ، افتقاد التبرير • واذا كانت الجدران — فى « الوحيد » — «**تفوح — بقوة — بالغربة** »، ففى « تعبير الخريف »، تفوح الأشياء المحيطة بالخواء، بالغياب ، بالموسم الخطأ ، لأن « **الرطوبة الهائلة بدأت • ورحل المصطافون** »• ونعرف من « تقويم مكتبى » أن « **الجميع ذهبوا الى الخارج** » فى منتصف الشتاء ، ليتركونا الى « **ملامح اليأس من الريح / فى واجهة الباب الزجاجى للفندق المغلق** » •

ولا يحدد ريتسوس مصادر أو أسبابا بعينها للاحساس بالهجران والغياب ، بالجمود والصمت الذى يسود المشهد لديه فى الأقواس الثانية، ولا يقدم اشارة واضحة لما يمكن أن يكون سببا فى تغيير الاحتمالات المرجأة والتوقعات المجهضة • والمدخل الوحيد الذى يتيح لنا التوصل الى رؤيته للمستقبل ، وللكيفية التى يمكن أن تتحول بها الأشياء ، يتحقق من خلال قصيدتين من أهم قصائده فى « الأقواس الثانية » • وكل منهما تقترح آلهة جديدة تحل محل القديمة •

فى القصيدة الأولى — « فى أطلال معبد قديم » — يضع ريتسوس الآلهة القديمة والجديدة فى تقابل مباشر : « **حارس المتحف كان يدخن**

أمام حظيرة الغنم ٠/ كانت الغنم ترعى وسط الأطلال الرخامية » ٠ ويبدى الراعى والحارس القبول بالأطلال الرخامية القديمة كأشـياء حياتيـة ، عادية ، كأن الأطـلال قد استنزفها الزمن من أية وشائـج الهية ، لتصبح ـ الآن ـ جزءا من هذا العالم كنفس تلك الشياه التى ترعى بينها٠والواقع أنه لا يمكن الفصل بين الشياه والأطلال : « جرت الغنم اليه كأن الأطلال الرخامية كانت تجرى » ٠ وتبدو المرأة ـ مع الثياب المغسولة ـ طارئـة على الآلهة القـديمة ، وهى تعلق سراويـل زوجها الداخليـة على أكتاف « هيرا » ٠ وبدلا من موكب تمجيد الآلهة ، تجد صيادين بسـلال مليئة بأسماك وامضة ، متعددة الألوان ـ بل الأسوأ أن وشاح الربة المطرز فى أبهة قد تم تمزيقه لصـنع ستائر ومفـارش الموائد ٠ وبدلا من الاحساس بالسخرية ، يتملك المرء الاحساس بمنطقة ومناخ تم تنظيفهما من أجـل بدايات جديدة ٠ ففى التعامل مع الآلهة القديمة بهذه الصورة العارضة ، بهذه الألفة ، فى تحويلهم من أدوات غموض الى أشياء منزلية نافعة تتطلبها الضرورة ، يبدو أهل العالم الرعوى الحديث لا وكأنهم قد كيفوا ماضيهم القديم ، بل وقد فرضوا عليه الحياد ، كأنهم يهيئون لقدوم آلهة جديدة ٠

وسـيجد هذا التفسير ما يدعمه فى قصيدة تاليـة ـ « بخور » ـ وخاصة فى سطورها الأخيرة ، حيث يبدو اشعال سيجارة كنوع جديـد من طقس الهى ، من بخور جديد من أجـل اله مجهول ، لا يبلغـه أحد ، مرصود باعتباره « **الههم تماما** » (كى نميزه عن آلهة الآخرين ، عن آلهة التراث ، وآلهة الأعداء ، الخ) ، اله بلا اسم ، ولا تحديد ٠ وعلى العتبة يتذكره الرجال ، وهم فى غمار الانبثاق من الأحياء المغلقة ، الزجاجيـة ـ فى المقطع الأول ـ الى الهواء الطلق ، فى طريقهم الى عملهم ، مفترضين ـ ربما ـ أنه اله جديد ما يشير اليه دخانهم ٠

* * *

ونصل الى « **البعيد** » الذى كتبت قصائده بعد خمسة عشر عاما من آخر قصيدة من « الأقواس » ٠ ويتخـذ المشهد الذى يطرحـه ريتسوس خشونة وكآبة تتخطى تجليات أعماله السابقة ، غير أن هناك قوة جديدة

تنطوى عليها هذه المرحلة من رؤيته . فالقوة العليا المهيمنة ـ على نحو ما يفترض العنوان ـ هى المسافة، والصمت، وما يتعذر بلوغه ، والبطالة، أى كل ما تضمنته الأقواس الأخيرة، لكنه يصل ـ هنا ـ حدوده القصوى. ورغم أن قصيدة العنوان هى الأخيرة فى الديوان ، فانها تنطوى على نغمة الابتهال ، كصلاة ما الى اله يرفرف بأجنحة من أقواس ريتسوس ، وقد احتل ـ هنا ـ منصة مركزية ليتلقى التراتيل مباشرة : «أيها البعيد..». وتبدو الفجوة الفاصلة بين اليدين المجازيتين للأقواس وقد اتسعت الى ما لا نهاية ، اذ ان الخطر الأكثر حقيقية انما يأتى من « **القريبين ، من القرب ذاته** » ، واذ ان ما يستند اليه العالم انما هو شىء ما لا يمكن التسليم به ، شىء ما بلا ضمان ، يعيش خفيا فى عالم البطالة حيث تهيمن الموسيقى .

ومعظم العناصر التى تؤسس للمشهد الجديد فى « البعيد » مألوفة منذ القصائد المبكرة ، لكنه يقدمها ـ فى هذا الديوان ـ بأسلوب متخلص من كل زخرفة ، ليحقق قوته فى نوع جديد من البساطة والاقتصاد ، لا عاطفية مباشرة، لا استعارات واضحة ، والتركيب الأساسى للعبارات ، والألوان الأولية ، والتفاصيل مركزة ـ فى تدقيق ـ من أجل خلق صورة بلد ينتابه عنف سرى :

الصوت العميق سمع فى الليل الأعمق .

فالفعل ـ فى قصيدة « فى اتجاه السبت » ـ قد تمت معالجته باقتصاد ، محض الحقائق العارية ، ولا تعليق . مشهد تم تصويره ـ بقوة ـ لأحلام رديئة ، لرعب تستعيده الذاكرة مع المخاطر والتهديدات التى تظل بلا حل . وربما كان الشخص المحورى ـ فى هذا المشهد الكابوسى ـ يمثل ضحية فى شرك ، يحاول أن يتخفى من قوى وأعداء غير واضحين ، ولا تحديد لهم سوى ب « هم » .

وتهديد الاعتقال والاذلال يطارد ضحية الكابوس ، حتى فى تلك اللحظات المنذورة للبهجة ، مثلما فى « الاعداد للاحتفال » ، حيث الشخص

الذى يحتفلون به فى اجتماع عام فى قاعة كبيرة ، لا يكتشف فحسب أنه ضائع فجأة ، بل يدرك أيضا أنه اذا ما استعاد نفسه ، واستطاع أن يحرك قدميه كى يمضى ، فان الحاجب سيقبض عليه .

وافتقاد الضحية للتواصل مع نفسه يتوازى مع افتقاد كلى للتواصل مع الآخرين فى هذه القصائد التى تلتقط فكرة اثنين يواجه كل منهما الآخر فى محاولة للتحاور . لكن الحوار الجوهرى قد مضى لما هو أبعد من اللقاء عبر الكلمات ، على نحو ما يؤكد عنوان احدى القصائد : « حوار موجز » . فحتى السرير الذى تواصل فيه الحوار ، تراه المرأة كـ « **حيوان صامت ، متوحش يتاهب للرحيل** » . والبعد الفاصل بين « هو » و «هى» — فى هذا الديوان — يبدو غير قابل للعبور . انهما ميتان بالنسبة لبعضهما البعض . ذلك ما يبدو — حرفيا — فى « اكتمال تقريبا » ، حتى لو كان حوارهما يجاهد فى انكار ذلك . وفى أفضل الأحوال ، فهما يتواجهان كمشلولين ، مستربيين ، يرى كل منهما الآخر بعينه الزجاجية .

والقصيدة التى تقدم — بالفعل — صورة للاتصال الجسدى — « شروق شمس الشتاء » — تخبرنا بأن الشخص الثالث فى المنتصف ليس سوى تمثال،ويرى الثلاثة يتمشون فى « **اللامبالاة المضيئة للموت** ». وهذه الفكرة — فكرة موت اللقاء حينما يبدو ممكنا وضروريا — تجد خلاصتها المنطقية فى « مع ما يتعذر بلوغه » ، حيث الـ « هو » يصل الى ما يبدو وعدا أقصى بالاكتفاء الذاتى .

ان رحلة الثلاثين عاما من « **أقواس ١٩٤٦ — ١٩٤٧** » الى « **البعيد** » هى رحلة تطهير مريرة ، من تركيزه على ما يسمى بالأشياء البسيطة والايماءات المجهضة الى التركيز على الأساسيات العارية — لا الجرداء — والطقوس البدائية . لاخطابة أو انشائية ، لا غنائية ذاتية ، بل المجازى الذى يضىء — فى غموضه — مأساة الحضور الانسانى .

(٥)

أيها الألـــم اللانهائي
أيها الفرح باتســاع العالم .

كأنه كان يسابق الزمن ونفسه ، دون اطمئنان الى حريته ، أو كأنه ـ بحدس الشاعر العميق ـ كان يدرك أنها حرية موقوتة كالقنبلة التى لم يحن موعد انفجارها . وقبل أن تنفجر كان قد نشر ديوانه « **شهادات** » على جزءين ، عامى ١٩٦٣ و ١٩٦٦ . تجربة جديدة من قصائده القصيرة المكثفة ، التى يعيد فيها اكتشاف أركان العالم المختبئة، ولحظاته الهاربة ، وايماءاته السرية . وللمرة الأولى ، ينشر تقديما ل « الشهادات » كان قد كتبه بطلب من اذاعة براغ لبرنامج خاص عن الديوان :

« ان مهمة الشاعر، فيما أعتقد ، تكمن فى أن يتحدث لا **عن** الشعر ، بل **من خــلال** الشعر ، حتى لو كان هو الأكثر ملاءمة والمرشـــح الأكثر مسئولية عن تقديم خيط « اريادنى » لنا ، الذى يمكن أن يقودنا الى السر العميق لكيفية فعاليــة الشعر . مسئول ، نعــم ، لكنه لابد أن يتحدث بطريقته ولغته الخاصتين ـ ولغة الشعر لغة للتركيب ، فيما لغــة النقد لغة للتحليل : لغتان مختلفتان كليا . ولهذا ، فعندما نطلب من الشاعر أن يحدثنا عن عمله الشعرى وليس **من خلال** عمله ، فاننا نطلب منه تغيير الوظيفة . وفضـــلا عن ذلك ، كما قلت كثيرا من قبل ، فان « الشعر ، كشعر ، يقول لنا الكثير والكثير وعلى نحو أفضل بكثير مما يمكن لنا أن نقول عنــــه .

كيف ـ اذن ـ **ولماذا** يتوجب على الكتابة عن ال « شهادات » ، طالما أنك تستطيع التواصل معها مباشرة ؟ وحتى لو أردت سحب تحفظاتى على المنهج التحليلى للنقد ، الذى يفرغ القصيدة على نحو يصعب اصلاحـــه ، وقررت أن أستخدمه ، فاننى سأحتاج ـ غالبا ـ دستة صفحات للاشارة الى العناصر التى تنطوى عليها ثمانية سطور أو عشرة فى هذه القصائـــد القصيرة ـ مهمة مستحيلة بوضوح ، فضلا عن عبثيتها ، طالما أن التجربة

الجماليـة غير قابلة ـ عمليـا ـ للنقل : فهى تتطلب ـ ابتداء ـ ادراكها الخاص من قبل كل قارىء ، من خلال تجارب الحياة اللانهائية ، والمعرفة ، والممارسات ، و ـ قبل كل شيء ـ التوجهات الخصوصية ٠

بحكم الضرورة ـ اذن ـ فالسبيل الوحيد المتاح لنا هو اللجوء الى التبسيطات والتعميمات ، والتى ليست أكثر فائدة فى المقاربة الحقيقية للفن ، أو يمكننا اللجوء الى تفسير تاريخي موجز لكتابة القصائد ٠ وهو ما يمكنني القيام به استجابة لطلبكم الكريم ٠

لقد بدأت كتابتى ل « شهادات » تقريبا منذ الوقت الذى بدأت فيه الكتابة ، أى عندما كنت فى الثامنة من العمر ٠ أعنى بذلك أن أساسها قد أرسى منذ ذلك الحين ، بل وقبـل ذلك بكثير ٠ لكن شـكلها الأكثر تحديدا بدأ فى التشـكل عام ١٩٣٨ ، فى سلسلة من القصائـد القصيرة التى تحمل عنوانا كاشفا « ملاحظات على هوامش الزمن » ٠ واستمرت هذه القصائد ـ فيما بعد ـ فى « أقواس » وفى سلسلة كبيرة تالية «تدريبات»، الى أن تكثفت واتخذت شكلها النهائى ، وحملت عنوانها العام «شهادات»٠ وقد ظهرت ـ خلال هذه الفترة ـ مجموعـات أخرى من القصائـد تحمل عناوين مختلفة ٠

ولا أستطيع ـ بالتحديد ـ أن أقول **كيف ولماذا** حدث أننى ـ أنـا الذى انكببت فى البدايـة على القصائد الطويـلة التركيبية بحكم الميـل والتوجه ـ قد ارتبطت لسنوات عديدة باصرار وحب بال « شهادات » ، ومازال مشغولا بها بصورة مستمرة ، جنبـا الى جنب ما أعمل فيه أيـا ما كان ـ مقدما لها اهتماما متميزا ومسـتقلا ، ولا يمكننى أن أقول لماذا أواصل كتابة هذه القصائد **المقتضبة** ، الابيجرامية ٠ ربما يكمن السبب فى أننى مقتضب بحكم السـلالة (وليس ذلك مجرد تلاعب بالألفاظ) ، وربما يكمن السبب فى نزوعى الى أن أثبت لنفسى وللآخرين أننى قـادر على التعبير عن ذاتى بكلمة مكثفـة ، محكمة ، وربما نتيجـة للرغبـة فى الاستراحة بعد التوتر العالى المؤرق ، لفترات ابداعية طويلة ، ربما كان نتيجة لاحتياج ما لممارسة يومية فى احكام شحن قدرتى الفنية الى الحد

الذى يمكننى معه أن أستخدم ـ مباشرة ، وبلا أخطاء ـ التجارب المتجددة أبدا للحياة فى الفن ، وربما يأتى من محاولة تكثيف تعبيرى ، كرد فعل على خطر الاسهاب والخطابية الذى يتوارى خلف القصائد الطويلة ، وربما كان نتيجة للاحتياج لتقديم استجابة بسرعة البرق للمشاكل الحيوية الملحة لعصرنا ، ولعله يأتى ـ حتى ـ من رغبة فى التوقف المفاجىء، ورصد لحظة **منفردة** قد تسمح بالتأمل العميق ، الميكروسكوبى لذاتها، والكشف عن جميع عناصر الزمن التى ربما تلاشت فى مدى محدود ـ ادراك للمخفى بمعنى آخر ، من خلال الرؤيا ، ادراك للحركة الدائبة خلال الثبات ٠

والقصائد ـ على أية حال ، وبرغم ما قد تمثله ، الى حد بعيد ، من مفارقة (وهى كذلك ، عن عمد) ـ انما هى **شهادات** حقيقية لتجربة عامة بقدر ما هى معينة ٠ عامة ، حينما تتعلق بسؤال أصل الانسان ومصيره ، وموقعه فى العالم ، حتى وهو يواجه الموت ، والعلاقات الانسانية فى سياق الزمن والمكان الاجتماعيين والتاريخيين ، ومعينة حينما تتعلق بالفن وتقنيته ، كأن هناك مكانا متماثلا ، وان يكن خاصا أيضا ، للبحث والتعبير الاجتماعيين والوجوديين ٠

وكثيرا ما سوف نلتقى لا فحسب باتجاه للاقرار والتسامح المجرد باسم الادراك والوعى العميق بعناصر الحياة الغامضة ، المعقدة ، العصية على الفهم،المستعصية على التفسير واللامسئولة،ولا فحسب باتجاه للكشف المكتفى بذاته لعمق قد ينطوى على تبريره الذاتى ضمن جذوره الغامضة (والذى قد لا يحتاج ـ أصلا ـ لأى تبرير من أى نوع) ، بل سنلتقى ـ أيضا ـ باتجاه للموازنة الاجتماعية والأخلاقية ، للنقد والنقد الذاتى ، وباتجاه للمسئولية الجزئية والكلية عن اللحظة التاريخية الراهنة ، عن تاريخ الجنس البشرى كله ، وخصوصا ـ بالطبع ـ تاريخ اليونان ٠

ولا تتردد القصائد فى التعالى على الملاحظة والوعى الحيادى ، والسحر المريح للصمت والضبابية ، وأيضا الدائرة السحرية (أو اللولب السحرى) لتقديمهم من خلال « روابط ذاتية الحركة » ٠ ولا تتردد فى

الميل الى تحديد وتعيين الحديث ، والمحادثة ، وحتى ـ أحيانا ـ الى التحقق من الأسباب ، والشرح بل والاقتراح المحدد ، الحافز ، والتحذير ، والحل ، والاستنتاج، أو النصيحة ، وبالطبع ـ ليس دائما، وانما كثيرا ـ فوضوح الفن يمكن أن يسمح بالاسراف في البوح ، أو بالحذلقة في التعليم ، والحيادى ـ الذى مارس واكتسب تواضع الشعر ـ يمنح الشاعر الحق في اتخاذ موقف ومزاج المعترف والكاهن ، والأخلاقي وحتى المعلم ٠

أما بالنسبة لنغمة « شهادات » ، فانها (عن عمد ، وبالغريزة) لا شخصية ، لا مبالية غالبا ، وليست ـ في الحد الأدنى ـ عاطفية ٠ ليست ـ في الحد الأدنى ـ خطابية ، فيما تخفى أى عنصر مأساوى خلف تعبير حيادى لاأعرف ـ على وجه التحديد ـ ما اذا كان على أن أسميه تواضعا أم عجرفة ، أدبا أم وقاحة ، حنوا أم ازدراء (حيث الحنو ـ كما الازدراء ـ جبن في الأغلب) ، جرأة أم خوفا من سوء الفهم ونهجا في الفهم ، اخلاصا مطلقا ومتواضعا أم قناعا مطلقا للامبالاة مدهشة وقولبة يتعذر مقاربتها ، وراءها يمزق الهدوء الداخلي الانساني نفسه بين وجهى الحياة والموت ، دون أن يتخلى أبدا عن نضاله من أجل الوجود ، واكتشاف ذاته ، والتعبير عنها واستدامتها ، ومشاركتها وتبريرها (حتى ولو كان ذلك من خلال كلمة مساوية للفعل) في العالم ٠

لا أدرى ٠ ربما كانت كل هذه الأشياء تحدث بالتبادل أو ـ حتى ـ على التوالى ، جنبا الى جنب معاونة الأشياء البسيطة ، الواقعية ، المستعصية على الادراك والمهدئة (تلك المولدات الصغيرة للطاقة الانسانية النافعة ، تلك الأساطير اليومية البسيطة) ، التى تساهم وتشارك ـ لا اراديا ـ في الأدوار الرئيسية في دراما لا تخصها ٠ لقد استدعيت لتؤدى دور « لا شيء يحدث » بالتحديد عندما يحدث كل شيء ، ويصاب المشاهدون بالذعر من كل ما يجرى ، ليرحلوا دون أن يروها ، دون معرفتها ، ليتركوا الشاعر متهما في عزلة مطبقة ، فيما يغرقون ـ هم أنفسهم ـ في عزلة أكثر سوءا ، عزلة بلا ومضة حل ممكن لها ٠

هكذا ، فالأشياء البريئة قد استدعيت كما لو كانت غير منحازة ، ومتسامحة ، أو كوسائط نزيهة (برغم أن حضورها يظل مؤثرا الى حد

بعيد ، على نحو غامض فى النهاية ، ورسالتها الخفية هي ــ على أية حال ــ رسالة قبول وتسامح) • وفى مواجهة الأشياء ، لا انحيازات لنا ، ولا اهتمام ذاتيا أو معارضات ، ولا نكن لها عداء أو احتراما (كما نفعل تجاه المبادىء والمشاعر) • فى ذلك ، يكمن سبب قدرتنا على احترامها ، والاعتراف بها ، والثقة فيها •

ذلك ما يتحقق ــ اذن ــ حينما يهبط الفن من التجارب العظيمة الى مستوى المكر والحيلة (كعنصر ضرورى فى تقنيته) ، والتى لا تزيد ــ فى النهاية ــ عن « ابتسامة بعيدة » ، عن طيبة ما ، وفهم ، واحتياج انسانى وعنيد الى المشاركة ومحاولتها ، والصداقة المشتركة ، والاخوة •

وبودى أن أنتهز هذه الفرصة لألاحظ (رغم يقينى من أنكم قد لاحظتم) كم أننى كثيرا ما أستخدم ــ فى ال « شهادات » (وفى هذه المقالة أيضا) ــ بل وأغالى فى استخدام كلمة « ربما » وحرف العطف « أو » • وأنا متأكد ــ أيضا ــ من أنكم تعرفون الآن ــ سواء ما اذا أحببتم ذلك أم لا ــ أن ذلك لا يحدث بالمصادفة : انه أمر مدروس على نحو مطلق ، والزامى غالبا • لا أعنى ــ هنا ــ افتراض أن الضرورة الشخصية تتجاوب، بأية حال ، مع التبرير الموضوعى الجمالى (اذا ما كان مثل ذلك التبرير موجودا) • ولا أنا طامع فى تبريرات : لا حاجة اليها ، وهى ليست بذات أهمية • فالموضوعية الشخصية تكفى ، وهى الموضوعية الوحيدة ــ فيما أعتقد • اننى أفسر ــ فحسب ــ بقدر ما أستطيع ، بعض ايماءات الشعر التى لا تتصل ــ كلية ــ بالقصيدة (وبالتالى،فهى ليست ــ كلها ــ تافهة) ، مدركا ــ مع ذلك ــ أنها تظل عصية على التفسير (هل ذلك الذى يظل ــ فى النهاية ــ عصيا على التفسير ، حتى بالنسبة للمبدع ذاته ، هو ــ تحديدا ــ ما ينتمى الى الشعر ، ويحفز القارىء تجاه الابداع ، أى تجاه اكتشافه الخاص ، أو ــ فى الحد الأدنى ــ بحثه الخاص ؟) •

ان الاستخدام المتكرر ل « ربما » ــ اذن ــ فى كتاباتى ، وخاصة خلال هذه الأعوام الأخيرة ، ليس حيلة أو مجرد صنعة • انه أيضا تشككى الخاص ، تساؤلى ، واحتياجى الى اجابة • هو نوع من أداة حفر متاحة

من أجل بحثنا المشترك (بقدر ما هو ممكن) ، حتى عندما تنبع هذه ال « ربما » من يقين أو ترفع شخصي ، أو من ثم يتخفى في شكل تجاهل ، أو سذاجة ، أو تواضع ، أو كرم ٠

وعلى نفس النحو ، فالاستخدام المتكرر لحرف العطف « أو » ليس — ببساطة — تأكيدا على تعددية أبعاد الحياة والفن ، ولا مجرد نصيحة بالاختيار بين بدائل مختلفة ٠ فالأكثر أهمية أنها كشف لنظرات قابلة للادراك ، ومقبولة على نحو عام، وأنها تحذف وعيا أساسيا (أسيء تشكيله على نحو متسق ، أو تم تجاهله كلية) ٠ وهذا الحذف الصامت — على وجه التحديد، فيما أعتقد — هو الذي يجعل مثل هذا الوعي قابلا للادراك، حاضرا ، ومرئيا حتى بعده الأول والأخير اللامرئي ، اللامحدد ، اللانهائي ٠ وهو ما ينطبق — بلا فشل — على أولئك الذين أهلوا أنفسهم إلى حد ما ، والأكثر على أولئك الذين تأهلوا تماما ٠

مع الجميع قلت انني أخشى أن أكون قد جعلت « شهادات » الغامضة بالفعل ، كما يقولون ، أكثر غموضا — هي غامضة ، بالتأكيد ، نتيجة للوضوح الزائد ، والتحديد ، والحميمية ٠

والطعم الأخير الذي يتبقى في أفواهنا من ال « شهادات » ربما هو العرفان الصامت تجاه الفن والفكر والفعل والحياة الانسانية ، رغم أنف كل المحن ، ورغم الموت — وربما بسببهم حقا ٠ وربما كان ذلك — أيضا — عكسا أو تحويلا جديدا للأشياء ، يجلب العزاء (أود القول : تغييرا أو تحريفا) ، على نحو ما يحدث دائما في كل كشف ، أي في كل ابداع ، حيث كل لحظاته المجيدة العارضة بالاحساس بالعنفوان، وبهجته الساحرة اللحظية (من قبيل الاحساس المباشر بالأبدية والمسئولية المشتركة عن الكون) لا تخفي — بشكل كامل — شعورا ما باللاجدوى والجهد الضائع ، مهما كانت رغبته (أو عدم رغبته) كبيرة في تحييده أو — على الأقل — عكسه ، لتحويل خصائصه السلبية الى خصائص ايجابية ، ولتحويل النفي المطلق الى تأكيد غير نهائي ، كلي ٠ وهو — فيما أعتقد — ما تشهد عليه « شهادات » فيما يتخطى مزاج أو سيماء السخرية والسخرية

الذاتية · وربما سيكون ذلك ــ أخيرا ــ شهادة كل انسان ، فى كل زمان ومكان ، يحس بالشعر ويعمل فى مجاله » ·

(٦)

أيتها الرحلة بلا متاع
نـــار بـــلا فحـــم
جـــوع بـــلا خبز
عطش ونشوة بـــلا نبيذ ·
فات الآن أوان الرجوع ·

وفى ليلة ٢١ أبريل ١٩٦٧ ، ينقض الكولونيلات على الحكم · ومع آلاف المعتقلين من السياسيين والنقـابيين والمثقفين ، يعتقل ريتسوس · ثلاثة أيام محتجزا لدى البوليس ، ثم الى ستاد « هيبودروم » ، أحد مراكز تجميع المعتقلين قبل نقلهم الى الجزر التى تلعب دورا مزدوجا فى التاريخ القمعى فى اليونان : دور المعتقل السياسى ودور المنفى ·

أما ريتسوس ، فالى « ياروس : جزيرة الشيطان » · جزيرة جرداء صخرية ، وبضعـة أبنية متنـــاثرة ، مهجورة ، لن يأوى اليها المعتقلون المنفيون، بل الى خيام تنتظر أكثر من ستة آلاف وخمسمائة معتقل منفى ·

ومن « ياروس » الى « ليروس » فى سبتمبر من نفس العام ، حيث رفع عنه تحريم الكتابـة · مفكرة يدون فيها مسوداتـه الشعريـة التى ستؤسس قصائده القـادمة · مسودات مكثفة وخاطفـة لايماءات الرعب والهذيان ، والكلمات المتقاطعة ، أفعال بلا وعى ، ووعى كابوسى ، لكنه ما يزال قادرا على تحويل المأساوى الى كاريكاتيرى ، ليمكن احتماله ·

ومع اعتقاله ، نظم « لوى أراجون » حملة واسعة للمطالبة بالافراج عنه ، ضمت « موروا » و « ناتالى سـاروت » و « موريـاك » و « جينو » و « سوبو » و « سولير » ، الى ايطاليـا وألمانيـا وسكنديتافيـا والبـلاد الأنجلوسكسونية ·

ويعاوده التدهور الصحي ، فينتاب الكولونيلات الرعب : « لسنا بحاجة الى لوركا يوناني » • وفي أحد أيام ديسمبر ١٩٦٨ ، يسمحون له بالعودة الى منزله في « ساموس » ، دون أن يكون من حقه لقاء أحد ، أو الاتصال بأثينا أو الخارج ، لا خطابات ، ولا مغادرة • نوع آخر من الاعتقال يحتفظ بجوهره الأساسي ، في شكل نقيض • ولن يتمكن من الذهاب الى أثينا قبل مرور عام من الافراج الشكلي عنه •

كانت الرقابة سيدة الثقافة في تلك السنوات • وقائمة الممنوعات لا تغفل شيئا • وقرر الجميع الصمت الثقافي وعدم النشر ، ومن بينهم « سيفيريس » و « ايليتيس » • وفي أوائل ١٩٧٠، رفعت الرقابة السابقة على النشر الى رقابة لاحقة عليه ، ليتحمل الكتاب تبعات النشر بعد صدور المطبوع • واتفق الكتاب على كسر الصمت بالمواجهة الجماعية : انه كتاب « ثمانية عشر نصا » للأدباء والمثقفين الذين رفضوا أن يخضعوا كتاباتهم للرقابة ، في صيف ١٩٧٠، عن دار نشر « كيدروس »• وفي شتاء ١٩٧١، صدر « **نصوص جديدة** » عن نفس الدار اليسارية ، صاحبة حقوق نشر أعمال ريتسوس في اليونان•وقد اعتبر استكمالا لـ « ثمانية عشر نصا » : ٢٦٣ صفحة من المقالات والقصائد والأعمال الدرامية القصيرة التي كتبها معتقلون سياسيون وضحايا لنظام الكولونيلات • وفي موقع افتتاحية « نصوص جديدة » ، نشر ريتسوس ـ لأول مرة ـ « **دمار ميلوس** » •

عمل شعري حواري عن تدمير « ميلوس » على أيدي الأثينيين عام ٤١٦ ق•م ، فيما يمثل مجازا رمزيا عن نتائج الديكتاتورية العسكرية في اليونان • ففي زمن العنف والارهاب الذي أشاعه النظام ، كان اليونانيون كأنهم أسرى في وطنهم ، كنسوة ميلوس • ورغم أن المساحة الغالبة من العمل تستعيد الذكريات الأليمة للضحايا ، الا أنه ليس عملا عن اليأس ، اذ تدرك نساء ميلوس ـ في نهاية العمل ـ أن « وطنهن » انما يكمن داخلهن ، وأن « حريتهن » انما تتحقق داخلهن • وبالرغم من السبعين والثمانين عاما ، فان النسوة يشعرن بالحمل ، يشعرن باستعادة الشباب ، وأنهن على استعداد للانجاب مرة أخرى• ولسوف تعود هذه الفكرة ـ فكرة

العجائز القابلات للحمل والولادة ـ فى « الجسد والدم » التى كتبت عن انتفاضة طلاب جامعة العلوم التطبيقية فى أثينا فى نوفمبر ١٩٧٣ ، ضد النظام العسكرى ٠

وربما كان مشهد السفن التى تنقل المعتقلين السياسيين من أثينا الى الجزر ـ عبر بحر ايجه ، هو ما أيقظ فى ذهن الشاعر نهب ميلوس على أيدى الأثينيين فى حرب البلوبونيز ٠ فوفقا لثيوسيديديس ، أرسل الأثينيون وفدا الى جزيرة ميلوس المحايدة سياسيا عام ٤١٦ ق٠م، ودخلوا فى حوار مع سكانها ، فى محاولة لاقناعهم بأن يصبحوا عضوا فى الامبراطورية الأثينية يدفعون الجزية، فيكون من حقهم ـ بذلك ـ الاحتفاظ بحريتهم فى التمتع بثرواتهم ٠ وأوضح الأثينيون ـ لأهل الجزيرة ـ حماقتهم فى الظن أن باستطاعتهم مقاومة أثينا القوية ، وأن الآلهة سوف تحميهم ، طالما أنهم يدافعون عن الصواب ضد الخطأ ٠ وقرر الأثينيون ـ فى غطرسة ـ أن السلوك الحصيف يكمن فى التخلى عن الشعور الزائف بـ « الشرف الذى يجلب على الناس الدمار » ، وطالبوهم باللجوء الى الجانب الأقوى ٠ ورد أهل ميلوس بـ « لا » متحدية : « لسنا مستعدين للتخلى لحظة واحدة عن الحرية التى تمتعت بها مدينتنا منذ تأسيسها وطوال ٧٠٠ سنة ٠ ان ثقتنا فى القدر الذى سترسله لنا الآلهة ، والذى حفظنا حتى الآن » ٠ ويقيم ريتسوس « حوارا ميلوسيا » بين ثلاث نسوة عجائز، قتل أزواجهن وأبناؤهن فى الحملة الأثينية ، وهن ـ الآن ـ مسبيات فى أرض أجنبية ٠

وبرغم استلهام أحداث تاريخية، فان « **دمار ميلوس** » ـ شأن الكثير من قصائد ريتسوس ـ لا تطرح السياسى بصورة مباشرة ٠ فبدلا من الحديث ـ بصورة محددة ـ عن الاعتقال والاقتلاع الجزافيين اللذين عاناهما ريتسوس ـ مع غيره ـ على أيدى النظام ، فانه يطرح فكرتين شموليتين لا تنفصلان : الوجود والاندماج ٠ فاذ تستيقظ نسوة القصيدة فى بطء ، يتساءلن عما اذا كانت جزيرتهن موجودة ، وعما اذا كن ـ هن أنفسهن ـ موجودات ، أم أنهن قد متن ، ويشهدن الآن مرحلة البعث ؟ لكن هل يتذكر الموتى ويتكلمون ، أم كن نائمات لسنوات ، ويتذكرن الآن

الحلم الفارغ للحياة ؟ وفى مجرى الحوار ، ينتهى الى أنهن الآن موجودات ، وأن ميلوس لم تكن حلما بل مكانا واقعيا · واذ ينظرن الى البحر ، يلمحن جزرا صغيرة تنبثق وهى تومض مثل الجواهر ، وتذوب الى رماد · ويعلقن على المشهد : « لكننا رأيناها بأنفسنا وعرفنا بوجودها ، / وعرفنا أن العالم كبير ، أكبر مما استطعنا رؤيته ، / وأننا لم نكن وحدنا » ·

انها الحقيقة البسيطة ـ أنهن لم يكن وحدهن ـ هى التى تدفع النسوة الى الايمان بوجودهن · وخلال مناقشة حياتهن ـ فيما قبل الغزو ـ يتذكرن القحط القاسى ، والعمل الذى يقصم الظهر فى جمع الزيتون ، وقطف الكروم ، وصنع النبيذ · لكن هذه الحياة ـ بعملها الشاق ـ كان لها مباهجها · تتذكر النسوة الاحساس العميق بالرضاء والأمان الذى كان يلفهن بعد تسديد الحساب الأسبوعى للبقال ، وهن مازلن يجدن زيتا يكفى لأسبوع آخر فى الجرة · يتذكرن الفخر السرى بالانتهاء من الغسيل، اذ تضوع رائحة الثياب المعطرة بالشمس والصابون والجهد · وما يستقر فى الذاكرة ـ بشكل خاص ـ انما هى أعمال المنزل الروتينية ، والاحساس بالنظام والانتماء الذى يتحقق من القيام بها : فى تلك الأوقات يتصالح كل شىء بالمنزل ويصبح واحدا : « المكنسة، والقمر، والكلب ، والعندليب ـ الكل واحد » · يتمتعن باحساس واحد بالانتماء الى بعضهن البعض، يتمشين الى ما وراء الحدائق، يدركن الروائح المتمايزة لكل عشبة وزهرة · هذا الاندماج فى العالم المحيط بهن يقدم شيئا ما أكثر عمقا من بهجة عابرة : انه يجعلهن واثقات من وجودهن ذاته · ادراك العادى والمألوف هو ما يؤكد لهن أنهن وجدن ، ومازلن موجودات · فالوجود والاندماج شىء واحد ، وهما نفس الشىء ·

لكن الغازى يقتلع ضحيته،لينتزع الانسان المندمج من العالم المألوف، ليصبح الجوهر العميق لوجود الضحية مهددا بالزوال · فالآن ، وهن فى أرض أجنبية، تعجز نسوة ميلوس عن تمييز الروائح القادمة من الحدائق ، حتى البحر بلا رائحة · وأيديهن لا تتعرف على يد المكنسة ، أو مقبض الباب : كل شىء غريب ، أجنبى · لذلك ، فلسن بحاجة الى مرآة ، ذلك أنهن لن يبصرن ولن يتعرفن على أنفسهن · وحده الوجه القبيح للموت

سوف يعاود التحديق ٠في ميلوس ، لم يستخدمن المرايا أيضـا ، لكنها كانت ـ هنـاك ـ مسألة بسيطة من مسائل الخيـلاء ٠ كن يأكلن نفس الحبوب التي يطعمن بها دواجنهن ، فلم يكن لديهن أى دافع لتمرير مشط فى شـعرهن : « لم نهتم ـ هـل ينظر الحمام والدجاج فى المرآة ؟ » ٠ وعبودية الحياة ـ هنا ـ مشابهة ، بصورة فادحة ، لعبوديـة الحياة فى ميلوس ، عمل شـاق فى الحالتـين ٠ لكن فى ميلوس ، كان البيت ، والاحساس بالانتماء الذى أنقذهن من السقوط فى بئر النسيان ٠

ومع تقدم القصيدة ، تأخذ نسوة ميلوس فى التحول ٠ فبعد العويل على المنـاخ القـاسى وسنوات القحط فى الجزيرة ، يهدأن تدريجيـا ، ويستدعين عذوبة الحياة التى عرفنها ٠ وعند نهاية القصيدة ، يستعدن خصوبتهن من جديد ، ويلقين تحية الصباح على المارة ٠ بذلك ، ينتهى العمل بشارة أمل ورؤية لمستقبل أفضل ٠

« **دمار ميلوس** » : أول صـوت لريتسوس بعد ظلمـات « جزيرة الشيطان » ، فى مواجهة ظلمات الكولونيلات ٠ لكنها لم تكن أول كتابة شـعرية وسط الاعتقـال ٠ فعقب تلقيه لرسالـة من « ثيودراكيس » ـ يطلب منه فيها احدى قصائده غير المنشورة ليقوم بتلحينها ـ قام بكتابة ست عشرة قصيدة فى يوم واحد (١٦ سبتمبر١٩٦٨) فى معتقله بجزيرة « ليروس » ستكون صلب ديوانه « ثمانى عشرة أغنية قصيرة عن الوطن المرير » ٠ لكنه لن يسمح بنشره وترجمته الا فيما بعد (١٩٧٣) ٠ وما ان قام « ثيودراكيس » بتلحينها ، حتى أصبحت عملا شعبيا جماهيريـا فى اليونان ، ثم عبر العالم الخارجى ٠

لا هتاف ولا عويل ٠ لا شـعارات ولا خطب رنـانة ٠ انها « وردة بخور مريم » الصغيرة التى تشق الصخر ، والفجر الرهيف للربيع ، وتل منسوج من أجراس الماشية وثغائها ، وشراع أبيض ، والفتاة تنسج أشياء المهر ، والشاب يجدل السلال ٠

تتألف كل أغنية من أربعة أبيات طويلة ، حسب التقليد الشعرى للأغانى الدارجة ذات الخمسة عشر مقطعا وزنيا فى السطر ٠ وهناك الكثير

من الملامح المشتركة مع تلك الأغانى، لا فى الشكل فحسب، بل ـ أيضا ـ فى الروح • وأقرب مثيل غنائى لها هى ال « كلفتيكا Kleftica »، تلك الأغانى الشعبية التى تحكى بطولة المقاتلين من أجل الحرية فى حرب الاستقلال الوطنية اليونانية • تشترك أيضا فى الروح ـ بالرغم من الاختلاف فى الشكل ـ مع « روميوسينى » الملحمية • وليس من قبيل المصادفة أن الأغنية الأخيرة من الثمانى عشر تتضمن « روميوسينى » فى عنوانها « من أجل روميوسينى ، لا تبكوا » •

(٧)

رحلت السفن وتركتنا
بلا خبز أو نبيذ أو فحم
فى منتصف البحر •

وفى ربيع ١٩٧١ ، يكتب « حجرة البواب » • وللعنوان دلالته على موقع ومنظور الرؤية والملاحظة ، بما يسمح باستقلال ما عن المشهد ذاته • فكل قصيدة ـ من قصائد الديوان القصيرة ـ مشهد مكتمل • وكل مشهد استعارة أو رمز أو مجاز • لا مجانية فى الألفاظ ، ولا تسجيلية فى رصد التفاصيل اليومية • كثافة مثقلة بالدلالات • وبين كل سطر وآخر فضاء تتقاطع فيه التأويلات • يختلط التفصيلى اليومى بالفانتازى بالسيريالى ، بذلك العصى على التفسير • وغموض ضبابى شفيف يتخلل سماء القصيدة، لعله غموض السماء اليونانية فى ظل الديكتاتورية •

فما الذى رآه ذلك « البواب » الذى يحرس النوم واليقظة ، الحلم والكابوس ، والايماءة والاشارة ؟ وكيف رأى ما رأى ؟

بلد يشبه البقالة الفارغة ، التى مات صاحبها فى مؤخرة الدكان • والهبوط يتم فى الظلام ، فى مكان بلا جدران ، بلا سقف ، بلا سلالم ، بلا أثاث ، كأنه انحدار مدرك فى هاوية من هيولى ، حيث « هناك تكمن النقطة الوحيدة الثابتة » ، أو هروب مما هو أفدح من الهاوية • وفى الخارج : لا أحد ، « لا شىء آخر ، لا شىء آخر » •

ذرائع ، والتواءات ، وأقنعة . والموت خلاص من نوع ما ، حل ما فى مواجهة الغثيان والقرف . ولا اجابة للسؤال الجارح : « كيف كبرنا بين أيدى غرباء ؟ » . نوم ينقسم نصفين ، وحياة توزع أوقاتها - كالشظايا - بين الأماكن الغريبة . والوقت يتهشم الى فتات بفعل الصراخ والرنين ، ويرقة خضراء ، لزجة تأتى الآن « لتـأكل المنزل ، والصور المعلقة على الجدران والحبل المتدلى من السقف » . والوهم بالقفز من شرفة الى أخرى دون تحريك سوى يد واحدة . فهل يكون متأخرا اكتشاف الفرق بين الورق والحديد ؟ وهل ينقسم العالم - بالفعل - الى اثنين لن يتوحدا ؟

والتعامل - برفق - مع الدب الأسود سينتهى بالسلاسل التى تتدلى من الجدران ، والسلاسل حول الرقبة . فهل يشبه المنديل الأبيض الذى تنساه العجوز ورقة بيضاء نسيها الشاعر بلا قصيدة ؟ وهل يساوى العثور على « شىء ما بلا أهمية » اللامبالاة باعلان الحرب ؟ هروب الى أعمق أعماق الذات ، وبحث - فى النفايات المهجورة - لا يمنح سوى قشرة برتقال جافة وكسرة مرآة . انها الأشياء التافهة مدار البحث ، كأنها السبيل الى مخرج ما أو مهرب ، « أشياء كنا نعرفها تماما ، فأصبحت مجهولة وبعيدة » ، لن يفضى العثور عليها الى شىء ، انه البحث فى ذاته . أما النباح ، فلا يحمى أحدا « من القمر ، والزمن ، واللصوص » .

انهم يترددون برهة ، ثم ينحنون لالتقاط ما يرمى اليهم من أعلى . أما الوحيد الذى لا يمد يده ، فيخفيها فى قميصه ، ليدارى أنها مبتورة . والمشروع المبرمج المعقد (هل هو النظام الديكتاتورى) محكوم عليه بالفشل . ويظل ممكنا - فى « البرودة المظلمة للأعماق » - تحديد موقف وموقع « داخل العالم المعلق » .

« كل شىء قد استنفد » . لكن - وسط البقايا القديمة - يمكن العثور على « الجمجمة المقدسة لأحد حصانى أخيل » و« صولجان البطريرك » . بهما معا ، كمجازين ، تتحقق المعجزة : أن يسمع الناس المحتشدون الأخرس الواقف على منصة الخطابة .

ومن بعد ، سيضيء ريتسوس بعض أبعاد هذه التجربة :

« بمرور الزمن ، أتكشف ــ بوضوح أكبر فأكبر ــ أن عملي ، في تطوره ووظيفته ، يميل الى التحول (بلا قصدية، بلا تخطيط) الى سخرية وحط من قدر كل كابوس واستغلاله (سواء كان ليليا أم نهاريا) ومن الموت على نحو أعم • واذا ما كان ثمة عامل تحريرى هنا ، فهو الراحة من كثافة الألم والخوف (الجسدى ، والأخلاقى ، والاجتماعى) ، الناجمة عن النزعة التهكمية المحكومة تجاه هلوساتنا « التاريخية » ضمن وحدة الشعور بمشاركة أو تورط حقيقى أو خيالى ــ ضمن وحدة المصير المشترك •

ويبدو أن الشخص المغلوب يستمد القوة ــ مهما كانت موضع سؤال ــ من غالب ما ، خلال هذا الميدان الغامض غير المضبوط ، قوة « التثبيت البصرى » للكابوس ، أو تحديده فى مفهوم ، أو حتى تحويله ــ شيء ما يشبه خلاصا أو تحريرا • بذلك ، يتحول « المأساوى » الحتمى الى كاريكاتير (أو الى شيء ما مفارق ــ أى بعيد موضوعيا) ــ أعمق مأساوية ربما، الا أنه ينطوى على حل المأساوى فى تكشيرة باسمة، أخيرة، ارادية ، تتحول أحيانا (خلال الشعر) الى ابتسامة حقيقية ، الى مزاح ،

الى قرار أو حتى الى قوة لبداية جديدة ، ولفعل جديد• وليس ذلك فحسب نتيجة لتأثير الفعل الجمالى على القارىء أو المستمع ، بل ومن خلال واقع الفعل ذاته •

ويتحقق ذلك ــ بوضوح فى قصائد عديدة مبكرة من « شهادات » ، و « تدريبات » ، و « الحائط فى المرآة » ، و « ايماءات » ، و « الممر والسلالم » ، والأكثر فى « حجرة البواب » •

ففيها ، تذوب ــ بسلاسة ــ « الفردية » التى لا تطاق لما هو شخصى فى الكونى الخلاصى الذى يشمل كل شخص وكل شيء • فالافتقار الى التواصل والفهم ينتهى الى حنو وغفران ، ان لم يكن الى قبول وتوافق

بما يسمح بمزحة أو حتى سخرية الأصدقاء ــ كشيء ما يشبه أخوة سامية تمتد فيما وراء الاختلافات والاتهامات المتبادلة (انها كأننا نتكلم عن أخلاقيات للجماليات) • فأمام أناس حميمين لنا ، فقط (أم ربما أيضا أمام غرباء عنا تماما ؟) يمكننا أن نفصل أنفسنا عن أى ادعاء دفاعى أو تهجمى بالجدية أو الأهمية ، وأن « نمزح » معهم • أمامهم ــ وحدهم ــ يمكننا أن نقنع أنفسنا (كممثلين فى نفس المأساة أو الملهاة)، أو ــ حتى ــ أن نتعرى ، فنخلع ثيابنا واحدا واحدا ، والشعر المستعار ، واللحى ، وقبعات الريش ، وحذاء التراجيديات ، والأقنعة ، وسيوف المقنعين الخشبية ــ ممثلين فى دراما حقيقية لم تكتب ، ممثلين يتظاهرون بازالة ماكياجهم وخلع ثيابهم بعد العرض ، لينتهوا بنا الى الفكرة المعزية بأن « الدراما الحياتية » السابقة كانت ــ ببساطة ــ « دراما مسرحية » انتهت ، ولا يمكن تكرارها على الخشبة ، بل لا يمكننا اعادتها على نحو أفضل •

ف « الواقعى » (و « واقع » الخيال والحلم) قد تحول الى «التخيلى»، والاستبدادى الى محاكاة تهكمية ، « مسلية » • ليس دائما بالطبع • ومع ذلك ، فلدى المرء انطباع بأن اعادة التمثيل البسيطة لصور الكابوس المحرقة والمحرقة ، وصور الوجود الانسانى المستعصى على التفسير (وتحولها ومسخها وتحريفها) يمنح (لا الفنان وحده) اشباعا فاتنا معينا ، قد يعنى القدرة وامكانية التحكم والتحكم الذاتى ، بل والشعور الخالص بما لا يستنفد ، بالقدرة على الاحتمال ، بل وبالنجاح » •

★ ★ ★

ويعود التدفق الشعرى الى مجراه المنشور • فللقصائد القصيرة دواوين « أحجار وتكرارات وقضبان » و « ايماءات » و « الممر والسلالم »، فقصائده التراجيدية الطويلة ، ذات الطابع الأسطورى : « هيلين » و « اسمين » و « عودة ايفيجينى » و « كريسوثيميس » و « أجاممنون »•

وفى يوليو ١٩٧٤ ، تنقشع الظلمات ، مع سقوط النظام العسكرى ، بعد أن تكون قد انغرست فى الذاكرة أبدا • وسيكون له أن

يعود ـ عام ١٩٧٨ ـ اليها ، ليكتب قصيدته « الجسد والدم » ، مهداة الى الانتفاضة الطلابية ضد الديكتاتورية العسكرية. ففى ١٧ نوفمبر ١٩٧٣، احتل الطلبة حرم جامعة العلوم التطبيقية بوسط أثينا ، ودعوا أهل العاصمة ـ من خلال محطة اذاعة أنشأوها بأنفسهم ـ الى الثورة ضد الطغيان ، والقتال من أجل الحرية . وأصبح ذلك الفعل الأول ـ واسع النطاق ـ فى التحدى العلنى للنظام نقطة البداية فى المقاومة . وأرسل الكولونيلات دباباتهم الى الطلبة العزل . وبعد أن كانت الديكتاتورية تنكر كل الممارسات الوحشية التى ارتكبتها فى السر ، فان الطريقة المروعة التى سفك بها دم الأولاد والبنات ـ فى تلك الليلة ـ قد عرت الوجه الحقيقى للنظام .

ومنذ طبعتها الأولى عام ١٩٧٨ ، أعيد نشر « الجسد والدم » فى أكثر من خمس عشرة طبعة . انه نفس العام الذى شهد صدور سبعة دواوين أخرى : « عسكرى المرور » و « البوابة » و « امرأة مونيمفاسيا » و « الرائعة الرهيبة » و « فيدرا » و « اذن ؟ » و « مطرقة الباب ».

وحتى عام ١٩٨٠ ، سيكون قد صدر له ثمانون عملا شعريا ، وسيكون قد ترجم الى اليونانية أعمالا لألكسندر بلوك وأتيلا جوزيف ومایاكوفسكى وناظم حكمت واهرنبورج ونيقولا جيين وغيرهم .

وحينما يطرق الموت بابه فى ١١ نوفمبر ١٩٩٠ ـ عن ٨١ عاما ـ سيجده مثقلا بالزمن والنياشين : « كم من الآباد أحمل فوق أكتافى وفى جسدى وروحى . لقد عبرت ميتات كثيرة ، وهاأنذا أموت أخيرا وأنا أحمل بعض الأبدية » .

القـــاهرة

الثلاثاء ١٦ يوليو ١٩٩٦

أغنيـــة أختي

الى أختى لولا

فى المرايا المشوهـــة للدموع
تهشم وجــه الأبديـــة الســـاكن
لكننا ما نزال نسمع بداخلنـــا
همهمة الســـكينة ٠

أخـــــتى ،

على أن أقف منتصبا فى مواجهة الشمس
وأرفع أعمدة شعرى نحو الفضاء الأزرق
فلعلك تتمشين فى الأمسيات
مبتسمة بجوار « ايوريديس »
تحت سماوات مترعة بالنجوم
فى أصـــــياف لا تنتهى ٠
لكننى ، يا أختى ، لا أستطيع فعل المزيد ٠
فاللانهاية حطمت قوسها الساطع على حاجبى
وأنا أدور حول نفسى فى اللحظة الأبدية
مبعثرا وحســـــيا ٠
صوتى انهار ٠
وفكرى قطف زهوره الأخيرة ٠

بالنشيج وحده أنطق أغنيتك .
فلا الألم ولا النشوة يجرؤان بشفاه دامية
على التفوه باسمك .

على نضارة السماء تركع الرحمة
للتوسـل على قدميـك .
وحمام أحلام الطفولة الأبيض
يحلق خفيضا فى سهول ابتسامتك .
وتأملات الحكماء ما بلغت أبدا
حواف عظمتـك الجليـلة .
والشعراء الذين ذابوا فى الضوء
يعترفون ـ فى ضياء وجهك ـ بخواء القصائد .
وحده الصمت العظيم ، بزنبقة فى يده ،
يلمس فى رفق ظهرك المحنى
الذى رفع الى سدة الرب صرخات الرجال
فيما الليالى الزرقاء القاتمة ، بنجومها المنتحبة ،
كفت ـ من الندم ـ عن الحركة .

أخـتى ،
هـا أنـا أنشر جنـاحى
أنحنى وأقبل أطراف قدميك الحافيتين .
لعـل عقـلى أن يعرف السـكينة
لعلى أغنى الترنيمة المناسبة لك ، يا أختى ،
يا أخت كل العالـم .

يداك البيضاوان اللتان غطتا جراحنا بالمر
تلتويان الآن مربوطتين خلف ظهرك
فى تقاطع مع جسدك كأنهما ، يا أختى ، يدا لص .

وجسدك النحيل مجدول فى العباءة الرمادية للسعار ·
وعيناك قلعتان من زجاج خاويتان
حيث تهيم ــ ضائعة ــ أشباح الماضى ·
أختى ، كيف تتخلى عنى فى منتصف الليـل
لتبحثى دون مصبـاح
وتعثرى على آثار خطواتك الضائعة ؟
فلتغمرينى أيضا فى نفس الظلام
لعلى لا أسمع بوق صرخاتك
التى لا تحصى المقابر التى لا تحصى ·
فجرى فى اللانهايـة عينى
لعلى لا أرى يديك المربوطتين ·
فأينما أستدير لا أرى سواك ·
أستجدى رحمة الجمال أن تهبنى قطرة ندى ·
لكن ما من مجيب لتوسلات المقهورين ·
غبار أصفر من ورود ميتـة
تساقط ثلجيا على الحدائـق ·
والشاطىء الصامت انسحب فى الغسق
والربيع نام ووجهه المضىء مخفى فى يديه ·
أين الصمت الآن بنومه الصافى
بنشوته الثلجية وورود الذاوية ؟

أخـتى ،

لم أعـد شـاعرا
لا أتنازل بأن أصبح شـاعرا ·
أنا نملة شوهاء ضلت طريقها فى ليل لا ينتهى ·
أنفخ فى جمرات أبريل الخامد
فلا أجد شرارة تشعل النـار القديمة ·
لقد وزنت كنوز القرون فى راحة يدك النحيلة ·

وجررت الجبال الى حيث استرخى الشعراء •
وأنـا لم أعـد شـاعرا •
أعرف أن الشعـراء
لا يلوثون الأبراج العاجية للمدن بدموعهم •
انهم يمعنون النظر ،
ونظرتهم المحدقة موجهة بلاشبيهة ،
حتى ليمكن أن يحصوا ومضات الضوء ونبضات الكون •
لكنني ، يــا أختى ،
أمعن النظر وأنا أعد دقات قلبك وأنفاسك •
أقف ، كبرج معتم ، وسط القذائف المدمرة الوامضة
وألمس ـ بلا تردد ـ حـد السيـف •
أقواس الضوء خبت تحت رموشك •
وما من شيء آخر يحيا خارج الدائرة الجنائزية
التى ترسمها عينـاك على العالـم •
لا أريد طبول الانتصار
لاعلان مجدى فى غابـات الربيـع •
فابتسـامتك تكفـينى •
ونبع عينيك يستطيع أن يطفىء عطشى
ويدفع حياتى الى الازهـــار •

كانت لدى سترة جميلة تدفىء ساعاتى •
كانت لدى صحبة من قصائد تكلمنى
فى ليـــالى الحملات الظـافرة •
وأنا أجلس صامتا وحيدا فى هذه الصباحات الضائعة ،
مهيبا أنصب خيمتى
على حلم بالترحيب اللازوردى
الذى يعده لى أصدقائى المجهولون
وسوف أحـدق فى سهول الفجـر
من السطح الطحلبى لبرج الجرس المغطى باللقالق البيضاء •

أطفال شقر في عيونهم ذهول رائـــع
سوف يفتحون العهود المخطوطة لأغنياتي .
(كم من ابتسامات استدعيتها في وحدتي المزيرة
من أجــل بهجة الآخرين !)
آه ، للحاشية التي انتظرت دخولي الى القدس .
كمسيح صامت أسمع أبواق السماوات
التي تنبأت للشوارع المغطاة بالسعف
والصبر الذي لم يخذلني في عذابي الحارق .
لكنني ، يا أختي ، لم أعــد أعرف
كيف أنتظر وأتوسل
أنصتي ، فهذا المســاء
الذي ينسج غلالة وردية فوق الحدائق
يعيد الى روحي القديمة .
تغريد الطيور ينتهك حدادي اللائــق .
أختي ، فلتطمئني ،
فشلالات الصداح لا تسعد حزني .
وأنا مقيم على الوفــاء في ذراعي حبك
لم أعد شاعرا ، وأنا موجـــوع .
فلتغفري لي ، يــا أختي ،
حزني هذا الذي يحيا خارج حزنك .

أخـــتي ،

دائما ما كانت غيمة تظلل رموشك .
وأنت تنحنين على الشرفـــة
ـ حتى وأنت طفــــلة ـ
كنت تحدقــين في البحر
فتنشرين الحلم بعزلة لا نهائيـــة .
وكنت تطعمين قلبك بأوراق الخريف .

لغز ظـل الأم انعكس في عينيـك •
والضوء الشاحب لوجهك
ظـل باقيـا على الأرض في بيتنـا •
لم نرك أبـدا تبـكين •
على صفحتي وجهك وخـدهما
ألمحت الشرايين الرهيفـة
ــ خطوط من ضوء لازوردى ــ
الى حمى شفتيك الموصدتين •
(كم من مرة ــ وأنت نائمـة ــ
انحنيت عليهما لأقرأ سرك) •
مفعمة بالحب والحنـو
كنت تضمدين جراحنـا فى صمت •
صمتك قال كل شيء •
وفى أمسيات الشـتاء
كنت تتمشين وحيدة فى الغابـات
لترعى العصافير العاريـة ،
لتدفئى الحشرات المثلجـة •
قطرة قطرة ، لملمت داخلك
دموع الفقراء والمقهورين •
وعندما انهار بيتنا ظللت منتصبة ساكنة
ــ كظـل للسيدة العـذراء ــ
لترينى النجوم عبر ثقوب السقف •
الآن ، انكسر صمتك
وفى الرعشة الصغيرة التى أخفيتها
سمعت صراخ المحيط •
أختى ، ما من حجر ظـل لى لأنحنى عليـه •

مازلت أمشي في ثغر الزحـــام
في شوارع بلا شبيهات .
لا أحـــد .
الأطفال يلعبون دون حدس بالأجراس
التي تدق بعيدا فتوقف دمهم .
والناس يمكن أن يواصلوا الضحك
ويمكن لي أن أسمع حديثا يدور عن أشياء أخرى
– مراكب التجارة تمر بالقرب من الفنار الوحيد في البحر .
ومن واجهات القصور ترن الساعات :

لا شيء ، لا شيء ، لا شيء .
البعض يقعون في الحب بالمصادفـة ،
البعض يفسرون الأحـــداث ،
والبعض يحتفظ بالكتب ، يحكون عن النساك المهزولين .
القطارات تحمل ضبابا وأشباحا من محطات مهجورة .
الزنابق تنفض بقايا داكنة الزرقـــة
لحلم غارب عن جبهات حجريـــة .
لاشـــيء .
وهذا الأريج الواهي لذكرى الطفولـة
ذوى ســـدى – بلا صـــدى .
لا أحـــد يـــرى .
غشاوات من رماد تغطي الأرض .
يارب ، فلتغلق عيني ،
فلتعقـــد ذراعي
ولتطرحني في رحى الريـــاح .
متعب حتى النخاع وأنا أهوى في الهاويـــة ،
وسرعة السقوط تصفر في أذني أغنيـة الارتيـاح .
أغلقوا النوافـــذ .

فوقاحة الضوء تعشى عيونى ٠
كفى حديثـا ورديـا لا يفيـــد ٠
صمت الأم يأتى بيدك الى صفحتى وجهى ٠
وعلى رأسى العارية تلقى غابات الخريف بظلالها ٠
أختى ، أنا نعسان ٠ فأين يمكن أن أستريـح ؟
أين يمكن أن أنام ، وأنا بلا سرير ؟
الفجر المريض يعثر على مصباح سهرى
مشـــتعلا مرة أخـرى ٠
وساعة المساء فاجأتنى مبتعدا عنك ، يا أختى ٠
جمال جليل نقر على كتفى بيد حانيـة ٠
وعلى فجر الأفـق شعلة وردة منسية ٠
والذرى الناعمة تحمل سلال البنفســج
الى الأقدام الشفافـة للراحـــة ٠
وأنا أمسك فى مريلتى بمصباح وليـــد
وأغمر روحى فى عينيـه الواهنتين ٠
أحـــدق فى السهول
مستشفا ـ فى هدوء ـ سكون المســاء
وأحيى أرواح الأشـــياء ٠
وخلف أشـجار الكمثرى المزهرة
يرقبنى ظلك الأســـيان ٠

لم أنسك ، يـــاأختى ٠
أعى الطيبـــة من رحمتك ٠
أوزع الابتسامات على الخطوط والأشـكال
المنيرة بضوئك القـــدسى ٠

لكن ، وأنا أجمع لك باقة من زهر الربيع ، فانك يا أختى ،
بعينين مسعورتين كسيف يومض
تنيرين القبـة الزرقـاء ،
لكنك لا تدرين أن الأشياء الحية التى ترينها منعكسة هناك
تسـتعيد صورتك اليـك
خلال طبقات من الصمت والذكرى ٠

أختى ، وعدتك بأن أجيء لك بالماء الأبـدى ٠
وعدت بأن أرمى بالشمس عند قدميك ٠
الآن تصرخين : « أخى ، عطشانـة ٠
فأين الماء الأبدى الذى أطفيء به عطشى ؟
أخى ، بردانـة ،
فأين الشمس التى أدفيء بها يـدى ؟ » ٠
وأبقى بـلا حراك ، بـلا حيـلة ٠
أنا الذى طفت بالسماوات
لا أستطيع تغطية شبر واحـد من الأرض ٠
وتحت الثلوج أسمع جذور حديقتنـا العجوز
توثقنى الى الأرض ٠
نسيت كيف أمشى ٠
أنحنى على هيولى روحك ، مفعما بالرهـبـة ٠
تتصادم النجوم فى أعماق عينيـك
وتدمى قلبك معارك الأربـاب ٠
فكيف يمكن تشـكيل احتراقـك
فى سـكون منحوت بـارد ؟
لقد آمنت ذات مرة بالسـماء
لكنك كشفت لى أعماق البحر ، بمدائنها الميتـة
بغاباتها المنسية ، وأصواتها الغريقـة ٠
والآن ، غاصت السماء ــ كنورس جريح ــ فى البحر ٠

ويدى ـ التى ابتنت لك جسرا على الهاوية ـ تداعت .
انظرى الى
بأى عرى وبراءة أستلقى أمامك .
بردان ، يـــا أختى .

فمن سيأتى لنا الآن بالشمس لتدفىء أيدينا ؟
أنصت ، صامتــــا .
لا أحـد يعبر طريـق الليـــل .
والنجوم غرقت فى العينين الصدئتين
للنسر المتحول الذى يتأرجح على حافة معارك الظلام .
يداك المقيدتـان تسـدان طريقى .
وصوتك يتمشى وحيـدا فى ممرات الليـــل
وسيفه الطويل يرتطم بالقرميـــد .
فـــات الأوان .
لا الحياة تتقبلنى ولا الموت .
فالى أين أمضى ؟

مخطىء يا أختى . فلست ربـا .
لا أحــدد أى شىء .
ونارك بخرت قوتى حتى الخمود .
ومثلما تنفضين الغبار الذهبى للضوء عن رموش الكون
حدقت فى صلبان الانسان العظيمة
التى تنتصب فى أفقك المســائى
وأحـببت الحـزانى
الذين يعبرون صامتين ـ كقطعان بيضاء مختومة على الجبين .
مختومة على الجبين بخاتـم أحمر .

قرأت تاريخ العـالم فى قطرة من دمك •
آه ، يا شعبى ، آه ، يا أخوتى وأخواتى ،
يا أخوة وأخوات أختى ،

فى البحر اللانهائى لقلبكم
تغرق الأحلام بكل أشرعتها ،
مع جرأة الأفكار والتأملات اللامبالية للأربـاب •
كم من رحـلة قمتـم بها !
ولم تحضروا معكم صورة واحـدة للازدهـار
لتزينوا بها بيوتكـم ،
صـدفة بحريـة واحـدة
من تلك التى تطيح بها العواصف على الأرض
تذكارا لامعـا ومفتاحـا موثوقـا
ليوصـد أبوابكم عندما تهب الرياح فى الليـل •

تظل عيونكم أبدا محبوسة وبريئـة ـ
كقطرات مطر ملونة بالصمت والشك •
لا ملجـأ لكـم •
تموتـون بـلا بعث
بلا شفاه ورديـة لطفل تنطق باسمكم من جديـد
تحت السماء الوديعة لمايو الجديـد •
لكننى رأيت ذكراكم ترفرف كحمامـة مهيبة
على كتف أختى •
أخوتى وأخواتى •
فلتستقبلوا الآبـق فى صـدركم الواسـع •
فبـالدموع أغسـل أقدامكم الجريحـة •
بالدموع أنظف يـدى من تراب التعالى
لعلى أكون جديرا بتقبيـل شـعركم •

أختى ، تعالى لنتكىء كطفلين عليلين
على الحديقـة الروحيـة التي غرقت داخلنـا ،
لنلتفت الى الشذى المتلاشى
الذى ظـل منسيا فى ركن معتم من قلوبنـا •
••• وفى ليـالى الصيف
سوف نرى ـ مفعمين بالبهجـة ـ
البدر يشرق على شاطىء مسـقط رأسـنا •
والطريـق الفضى سوف يحملنـا
الى الحفيف اللازوردى للكون •
وستكون أمنـا بجانبنـا
ملاكا أبيض فى الليـالى البيضـاء •
نسمع صوتها البعيـد
والحفيف النـاعس لجونلتها
ونحن نغمض عيوننـا فى نوم ملىء بالنجوم •
آه ، أيتها الحماية العذبـة التى سهرت بجانبنـا
وهى تدفىء طيور أحلامنا العاريـة •
لفنـا ازدهـاز الضوء
وهربنـا ، يـا أختى ، بين السماء والبحر •
••• وبعد ذلك ، الأبواب المغلقة والنوافذ الجامدة
كل سـابق تغير •
صـوت الأم ميـت •
وحيدان ، اليد فى اليد ، في مدائن مجهولة ـ

متسولين صغيرين ، مع حلمنا الدافىء، تحت سماء متكسرة•
لم يعـد لدينـا مأوى ولا عكاز •
لكننا ما نزال نعرف كيف نكون محبوبين ، وكيف نحب •
عنـدما أتعب أسبتنيد عليـك •

وتثبتين نظرك فى نظرى
تأتين لى بشقائـق نعمان ذهبيـــة
من شـــقائك الى حلمى ٠
أختى ، تعـالى مرة أخرى
وقبلى جبينى المشـــتعل ٠
انظرى ، هـا أنـا أفتح لك كوة ضوء صغيرة وشعاع مائل
يرســم الخط الخارجى لظـل وجهك ٠
فلتدفعى عنـك الليـــل ، ولتـأتى الى
وسيأخذ كل منـا الآخر ـ كآنذاك ـ يدا بيـــد
ونطوف خـلال مدائـن بـــاردة
ـ متسولـين صغيرين بحلمنا القديـــم ،
ـ أميرين عظيمين للحب ٠

هــل تـذكرين ؟
ذات مرة أعطتك أمنـا ثوبـا قرنفليـــا
ومظلة قرنفليـة صغيرة ٠
وكنت تتسلقين منحدر التـــل المزهر
فى صـباح ربيـعى ، أثيريـة شـفافة ـ
غيمـة قرنفليـــة من ضـــوء ٠
وكنت تحـدقين فى الســـماء
كأن شـيئا ما من أعلى كان ينـــادى عليـك ٠
الضفائر الحزينـــة لشعرك الفاحـــم
تنســـدل وحيـدة ثقيـلة على ظهرك النحيـــل ٠
كنت خائفـا من أنك ـ فى وقت ما ـ ستتلاشـين
مع الضـوء الوردى فى الغروب ٠
آنئـذ ، كنت أجمع أصدافـا لامعـــة
وحصى ملونـــا على شاطىء جزيرتنـا

كى أرى عينيــك تبتســمان
وأفتن قلبك الذى كان يذوب ــ صمتا ــ فى حزن العالم .
لكنك لم تعرفى كيف تضحكين .
وكنت أصنع أجنحــة من دموعــك
لأمضى بعيدا كى أجىء لك بلقــاح سماوى
لأحــرر صمتــك .

لكنك لم تعرفى كيف تأخــذين .
كنت تعطين . فقط تعطين .
كل مواهبــك .. كنت توزعينها
لتبــقى يــداك خاويتــين .
أحنيت رأسك ــ طائرا أسيانــا ، فى جناحــك المعتم
وغنيت الغنوة المدهشــة لكل العــالم الجريــح .

أختى ، فلترفعى رأســك .
أنحنى بجوارك وأجىء لك بفجر طفولتنــا
لعلك تستنشقين ملوحــة جزيرتنــا ، ورفيف المســاء
وترســين بجانبى ،
عابرة سديــم الاشتياق الى البيت .

عودى ، يــا أختى ، الى بتليهيم الصغير
الذى حملنا جميــلا ومتواضعــا
ولسوف ترين أننى سأريق أحلام القديس
التى أخــذتنى بعيــدا عنــك
وسأظــل بجوارك الى الأبد ــ زيزا بسيطا
لأغنى لك فى أمســيات الربيــع .
ألا تســمعيننى ؟

رفضنى الجميع ، ورفضت كل شىء .
ولا عزاء لى حتى فى الفــكر .
فــكل مــا أجببت

أخــذه الموت مني والجنــون .
وبقيت وحدى ، تحت أنقاض سمائى ، أحصى الموتى
جرفت الريح من طريقى آثار خطى الرب الطاهرة .
لا يمكننى العثور على الموت من جـديد
فأحبائى الموتى أعادونى الى الحياة لأبكيهم .
والآن ، ما تزال الطاحونة المكسورة تدير أجنحتها
فوق السهول المحصودة ، في سكون سماوات المساء .
آه ، هذه الأجنحة التى تمس رموشى بالحركة الواهنة لـ
الصفحـات .
وأتبع أمرها الغريب ، بلا ارادة ولا نسيان .
فلتنم ـ فى النهاية ـ تلك الأجنحـة
التي تشكل الملامح المتعبـة لطيور جريحـة
فى غيوم الخريف الأبـــدى الكابيــة .

يا لها من برودة تستقبلنى بها
الأصـوات والألوان هذا المســاء .
يجرجر الغروب تحيتـه الذهبيـة على أكتاف الأشياء
فما الذى يريــده هذا الضــوء الوردى ؟
لم هذا التبرج فى الاحتفال اللامبـــالى ؟
لم هذا الاسـتفزاز لى ؟
الأشـجار والصمت اتخذوا سـمتا مغرورا
لخطباء يتحدثون أمام تماثيــل عميــاء .
آه ، كم أكره الغيوم النــاعمة
التى تتعلق ساكنة مخادعة فى الضوء الراضى .
ألا يعرفنى أصدقــائى القدامى ؟
لا ، لاحاجـــة بى لشىء .
لا تليــق الشــفقة على بى .
أقضــم شــفتي وأشرب دمي .

اننى أحتقر جمـالهم الميت .
ـ أيتها السماء ، ما الذى تتباهين به ؟
أنا الذى انسحقت تحت أقدامك
سأتخطى جمالك البارد بأغنيتى الدافئـــة .
أختى ، لقد تركتنى لتستندى على قلبـك
وتنصتى الى نبض النـــاس .
وحياتى تواصلت تحت سماء عينيـــك .
وكنت تجيئين ـ محبـة رقيقـة ـ
فى الأمسيات التى كتبت فيها ـ وأنا أنحنى صامتا ـ
قصائدى الغاضبة عن حروب الضوء والدم التى لا تنتهى .
أحسست بحضورك خلف الليـــل .
وغطت سطحى البارد شجرة الساعـات الحانيـة
عنـدما سمعت وقـــع أقدامك .
كنت تبتســمين
فتـأتى كل السماوات الى غرفتى .
وانعكاسات لازوردية ترتعش على الجدران
وذكرى بيتنـا تستثير قلبى
عندما أعود مثقـلا بتجوالات الليـــل
والمرارة الأبديـة للوحـــدة ،

. . .

كنت أجد عشاء الحب ينفث البخار على المائدة
وذكرى الطفولة ـ فراشة واهية تلعب حول مصباحك .
وتظلين واقفـــة فى انتظار عودتى .
وعندما أغرق ـ أنـــا عاشـق اللانهايـــة ـ
فى ظـــلال شـكوك غامضـة ،
فـانك ـ باصبعـك الدافىء ـ
تريننى آثـار الأقـدام على الأرض ،
وتعيدين تشـكيل رمادى من جديـد فى شـكل انسانى .

تقاسمت معك مقعدك
فاحتفظت بمكان لى على الأرض ·
قست الزمن بنبضك ·
أصغيت الى قطرات البرودة عن قرب
وهى تسقط من نبع خفى ·
وجف النبع ·
رحلت ·
فجرجرت السماء ــ غبارا أزرق وراء خطواتك ·
انها تهطل الثلوج ·
أيتها الحياة ، الحياة ،
أخذت منى الكسرة الدنيوية الأخيرة ·
ما من دموع أخرى لدى ·
ولا خوف عندى ·
فما من شىء آخر لدى كى يسلبوه منى ·
فقيرا ، عاريا ، مهجورا ــ
انها ثرواتى التى لا يستطيع أحد أن يسلبها منى ·
لن أطرق أى باب ·
لن أنطق بأى رجاء ·
بلا خبز ، بلا جربندية ، بلا رباط
أتخذ الطريق الى الغرب بخطوات ثابتة طويلة ،
عاريا ومطلقا ، جديرا بأن ألمس الرب ·

غيمة بيضاء من قمر سهران
تذوب وئيدا فى زرقة الفجر ·
وزجاج النوافذ على جبهة البحر
ــ كسلسلة من عيون باكية ــ
يعيد فى تصوير شبحى
الأفول الشاحب للقمر ·

آه ، هذا الشحوب الذى يرمى بظلال الشك
على الليـل والنهار ، ويرفرف بلا وزن .
وفى الأسـفل ، البحر الرمـادى
يعكس الرعشـة ذات اللون السماوى
التى تتوانى على ظهور النوارس الهشـة .
والصوارى الظليلة تخط الأفـق فى سـكون
متـأهبة للحركـة .
لرحلـة جديـدة ؟
لعودة جديـدة ؟
والضبـاب يؤخر برهـان الشمس .
لا شىء يتكرر دائمـا .
الربـح والخسارة يتركان آثـارهما على القمر الأبيض
الذى يتـلاشى تدريجيا فى الفجر .
النوارس تجىء من بعيد ، تحيى القوارب الراسية ،
تحيط – كعنقود من الزنابق – بالمراسى الصدئـة .
أختى ، شاطئك يتقهقر .
ورحلة الاكتشاف تبـدأ .
ومضة ضوء منقوشة على الجفن الناعس للسماء والبحر .

. . .

أختى ، هناك خط مضىء يرتسم حول بابنا المغلق .
صحوة تغمر الهواء البالى مع صخب البحر .
احدى خنافس مايو تزعج زجاج النوافذ الموصـد .
والشمس تنسكب فى فوضى الغرفـة
ورجفتها المرفوضـة تتملكنـا .
أى يـد للرحمة تسحب ظلها
على الجـدران البـاردة ؟
هـا هو تذكار الحيـاة فوق الركوع .
هـا هى رايـة الربيـع فوق المقـابر .

الأشرعة البالية تنهض ـ تبحر فوق المراكب ٠
السرير يتحرك ٠
نسمة ٠
براح يسلب العقل ٠
أطيع الأمر
أفتح ذراعى وأتقبل ما لا يقاوم ٠
الوجوه الفاتنة فى متنزه النساء
وموكبهم الوضيء فى جسدى ٠
يتراجع الصباح ، مؤجلا
يزيح أيدى الضباب بعيدا عن جبينى ٠
لا مزيد عندى من البكاء ٠
هزمنى الغناء ٠
منحنى الغناء الانتصار ٠
الشمس ، الشمس تذيب المشهد الثلجى فى عينى ٠
والأغنية القوية صعدت سقالات السماء
لتبنى بذراعين عاريتين بيتى ٠
والضوء يتماوج فى عضلات صوتى ٠
أسمع حلقات القيود تساقط وتنكسر
أسمع الفرسان البيض يمرون بالخارج
منشدين أناشيد الحرب ٠
انفتحت النوافذ على مصاريعها فوق بحر الصباح ٠
وعتبة بابى تلتمع كعين مفتوحة ٠
أختى ، لم تعد لى طاقة على البقاء ٠
فغيابى سيجىء لك بالماء الأبدى ٠
وأنا ـ الذى عجزت عن انقاذك من الحياة ـ
سوف أنقذك من الموت ٠
هناك الطرقات مشرقة واضحة فى ضوء الشمس ٠
فلتتنحى ، يا أختى جانبا ، كى أمر بيديك المقيدتين ٠

علقت على صـدرى التعويذة التى صنعتها لى
ذات مساء ربيعى ـ أتذكرين ؟ ـ عندما كنـا صغارا ٠
فيها قطعـة طين حمراء صغيرة
لتذكرنى ببيتنا الأخير ،
وورقـة ورد جافـة من حديقة منزلنـا
وقليل من غبار الجدار الذى حفرناه ذات ليلة بأظافرنا
الى المنفى الطويـل الأخير ؛
وداعـا ، يـا أختى ٠
فقبلى لى العصافير فى باحتنا والأطفال الأبرياء
والأمهات الحزانى اللائى يطرزن بجوار المصباح
والشبان الذين يؤسسون مكانا لهم ـ فى عناد ودون تردد ـ
على حـدود الحيـاة والموت ٠

الآن ، أرد نفسى الى العـالم ٠
فالطبيعة الفاتنة ـ بمروحة شاسعة من جريد النخيل ـ
تنعش أعضـائى وتـذيب دموعى ٠
والمذاق المعـافى للصحـة الأبـدية
يغنى فى فمى ويلذع لثتى كفاكهة نيئـة ٠
أحـدق فى السـماء
وأرمى ـ بمحبة ـ فى الأرض حفنة من بذور ٠
أختى ، فيما وراءك وورائى ، فيما وراء نظرتنا الكابية ،
فيما وراء الخط الكابى للأرض ،
هنـاك عنـد جذر الأشـياء
أنصتى الى موجـة النبض العلويـة
ـ الخارجـة على السيطرة والتفسير ـ
التى خلقتنـا وتحكمنـا ٠
ماذا يمكن أن نقول ؟
أفتح البوابات ـ باندهاش مذعور ـ فى مواجهة الخالق

وأحــول الألم الى نشــوة
والصرخــــة الى صـــلاة ٠
الضفائر البهيجة للآفاق تجفف قدمى الداميتين
وأقفز ــ خفيفا ، سعيدا ــ الى ذروة الابتسام ٠
أيتها الشمس ، الشمس ،
أبى ، أيها الحامى لى ، تلقفنى الآن ٠
لا قيـــد يربط أجنحتى بالأرض ٠
والضوء يشرق متوهجا ، أعلى من حبك ، يا أختى ،
أعلى من حبى ،

الوجـــه الســـاكن للأبديـــة
يهشم المرايا المشوهة للدموع
وما نزال نســـمع بداخلنـــا
عاصفة حقيقية من دمــوع ٠

★★★

مسـيرة المحيط

مينـــاء ليـــلى
الأضـــواء غريقـــة فى الماء
وجوه بـلا ذاكرة أو ترابـط
تضيئها الأنوار العابرة لسفن بعيـدة
ثم تغرق في ظـلال الرحلـة
أشرعـة مائلة مزينـة بمصابيح الحلم
كأجنحـة مكسورة لملائكة آثمين
جنود بخوذات بين الليـل ونيران الفحم
أيـد جريحة كالاعتذار الذى جاء بعد الأوان .

سجناء مربوطون الى المرسى
سلسلة حول عنـق الأفـق
وسلاسل أخرى فى أقـدام الأطفـال
وفى أيدى الفجر التى تحمل باقـة زهور

والصوارى مثـابرة على عـد النجوم
بمساعـدة ذاكرة مطمئنـــة .
ـ باقة من نوارس فى الفجر السـاكن

اللون يرحـل عن وجـه النهار
والضوء لا يستطيع العثور على تمثـال
ليدخـل ، فينـال المجـد والسـكينة .

فهل سـنظل - اذن -
نحمى جرح الشمس المفتوح
الذى يفيض ببذور الزهور
على نفس المسـيرة
على نفس الهدف
فى شرايين الربيـع المخصبة
عنـدما يسـتأنف اليسـنونو دورانـه
بحثـا عن عـدم عاشـق
على القبـة الزرقـاء المنيعـة ؟

أى جـرح
لم يضمن لنـا - حتى الآن -
أن نصـل بجنـة الرب الى الكمال ؟

كانت لدينـا حديقة على حافـة البحر .
وكانت السماء تنزلق اليها من خلال النوافـذ
فيما الأم جالسـة على المقعـد الخفيض
تطرز حقول الربيع مع أبواب مفتوحة فى منازل بيضاء
مع أحلام بجذوع الأشجار على السطح القش
مرسومة على زرقة فاتحة ناصعـة .

لم تـأت بعـد .
سـأتطلع الى الغرب وأراك

ـ فى شعرك بريق وردى
ـ فى عمق البحر طيف ابتسامة ٠

أمى تمسك بيدى ٠
لكننى وراء كتفها الحانى
وراء شعرها الشاحب
الذى يلتمع بأريج الصبر والنبل
أتطلع ـ فى وقار ـ الى البحر ٠

هناك فى منحنى الجبال الأزرق
ينادينى أحد النوارس فى أعماق المنساء

تهشمت المرآة التى رسمت حدود الفجر والحديقة ٠
وبالنايات الحزينة للزهور
دفنا السنونو الأول ، أول أمس ٠
ثم جلس الأطفال وحيدين عند نافذة المساء
ليشهدوا الشمس المحتضرة ٠

وراء جدار الباحة الأبيض كان الطريق يصحو
وحالما تلاشى الضوء الذهبى فى البعيد
صعد الظل الهائل للجبال
مع خطوة الموت الصامتة الى أيدينا البيضاء
الى قلوبنا
الى جبهاتنا المحنية ٠

أمى ، من الذى يدق
الجرس اللازوردي على الأفق ؟

غيمة فضية بجوار القمر ٠
صيادون عجائز
لم يعد لديهم قوارب ، لم يعد لديهم شباك
يجلسون على الصخرة ويدخنون غلايينهم
يتأملون أحزان الترحال والظل ٠
لكننا لا نعرف شيئا
عن الرماد فى مذاق الرحلة ٠
نعرف الرحلة ونصف دائرة الأفق
الأزرق الفاتح مثل الحاجب المخيف لاله البحر ٠

نقفز فى القوارب
نرخى الحبال
ونغنى البحر
محدقين فى الغيمة الفضية
بجوار قمر ربيعى ٠
أية مدينة مرصعة بالجواهر
تنام وراء الجبال ؟
أية أضواء ترتجف فى أغوار الليل
تنادى علينا ؟

هناك قبور صغيرة بيضاء
لنوارس بريئة
بعيدا فى جزر مهجورة مجهولة
لم تعرف سوى الضوء القادم من المحيط الليلى ٠
هناك وضعنا أزهارنا الأولى ٠
شهقتنا الأولى والفكرة الأولى ٠

سمعنا أغنية البحر
فلم نعد بقادرين على النوم ٠

أمــــى
لا تمســـكى بيــــدى •

البحـــر البحـــر
فى عقولنا وأرواحنـــا وشرايينـــا البحـــر •

رأينـــا ســفنا تحمل بلدانـــا أسطوريـــة
هنـــا على الرمال الذهبيــــة
حيث يتمشى عابرو المســاء •
ألبســـنا محبـــات طفولتنـــا طحالب مبلولـــة •
قدمنـــا الى آلهة الشـــاطىء حصى وأصـــدافا لامعـــة •

ألوان الصـــباح تـــذوب فى الماء
ونيران الغروب على أكتـــاف النوارس
الصوارى التى تشير الى اللانهايـــة
تفتـــح أبوابـا عنـــد حلول الليـــل
مرفرفـــة فوق نومنـــا الحجرى
متـــألقة ، أبديـــة •
وأغنيــــة البحر
تأتى عبر النوافـــذ الصغيره
فترسم حدائـــق وأحلاما مضيئـــــة
على الجوانب الرطبـــة والجبـــاه النائمـــة •

ايقـــاع مؤرق أليـــم •
على الصخور القاحلة فى الخارج نبصر الجمال
نحن الأطفـــال المشردين الحفـــاة
وفيما نمشى بأقدام عاريـــة فى البحر
نسمع صوتـــه الذى يرتجف بأصـــداء هادئـــة

مع الوميض الفوسفورى للنجوم
التى تزرع حكايات ذهبية فى الأعماق الخضراء •

قلب مهيب
قلب طفل بلا شبهة
لا تتبرأ منه أبدا •

مددنا أيدينا لنقطف زهورا من النجوم
لنقطف نجوما من دقات قلوبنا
التى ردت على نداء البحر لنا
بأن نعتصم بحبل الجمال
ونحن نسافر الى اللانهاية
على طريق قمر الصيف الهائل
المرسوم على البحر المباح •

عرايا ، تصارعنا على الرمال فى الظهيرة
بأجساد مبلولة لأطفال الثانية عشرة من العمر
من أجل العناق لا الصراع
من أجل الصراع لا الانتصار
الانتصار وحده •

شعر ملحى
أفخاذ أحرقتها الشمس
الموجة الملهوفة فى القبلة
البحر فيما وراء الفوران •

الظهيرة تنحدر صاخبة فى زوبعات من نار
تطوى بيوت الصيادين بلهيب أبيض
فتحرق القلوب التى لا تقاوم •

خارج النوافذ نسيم البحر الرهيف
الوجه المضيء للسكون
في ذاكرة الصيف البيضاء
مع بصيص طيفي ، داكن الزرقة
منحرف على وجنته الملساء ·

نفس ذهبي لماء لانهائي
شباك تتشمس على الصخور
قوارب مملوءة بفاكهة وزهور
وهناك بيوتنا
بيوتنا مكتوبة على البحر ·

ايماء من الشاطيء
من الصخور الحمراء
من زهور الزنبق الصغيرة
والبنات ·

من ينادي علينا
من شرفة بيتنا ؟
بنينا بيتنا في البحر ·
هناك لآليء في الأصداف
وغابات مرجان هائلة في الأعماق المعزولة ·

صنعنا ناينا من العظام التي أخرجها مساء أمس
في باحتنا غناء العاصفة ·

أنصتي إلى أغنيتنا ، يا أمي ،
أغنية الرحلة الجديدة ·

أنت يــا من تنوحين على الموت
لا تعرفيننــــا •

البحر لا ينــــوح •
بــــل يغنى •

متحررة من طقوس الأحــــد
باحــة مطلية بالأبيض
فيمواجهة البحر برج الكنيسة الصامت
الذى دق « يوم كل الأرواح » للبحارة
والآن يقهقه فى ضــوء الشمس •

فى أفواهنــا غليون أبينـــــا
تحت قبعــــة المدرســـــة •
وعلى صدورنــا مطرز الصليب الجنوبى
والعــــذراء العجــوز •

بدلة بحار قاتمة مزررة حتى العنــق
وعندمــا ترانــــا الفتيــات
نتخذ المشية المائلة لقباطنة جابوا العــالم •
ويرتعش فى نظرات الفتيـــــات
صوت غابة صباحيــة شاســعة
موســيقى حقيقيــة واضحـــــة •

لكن فيما المنازل الســاكنة تحيينا فى حنــان
بنبـــات المسك المتدلى على الجدار الأبيض
فسوف يدخلنــا من جديد ، ليقهرنــا من جديد
الضوء البــاهر من المحيط العظيم •

هـا أنت هناك أيها القبطان
تأكل خبزك الجاف على عجـل
والزيتون الأسود المنقوع فى الملح والشمس
على قمة صخرة منحدرة .

انه وقت الابحـار
ونحن نلتقط أنفاسـنا
يرتفـع شراع الزفير الأزرق الفاتـح
وطياتـه المضيئة تتماوج
وهى تتلاشى خلف الصـدور الساكنة للجبال النائية .

قلوبنـا التى عرفت البحر
لا تعرف الحـدود .

علم الصحة الراسخ مغروس فى الصخر
يحيى السماء ، يرفرف فوق الرجـال
وظلال باردة كبرى من بحر الصبـاح
مع جزر وأشرعـة بيضـاء
فى الازدهار الكامل لمنتصف مايـو .

القمر الفضى يعكس
جموعـا زاحفة فى عزلتها خلف الصخور
على وسائـد الطفولة أصـداف صقيلة
وفى المحيط الأزرق للنوم
أصوات السيرينات مع قياثرهن من عظام الأسماك .

آه ياربـة الجزيرة النائيـة
الرواسب الكلسية تتـدلى فى كهفك البحرى

كأنها ترتل نوم السكون الشاحب
كأن صدرك الناصع يتنافس مع دائرة البحر الزرقاء
المضاءة بالنجوم
وهناك باقة ذهبية من نخل
حول النبع حيث يمرق الضوء في وهن
وهو يعطر ظل الأشجار الضخمة ـ
فأنت تعرف أن الماكر سوف يرحل .

« لا يرتيس » مع كلبه
سوف ينتظر فوق الصخرة سدى .

حين خرج عاريا من البحر
ذهبيا من ماء الفجر
فارتسمت عظام عانته في اطار الشمس
هربت « ناوسيكا » مع العذارى الفاتنات المرعوبات
خلف الأشجار
وأقدامهن الحافية ترفرف في الهواء كسرب حمام
وضوء أبيض ينعكس على العشب الأخضر .

... في الخارج على الشرفة بجوار البحر
مائدتنا المسائية المتقشفة .
غمس الربيع الخبز القمحي في النبيذ .
ورسم القمر في السر
على أباريق خزفية يونانية
مشاهد من طروادة .
كنت تعرفين أننا سنمضي ، يا أمي
وملحت عشاءنا بدمعة
وأنت محنية وحزينة تحت النجوم

والفتيات ـ اللائي كن خطيبات أوديسيوس ـ
تنهدن على عتبات نافذة الجزيرة

سفحنا الدم والغلال مع الأشرعة العالية والغيوم
فوق المياه الناصعة .
مع زوارق خشبية صغيرة في خلجان زرقاء
تفوح ـ في رقة ـ بالوداعات
مع القبلات بجوار القوارب عند حاجز الأمواج القديم
وراء طاحونة الهواء الصيفية المهدومة
متأهبين للرحلة الكبرى الى المجهول ·

وعندما عدنا في المساء
بأيد دامية وركبنا مكسورة
حاملين غنائم التعب :
أيقونات مائية تتنكر للشكل
أجراس مساء وردية اللون
ندم الفوران
خواء الصراع ـ
هناك تحت ظل المقبرة عند البحر
أدركت عيون طفولتنا الصمت
سمعنا مجيء الليل
سمعنا ناي الجمال
الذي يمنح العزاء للجبين الحزين ،
ويبرر المصير ·

من الذي يهشم روح الرب وفرحتنا
من الذي يقسم الصمت الى آلاف الأسماء والنجوم
التي تضيء في حركتها أيدينا

وترسم دوائر من العزلة على نفس البحر ،
التى تستبقى نار الخلق
دون أن تبقى ؟

طيور البحر ترفرف عند كهوف الصخر الصامتة
رسوم لملائكة مطرزة بنجوم عند الحافة المتآكلة للماء
بالقرب من الحصى المقاوم
فى الظل الأخضر لحاجز الأمواج
تحت العيون المدهوشة لأولاد حالمين .

جرح يوم الفراق
الذى يخط فى الدم آفاقا وذكرى
يرسم نقيصة الرب
الايماءة الحلم الخلق .

معرفة صامتة
فى عيون الأطفال الواسعة
على الشفاه الحازمة للمراهقين
الذين لم يحصوا حطام السفن
معرفة تمجد النجوم المنفرطة من جرح الرب المفتوح
لتداوى جرح الانسان .

أغمضنا عيوننا
فى سريرنا الموروث الأبيض .

المصباح انطفأ .
وفى اطار النافذة يومض البحر فى السر .

خلف الأسيجة والأشجار
سمعنا صوته العالي ينادي علينا
فيملأ نومنا بمشاهد لازوردية
مزهرة بأشرعة في بياض الثلج
بحدائق من نوارس مستغرقة في التفكير بلا صوت
جاثمة على الحافة الصخرية للمجهول
فوق الهوة المظلمة الآسرة .

من هناك أسمتنا صيحة الريح
غدا سنسبح من جديد
غدا سنرتحل من جديد
غدا سيطالبنا الفجر بالصبر .
وسوف نرد على البحر

كتبنا السطر الأول على الرمال
والصواري الصابرة ترقبنا في عبوس
والموج يهمس حنيننا لا ينتهي .

أقمنا على الصخر كأننا منحوتون في سرب طائر
وحدقنا في أقمار تخط دوائر
تسألنا سر سفن تحمل أشباحا بيضاء
سر الرحلة التي لا تنتهي
والمرسى الذي لا يحتمل الماء
لمسنا جرحنا ووقتنا
وهربنا .

الرحلة دائما لنا
والهدير الدائم للبحر .

وصلت السفن عند الفجر
محملة بالقمح والفحم والنبيذ
من أجل القباطنة الحالمين
من أجل وقود النيران ٠

طوحت بالخبز والنبيذ والفحم
وبقيت عاريا فى البحر
بلا رداء يغطى ضلوعك
أو حب يخبىء عينيك ٠

كانت الساعة ملونة كلؤلؤة سريعة
للتأمل العميق للفجر
وصوتها البعيد مترع بالخطر والاغراء ٠

نظرت الى جسدك في الماء
فأحببت الماء ونسيت جسدك ٠

أيتها الرحلة بلا متاع
نار بلا فحم
جوع بلا خبز
عطش ونشوة بلا نبيذ ٠

فات الآن أوان الرجوع ٠

لو كانت الموجة أكثر دفئا من الخبز
والسفينة أكثر دفئا من الميناء
أنت ــ نفسك ــ تعرف
أن الطيران يغنى فى شعرك

وأنت تواجه الأفق بنفير البحر
صاخبا بارتحال أبدى .

رحلت السفن وتركتنا
بلا خبز أو نبيذ أو فحم
فى منتصف البحر .

بكينا طوال الليل
انحنينا على نعش أبيض لنورس .
مصباح أمى يشرق من بيتنا
غصن نحيل من ضوء
فى الكف الرهيفة للعذراء .

نوم ثقيل عند الفجر
فى حكاية الأصداف
والشموع ذابت
فى الكنيسة المجاورة للبحر .

وكانت السفينة تنتظر
بمقدمة منحوتة فى ضوء الفجر
كسيف للريح .

النوم فى هذا المساء بقلب ممرور
يشبه خبز صيادين فى العاصفة .

غدا سنقتلع الصلبان من المقبرة المجاورة للبحر
ونصنع قوارب الأطفال

ونحت فى شواهد القبور
تماثيل صغيرة للجمال والبحر
لنملأ البيت المهجور
لنغوى الحياة وأنفسنا
رغم رب النكران
دون رب الرحمة ٠

ضاعت الصوارى
غاص الدخان
وراء المنحنى الصامت للماء
مثل وكبة أم تنام
والرحلة الساهرة فى صدورنا
ساهرة كالريح والبحر فى المساء الشتائى ٠

تلال ناعمة تسافر فى الضباب
والشمس المريضة ناعسة
على صخور المساء البليلة ٠

الكراكى فى الأعالى
مثلث للندم ٠

قداس صغير للعزلة فى مطر المساء
حامل أيقونات « سان ـ نيقولا » على الشاطىء
حيث يتوقف الخريف
ليلقى بعملة من الأسى المرير وورقة شجر صفراء
فيما هدير العاصفة يتلاشى على الرمال المظلمة
تحت ضوء النجوم الباكى فى سبتمبر صامت ٠

فلتلملم مرمراً أزرق من أيام اللعب والبكاء الطفولية
فقد تنحت تمثال المحيط
ملطخاً يديك بالدم فى أصيل غائم
حينما يرسم الانعكاس الشاحب للبحر
دائرة من نسيم مضيء
عالياً فى الهواء الخاوى .

فى البيت الأخضر الصغير على الشاطيء
فاجأنا الشتاء وحيداً .

الشرفات هجرت
وعلى الشاطيء الشاحب
يخطو الضباب بلا صوت .

أوراق صفراء فانية
موت صامت للبرقات
طحالب تسد الأبواب والطرقات
ذاكرة مشجرة بأشجار السرو .

عند منحنى الطريق ظل الصمت .

من النافذة رأينا آخر زوار الصيف يرحلون
والزورق الصغير سلاله فارغة .

السفن تنام فى الميناء
وأعلام الريح الرمادية
ترفرف على الصوارى العارية .

عما قليـــل ســيأتى المطر المحزن
ليزيـل الأسماء الغنائيــة
ورسوم الطفولـــة
ووميض البحر
من قوارب الصيف ·

فى ومضــة ضــوء
ستقرأ المصير فى كفوفنــا المفتوحــة
ولن نملك كلمة واحــدة نطعم بها العزلة
أو كسرتين من خبز لنطعم العصافير القليـــلة
التى تموت على الطريــق المعزول ·

الأشجار على جانب الرصيف محنية ومهجورة
ــ قشرة خشبية للصيف
فى الغسق المنهوب ·

أين ذهب أوركسترا الفتيات الصغيرات فى الحديقة البحرية
هناك حيث سكر البحارة فى المساء وسط الأشــجار
وتقافزوا ــ راقصين فى الهواء
لأن عملة القمر الذهبية انعكست
فى شعر الفتــاة خلف نباتات الريحان ·

فى الليــالى
يتمشى الانعكاس الأخضر الهائــل للبحر
وحيدا ، مهجورا ، على الصخور المنحدرة ·

صــامتين نمر خلال غرف مظلمة
أمام مرايــا معتمة لم تعد تعرفنــا

ونسمع خطى الصمت
والريـــح والبحر
على حواسنـــا الناعســـة ٠

شيء ما من أمان الفراغ ـ
بـــاب موصـــد فى المســاء
أو موكب من أشـــجار السرو
مرسوم فى الضباب الفضى لضوء النجوم الخريفى ٠

وعندما يهطل البـــدر المعزول بالصبر والسلوى
نفتـــح النافـــذة ونبتهـــل ٠

نحمدك يـــا رب
على أن تركتنا وحيدين هكذا محزونين هكذا
كى نستطيع التحديق بلا رهبة فى السماء
ونكون أنقياء وبلا حدود مثـــل اللانهايـــة
منسيين ومجهولين مثـــل المجهول ٠

ليـــل ٠ أقف فى البـــاب المظلم
الجبـــل المخفى يمتد بعيدا
يتلو اسم الرب فى العاصفة الثلجية للنجوم
فى الظل الشفيف حيث ينام الرجال ويموتون
فى العزلة التى تعيد صوتى ألف صوت ٠

أين ذهبوا جميعـــا
ليتركونى أحـــدق فى كفى الخاويتين
لأصـــادق الصمت والمطر ؟

حزين حتى الموت ٠
أرى السماء الخاوية
وأحتفى بغيمة كبيرة
وأنا مثل حمل حزين ، مهجور ووحيد
في منتصف واد مظلم

آه ، يارب ، لماذا رحلوا عني جميعا ؟

تحت ثيابي الممزقة
أمتلك قلب الطيور والأزهار الحانى ٠
(كم من ليلة بكيت فيها سرا
على جرح فراشة) ٠

فليذهب كله ٠ فليذهب كل شيء ٠
فسوف أبقى مرة أخرى فى مواجهة السماء الفسيحة
فى مواجهة البحر الشاسع
لأغنى بلا مرارة أو شكوى
فليذهب كل شيء ٠
فحينما أبقى وحيدا أقترب أكثر من الناس
فأقترب أكثر من الرب ٠

أسمع صوتى
مهجورا فى الريح
وأدفىء أيامى ٠
جوقة طفولة تتبع المساء
وهى تعرى الصمت

وهي تحيي الربيـــع ٠
لكنني ، يا أمي ، ما أزال بردانـــا ٠

حـــل المســـاء ٠
جداجد الخريف الأخير تتمازح في الظلام عند الأسيجة
بأصوات صغيرة واثقـــة ٠
فلتفتش قلبـــك
عن الشمس التي رحلت ٠

واذ يمتـــد الشفق الى أرواحنـــا
سيقطر أريج وردة قطرة ندى على الرموش ، ..
والضوء الأخير للمســاء
على يدين عاريتين معقودتين
على وجـــه تحول الى رخـــام
بفعـــل القوس الفضي للبحر ٠

أخذوا منـــا أغنيـــة البحر
قيـــدوا أقـــدام بحرنـــا ٠

أطفـــال مدهوشون وصـــامتون بأهداب ملحية
بعيون زرقـــاء واسعـــة
نمر ــ خائفين ــ عبر مدن كبيرة
تحت مستشفيات تفوح بالنوم والعرق
تحت بيوت بمصابيـــح حمراء
تحت أبنيـــة كبيرة
نبتعث ليـــل الدم والغنيمـــة ٠

أمي يــا أمي
تنكرنـا لحكمة دموعك الحانيــة
فأين يدك الغفورة باحتمالها الصبور
أين يــــدك
فلعلنـــا نســمع الفجر والبحر
وتدفيء عزلتنــا ؟

أمي
السماء ماتت في دموع البريء •

نحن الذين سرنـا في الليـــالى
في غابـــات ناصعـــة كاللآلى
نحن الذين نحتنـــا في الصخر
الشـــكل الصـــافي للحلـم
لا نعرف كيف نسير على طرقـــات
تتلطخ كل يوم بـدم المسيح العـــادل

خلف الجدران يتمددون في انتظارنـا
ومن الأركان ، تنطلق ــ مرتاعـــة ــ
أسراب من حمام خشبي •

أبواب تتثاءب في الليـــل •
ومضــــة ســيف •
قمر مقطوع الرأس •

بعظام آدميـــة يصنعون ســلالم
ليصعـــدوا •

سيدى المسيح ، سيدى
ونحن هنا ، فى منتصف الطرقات الكبيرة
مرتبكون ومحزونون
بحقائب خاوية فى أيدينا
بقفص عندليب على ظهرنا
بذكرى البحر الشاسع على جبيننا
بأيد بريئة مندهشة ، لا تستجدى .

لم يبق لنا شىء ، يا أمى :
أين سنأوى ؟
أين سننام ؟

هناك حيث الأيدى والبيوت خاويه
يحتل البحر مكانه الرئيسى فى غرف الليل السودا .
ثياب من ظلام
أقنعة من جبس
ابتسامة حب معسولة
صور لأطفال يكبرون
لم تعد تعلق على الجدران .

هناك ، منفردا يتماوج
شامخا باردا ـ بلا كلل ـ وحرا
المحيط الوامض .

طفل بنى البشرة بعينين زرقاوين
وشعر كثيف مشطه البحر
طفل لم تتشكك خطوته المبتهجة بالأرض أبدا
طفل أبى رفض طقوس الأحد

لقد صنعت مراكب وطائرات ورق من كتب التدريبات
هل تذكر القبطان العجوز
الذى نسى الميناء وهو يحدق فى النجوم
مغنيا للبحر كى يستعيد شبابه ؟

هكذا ، فى الساعة المقررة
رحلت عنا بسمة الليل الأخيرة
وما كان لدينا سفينة أخرى نبحر بها
وأرصفة الميناء بلا أضواء أو مسافرين
قابلنا ظلنا آه ياطفل البحر
قابلناك وقمر ربيعى فى يديك
تتمشى وحيدا على الشاطىء وسط الصخور
حيث الفقمات والسراطين تحلم فى سكينة ٠

شبعت العيون من صور الماء
لكنها تهفو ــ ما تزال ــ الى الماء
النجوم تتنزه فى ذكريات النوارس النائمة
انقضاض مفاجىء للدلافين المذعورة من كائنات البحر
وعلى مرايا الماء المكسورة
طيران المجرة الدائرى ٠

صمت مرعوب يرحل من جديد
الى الشاطىء النائم البعيد
ــ الابنة الجميلة للقباطنة الغرقى
تعيش فى أنقاض حاجز الأمواج
وكل ليلة حين يكتمل القمر
يطاردها البحارة السكارى ٠

رب السماء والأرض والبحر
الى متى سنظل نرقب وننتظر
الى متى سنــظل عطاشى
الى متى سـنظل لا نموت ؟

أن نصـل الى حيث توقف الضـوء
مهشما الى جراح وورود
ذلك ما سيوقف دوران السنونو المتعب
لابد أنك قد كدحت حتى السلمة الأخيرة من الغسق
وتقطعت أنفاسك حتى الموت ٠
فى أمسـيات مكسورة
حين بكت المصابيـح فى البيوت
حين صلى الأطفال عند سرير العذراء المريضة
فى الثلوج حيث كان قمر كبير وحيد يموت
فى الريـح التى صلبت ريش الطيور العاشق
للمنـا الدفء والضـوء
لنجعل من الزهـر ترنيمـة للربيـع ٠

لكن الانتصار لم يجىء ، لم ينتـه ٠

ونحن منعزلـون
الى حـد أن الموت لم يقـع فى غرامنـا
وظلنـا يتمشى على الشـاطىء الأبيض
مثـل طائر مسـالم للمحيط
مترع بالبهاء والسـكينة
منهك من الليـل والعشـق ٠

لكن الساعـة التى تسبق الفجر لم تجىء ٠
فمن الآن سـيأتى لنـا

برجوع السفن المنفية
المحملة بالصباحات والحمام
بابتسامات الطفولة ودموعها ؟
من سيعيد لنا الصحبة العظيمة للنجوم
التى انهارت في عيوننا المشرقة ؟

رب ، يا رب
أعد لى من جديد عباءة المصلى الألهية
هات لى القلب الذى يجهل المطر
والازدهار مع السنونو
امنحنى ارتحالات وعودات
لعلى أستطيع البكاء من أجل جرح فراشة
لعلى أستطيع الخطيئة
والندم
عندما يدوى جرس جزيرتنا فوق البحر
ببراءة يوم الأحد الطاهرة
ببراءتنا الضائعة
وصحتنا المفقودة .

فى العيون الرهيفة للطيور
سوف يبقى طيف السهول بخشخاشها القرمزى
والفيض الذهبى للشعير .

وفى نوافذ صغيرة على الشاطىء
سيزهر الحب والجيرانيوم من جديد
وسيأتى مسيح طفل ليأخذ بيدنا

ونلعب حتى المساء تحت الزنابـق
مع اللقالـق ونسيم البحر والشمس ·

وعندما يحـل الليـل سنقفز الى زوارق بيضـاء
وبشباك صيادين توارتيين محزونين
سوف نصيد القمر المائى
ونستلقى معـه فى هـدوء
فنبهج نومنـا بملائكة صـامتين
لم يتعلموا بعد الضحك والبكاء
بل الابتسام ـ وحـده ـ فى حلم خلق لم يولد ·

جزر ذات أشـجار صـامتة فى مسـاء الصلوات
حمامات السـلام هنـاك سـاكتة
ونحن صامتون أثنـاء جمع ورود النهار
فيما يسقط ظـل المساء على الصفحة البيضاء
حيث نقتفى أثـر الحياة بجوار الشـاطىء ·

لن نقرأ ما كتبنـاه
سنرفـع عيوننـا فى انتظار المجرة السـاقطة
خلف شـجرة لوز من غيـم أبيض
يتمشى فـوق البحر ·

يأتى ـ من جديـد ـ الموسـم
الذى لا يعرف الزمن ولا النـدم ·
صوت صـاف لماء سـاكن
ضوء خطى الصيادين على الرمال
الأطفـال نائمون فى القوارب
والملائكة يسـتحمون فى أحلامهم ·

رائحة عشب ونكهة نجوم
سلاسل الجبال تذوب بعيدا فى السماء المتلألئة ٠

أيدينا المتعبة تنضح ندى عذبا
وشعرنا معطر بظل حزن الأمس ٠

العالم بلا حدود ، يا أمى

القيثار العظيم للشفق
رحل فى الغابة الكثيفة الظلال
غيمة وردية تشتعل فى حريق الغروب ٠

يقبض الرب هذا اللون
لعلنا نعرف عقلنا
ذلك الذى انهزم لكنه لا يعرف الخضوع ٠

سنحتاج الى ذلك التعاطف البعيد
الذى يقاسى من أجل ما فسد
محافظا على الحلم بالاستقامة ٠

يمر المساء على الشاطىء المهجور
وجرة الرماد على كتفه العارى ٠

على وجهها المتأمل أشرقت بسمة
تغذى ضالتنا المنشودة ، تغذى سهرنا
وهى توجه الوحى المجيد لمصيرنا ٠

فى هذا المساء يستنشق الكون
أريج بذرة الرب اليقظان ٠

نروى الجذور من النبع الأبدى
الذى يتفجر من أعماق الليل
ويملأ جماجم الموتى بالورود ·

أضىء الأنوار على الأرصفة البعيدة
وطرز البحر النائم بالنجوم
ولترفع الأيدى السليبة ·

صمتها يتخذ صوتا ·
حيواتها دائما كل ما مضى ·
هنا لا طيران ولا فناء ·

أغنية المساء فوق البحار
مصحوبة بغياب الأشياء
التى تزهر فى الدائرة الأبدية
للصمت والحب ·

البحر يحدق فى وجهه
فى البحر ·

فلتأخذ المثل المقهورة
خذ المعرفة التى غضنت حواسنا الشابة ·

خذ الهدوء العقيم
الذى يبقى متعبا على الصخر
فيبنى معبده ومقبرته
بأخشاب سفننا القديمة

ولتدع لنا غبطة الليل وحدها
عندما تنتظر الأمهات على الباب المزهر
أطفالهن الغريبين الخارجين على الترويض

الذين أضاعوا وجبتهم المسائية
الذين يسبحون عرايا طوال اليوم
الذين يبحثون عن أعشاش النوارس
وينطقون طوال الليل بكلمات لا نعرفها
عن السفن والغيوم والملائكة
عن ملائكة مجانين يعيشون فى سلاسل مرجان قرمزى
عن ملائكة جميلات مخطوبات للبحر
والرب المنكر لذاته يعزف على أبواق مسعورة
مصنوعة من عظام شعراء محطومين ٠

دع لنا غبطة الليل وحدها
حينما يصيد الأطفال من أجل النجوم
فى زوارق بيضاء كالثلج
حينما يواجه المراهقون العرايا الجميلون
الجمال فى العيون بلا شكوك أو خوف ٠

أعد لنا قوارب الورق
لعلنا نرسو فى الميناء المعهود لبيتنا الأول ٠

وسوف نركع — برهة — على الرمال
وسوف نصلى أمام ظلنا الذى لا يركع
فيما عذراء البحر الحزينة
ستفتح — فى هدوء — باب الكنيسة
وتأتى لتقبل شعرنا المبلول بندى النجوم العذب
بندى الصمت والليل ٠

لكننـا سنرفض من جديـد
قبلـة الحب التى تسترضى وتأسر ·

مجهولـين فى المجهـول
فاتنين لا نعرف الخضوع
سوف نرتحل ـ أبدا ـ فى غابـات القمر الفضيـة
فى الجزر الوحيـدة للنجوم
دون أن نعرف ربـا
دون أن نعثر على رب
مثل نبض الألوهية الذى ـ فى خلقه ـ يدمر ذاتـه ·

مينـاء ليـلى
أضـواء غريقـة فى الماء
وجوه بلا ذاكرة أو ترابـط تضاء بالتعاقب
من الأضـواء العابرة لسـفن بعيـدة
ثم تغوص فى ظـلال الرحلة الأبـدية
أشرعـة مزينـة بمصابيح الحلـم
مائلة مثـل أجنحـة مكسورة لملائـكة آثمين
جنود بخوذات بين الليـل ونيران الفحـم
أيد جريحـة كالاعتذار الذى جاء بعد الأوان ·

نـار كبيرة على القمـة
تحرق قلب الظـلال ·

سـجناء مربوطون الى المراسى
فى الوهـج الأحمر
سلسلة محكمة حول عنق الأفـق
وحول أيدى الفجر التى تجمل زهرة الربيـع ·

اللون يرحل عن وجه النهار
والضوء لا يستطيع العثور على تمثال
ليدخل ، فينال المجد والسكينة ٠

أخوتى وأخواتى
كيف يمكن أن أبقى بعيدا عنكم ؟

البحر ، البحر
الكتب لا تجيب عن السؤال
والسؤال لا يداوى الجرح ٠
من جرحنا يبدأ البحر ٠

أحلام الرحلة
عند منحنى الدموع الأخير

من يطرد الشمس عن شعر الأطفال
عن قلبنا العظيم ؟

ارفعوا الأشرعة
ارفعوا المرساة ٠
هيا والموانىء القديمة تنزلق بعيدا
هيا والفجر يشرق بكل دموع أسلافنا ٠

سلسلة لا تليق بكاحل البحر
سلسلة لا تليق بقلب بحرنا ٠

وداعـــا للحب والبـــلاد ٠
طيور البحر فى الضـــوء والملوحـــة
نحلم بالارتحالات فى شراع كامـــل
آذاننـــا ليست صماء عن أصـــوات السيرينـــات
وعيوننـــا يقظانـــة ٠
ما من دخـــان ولا ايشـــاكا ٠
ما من أفـــق آخر وراء الآفـــاق ٠

أغنيـــة البحر الأبديـــة تجيب على الفراغ
وتملأ خـــواءه بقلب وشمس ٠

آه ، ليـــال عاصفـــة
ريـــاح قويـــة مندفعـــة فى عنف
زبـــد على زجـــاج النافـــذة
مصابيـــح داخنـــة فى بيوت الصيادين
مخاوف الفتيـــات الحزانى
رتـــق الجوارب للمنفى
منـــارة سهرانة مع عيون الأمهات
والبحر لا يرحـــم ولا نهائى كعقـــل الرب.
يمتلك الرقـــة ولم يروض مثـــل قلوب الشعـــراء ٠

أشباح القباطنـــة الغرقى
غلايينهم ما تزال فى أفواههم
يطفون على ومضـــات البرق
ســـفن غريقـــة راجعة الى موانىء الليـــل
والطاقـــم الضائـــع واقف خارج الأبواب الموصـــدة
ينتظرون
يبحثون ـ صـــامتين ـ عن حيواتهم

يحملون صورا استوائيــة
سهولا لازوردية وزنـابق هائـلة
ونسـاء عرايـا من أبنوس ٠
يولولن بـلا بصر

لكننا ، نحن الذين تكلمنا ساعات مع البحر
نحن الذين نحمل فى شفاهنا دائما
مذاق الرحلة العذب القوى الجديـد
نتقبـل هبات الموت الأبـدية ٠

وعندمـا تلعن الأمهات البحر
ويتمشى القباطنـة العجائز قلقين فى غرف موصـدة

نفتـح نحن الأبـواب
نركض الى الصخور العاليـة
وتطلق صيحتنـا فى الليـل
تاركين العاصـفة وراءنـا
ناسين الخبز والمدفـأة
لنبرد جبيننـا المحموم
بغضبـة البحر الواسـع ٠

أيها البحر ، البحر
مثلما نحن معك ، فلتكن معنـا
لن نستسـلم لليـل
وللنـوم ٠

لـن نتبـاهى بالصراخ :
لقـد كسبنـا النصر الى الأبـد ٠

فـرح العاصـــفة
الســـكينة
الرحيـــل
فرح الارتحـال الأبـــدى
فلتنطفىء الأضـــواء على الشـــاطىء
لعلنـــا ندخـل قلب المحيط
ترنيمة أمواج الليـــل التى لا تتقـــد
بينما الرب من عليـــاء عزلتـــه الشاسعة
يقـذف اجتراءنا بالصخور مع الأحـلام المشرقـة ٠

أيها الألم اللانهائى أيها الفرح باتســاع العالم
نـار كونيـــة
تلك التى تحرق شـعر الليـــل الأسود
تضىء الفجر عاليـــا فوق أشرعـــة بيضـاء
فوق صـوار عاليـــة
حيث يصعد الشـعراء ليمجدوا الوجـه الجديد للرب
المنعكس — وهو يبتسم — في الماء
فى اطار من نورسين منتشيين ٠

أيتها الشمس ، الشمس
التى تصـبغ البحر بالدمـاء
عاريـــا أقـــدم نفسى للهيبك
لتضىء عيـون النـــاس ٠

أمهاتى ، أخـواتى
أنصتوا الى صوتكم ، صـوتى
أنصتوا الى أغنيـــة الشمس والبحر ٠

★★★

روميوسيني

(١)

هذه الأشجار لم تخلق لسماء أقل ،
هذه الأحجار لم تخلق لخطى الغرباء ،
هذه الوجوه لم تخلق الا من أجل الشمس ،
هذه القلوب لم تخلق الا من أجل العدالة ·

مكان قاس كالصمت ،
يضم الى صدره أحجاره الحارقة ،
يعانق في الضوء أشجار الزيتون والكروم اليتيمة ،
وينشب فيها أسنانه ·
لا ماء ـ ضوء وحده ·
تلاشى الطريق في الضوء
وظل الحائط من حديد ·
الأشجار والأنهار والأصوات تحولت الى رخام في كلس الشمس ·
الجذور تطفر على الرخام ·
وحقل العدس يغطيه الغبار ·
بغال وأحجار · يلهثون · لا ماء ·
الكل ظامىء · منذ أعوام ·
الكل يمضغ كسرة سماء ليكبحوا مرارتهم ·

عيونهم محتقنة بالدم من السهر
وبين حواجبهم خط عميق محفور
كشجرة سرو بين جبلين عند الغروب ·

أياديهم ملتحمة ببنادقهم
وبنادقهم امتداد لأذرعتهم
وأذرعتهم امتداد لأرواحهم ـ
على شفاههم يرقد الغضب
والألم ـ فى أعماق عيونهم ـ يشبه نجمة فى حفرة ملح،

عندما يشدون قبضتهم ، تصبح الشمس واثقة من العالم
عندما يبتسمون ، يطير سنونو صغير من لحاهم الوحشية
عندما ينامون تتساقط اثنتا عشرة نجمة من جيوبهم الخاوية
وعندما يقتلون ، تندفع الحياة الى أعلا بالطبول والرايات ·

لسنوات طويلة جاع الجميع ، عطش الجميع ، قتل الجميع
حوصروا بالأرض والبحر ،
أهلك القيظ الحارق حقولهم ، والملوحة غمرت بيوتهم
خلعت الريح أبوابهم وأشجار الزنبق القليلة فى الميدان
يجىء الموت ويمضى خلال ثقوب معاطفهم
وألسنتهم لاذعة مثل مخروط السرو
نفقت كلابهم والتحفت بظلالها
والمطر يدق على العظام ·

متسمرين فى مواقع الحراسة ، يدخنون روث البقر والليل
ويراقبون البحر الثلجى
حيث غاص صارى القمر المكسور ·

نفـد الخبز ، نفـدت الذخيرة
والآن يحشون مدافعهم بقلوبهم :

طوال سنوات حوصروا بالأرض والبحر
جاع الجميع ، قتل الجميع ، وما مات أحد ـ
في مواقع الحراسة تتوهـج عيونهم رايـة شاسعة ،
حريقا هائلا يشتعل بالاحمرار ·

وفي كل فجر تنطلق ألف حمامة من أياديهم
نحو البوابـات الأربـع للمـدى ·

(٢)

وكل مرة يهبط الليل فيها بالزعتر المحروق على صدر الحجر
تسقط قطرة ماء ، تحفر منذ عصور فى جوهر الصمت
والجرس المدلى من شجرة الدلب العتيقة ينوح على السنين ·
تنام الشرارات فى رماد الخراب
والأسطح تتأمل الزغب الملون على الشفة العليا لشهر يوليو ـ
زغب أصفر كشعيرات كوز الذرة التى دخنها حزن الغروب ·

السيدة العذراء مرمية وسط الآس بثوبها الفضفاض المبقـع بالعنب ·
وفى الطريق طفـل يبكى والسهل يرد عليـه بشاة فقـدت صغارهـا ·

ظل على النبع · والماء فى البرميل بارد ثلجى ·
ابنة البيطار بقدمين مبلولتين ·
خبز وزيتون على المائـدة ،
ومنارة المساء تتوهـج فى تعريشة الكروم

وعاليا هناك ، تبث المجرة ـ وهى تدور على سفودها ـ
نكهة الدهن والثوم والفلفـــل الحـار ٠

آه ، كم من حرير بلمعان النجوم سنحتاج اليـــه
لنطرز بابر الصنوبر « هذا ، أيضا ، سوف ينقضى » على جدار
الصيف المحروق
ما أطول ما ستغتصر الأم قلبها على مذبحة أبنـائها السـبعة
الشجعان
قبل أن يجد منفذا الى طريق روحها الشاهق ؟

هذه العظمة التى تبزغ من الأرض
تقيس الأرض باردة باردة وأوتار العود
والعود والكمان من المساء الى شروق الصباح
يرويان حزنهما الى النعناع وأشجار الصنوبر
والحبال ترتعش على السفن كالأوتـــار
والملاح يشرب البحر المرير من كأس أوديسيوس ٠

آه ، فمن الذى سيسد المدخـل اذن ، وأى سـيف سـيقطع
الشجاعة
أى مفتاح سيوصد القلب ، ونوافذه مفتوحة على اتساعها
كأنها تشاهد حدائق الله المبذورة بالنجوم ؟

رائعة هذه الساعة ، كليالى السبت فى مايو، فى حانة البحارة
رائعة هذه الليلة ، كالمقلاة على حائط السمكرى
رائعة هذه الأغنية ، مثل الخبز فى عشاء صياد الاسفنج ٠
وهناك ، يندفع القمر الكريتى على الحصى وسط التلال
دقة دقة ، بعشرين صفا من قطع الحديد فى نعل الحذاء

وهنـاك يكونون ، هؤلاء الذين يصـعدون ويهبطون سـلالم
« نافبليون »
وهم يحشون غلايينهم بأوراق الظلام الخشنة ،
شواربهم زعتر من روميلى مبذور بالنجوم
وأسنانهم مثـل جـذور الصنوبر فى الصخر وملـح البحر
الايجى ٠
فى الأغلال ذهبوا وفى النار ، تحدثوا مع الأحجار
واستضافوا الموت الى « الراكى » فى جمجمة أجدادهم ،
فى نفس باحة الدراس ، قابلوا « ديجينيس » على العشاء
ليقطعوا حزنهم اثنين ، تماما كما يكسرون على ركبهم أرغفتهم
الحـاف ٠

تعالى ، ياسيدة الأهداب الملحية ، والأيدى الملطخة بالدخان
من رعاية الفقراء ، ومن السنوات الطويلة —
فالحب ينتظرك وسط الأسـل
وفى كهفه تعلق النوارس أيقونتك المسودة
وقنفذ البحر المرير يقبل أظافر قدميـك ٠

وسط الأعناب السوداء للكرمة يفور العصير أحمر زاهيا
يفور التوت فى العشب الشوكى المحترق
فى الأرض ، يطلب جذر الشجرة الميتة الماء ليثمر شجرة تنوب
وأم تحتفظ بسكين عميقا تحت تجاعيدهـا ٠
تعالى ، أيتها السيدة التى ترقد على البيض الذهبى للرعد ،
ففى يوم بزرقة البحر ، ستزيحين وشاحك وترفعين السـلاح
من جديـد
من أجل أن يضرب برد مايو جبينـك
من أجل أن توزعيها حبة حبة على أيتامك الاثنى عشر
من أجل أن يتوهج البحر في كل مكان كحد السيف وثلـج
أبريـل

من أجل أن يظهر السرطان على الحصى ليشمس نفسه ويعقد
مخالبــه .

(٣)

عاليا هنا، لا تستنزف الشمس زيت عيوننا ولو لبرهة واحدة
عاليا هنا ، تحمل الشمس عنا نصف ثقل الصخرة
التي كنا نرفعها دائما على ظهورنا .
قرميد السقف ينكسر بلا نفس تحت ركبة القمر
والناس يسيرون أمام ظلالهم كالدلافين أمام قارب «سكياثوس»
وظلهم يصبح ـ بعدئذ ـ نسرا يصبغ جناحيه في الغروب
لينجثم ـ بعدئذ ـ على طرفيه ويتأمل النجوم
حينما تستلقى على الحجرة الشمسية وسط الأعناب السوداء.

عاليا هنا لكل باب اسم محفور عليــه ،
اسم عمره حوالى ثلاثة آلاف عــام
كل صخرة مرسوم عليها قديس بعينين وحشــيتين وشــعر
يشبه الحبــال
كل رجل له حورية موشومة على ذراعه الأيسر ، غرزة غرزة
كل فتاة لها قبضة من ضوء ملحى تحت جونلتها
وللأطفال خمسة أو ستة صلبان صغيرة موجعة على قلوبهم
كآثــار النوارس على رمل الأصيــل .

لا ضرورة لأن تتذكروا . فنحن نعرف .
كل الآثــار تفضى الى طوابق الدراس العليــا .
والهواء ـ عاليا هناك ـ قارص .

عندما يبلى الرسم الجصى المينوى للغروب في البعيد
وتذوي النار في مخازن التبن على الشاطيء

تتسلق النسوة العجائز هذا البعيد على درجات منحوتة فى الصخر
يجلسن على الصخرة العظيمة ويغزلن البحر كخيط بعيونهن
يجلسن ويحصين النجوم كأنهن يحصين ميراثهن من الفضيات
ويهبطن آخر النهار ليطعمن أحفادهن بارود « ميسولونجى ».

نعم ، حقا ، فالمكبل له مثل هذى الأيدى الحزينة فى الأغلال
لكن حاجبه يضطرب فوق عينه المريرة كصخرة توشك دائما على الانفلات .
ترتفع الموجة من الأعماق فلا تبالى بالتوسلات
ومن الأعالى ، يهب الهواء منحدرا بالراتينج فى شريانه والمريمية فى رئته .

آه ، سيهب ذات مرة ليجرف أشجار البرتقال من الذاكرة
آه ، سيهب مرتين كى تطلق صخرة الحديد شرارة مثل كبسولة التفجير
آه ، سيهب ثلاث مرات ليدفع بغابات التنوب فى « لياكورا » الى الجنون
ويوجه ضربة بقبضته فيطيح بالطغيان
ويهز دب الليل من حلقة أنفه فيرقص لنا « التساميكو » فى المتاريس
ويعزف القمر لنا على الدف الى أن تمتلىء شرفات الجزر
بحشود الأطفال الناعسين وأمهات « سوليوت » .

يجىء كل صباح رسول من الوهد العظيم ،
على وجهه تشرق الشمس الجميلة
يتقدم تحت سلاحه — فى تصميم — الى « روميوسينى »
كما يتقدم العامل الى ذروته فى كنيسة .
آن الأوان ، يقول . فلتستعدوا .
فكل ساعة لنا .

(٤)

بكبرياء الجائع زحفوا ـ أماما ـ الى الفجر ،
ونجمة تكثفت فى عيونهم الساكنة
وعلى أكتافهم حملوا الصيف الجريح ٠

مر الجيش من هنا ، والرايات ملتصقة بالأجساد
والعناد مغروس فى أسنانهم مثل كمثرى برية نيئة
برمل القمر فى أحذيتهم العسكرية
وغبار فحم الليل ملتصق بآذانهم وأنوفهم ٠
شجرة شجرة ، صخرة صخرة ، مروا خلال العالم
مروا ـ حاملين الشوك وسائد ـ خلال النوم
وبين أيديهم الظامئة جاءوا بالحياة مثل نهر ٠

مع كل خطوة كانوا يكسبون فرسخا من سماء ـ كى يتخلوا عنه ٠
فى مواقع الحراسة كانوا يتحولون الى سكون الحجر مثل أشجار محترقة
وعندما رقصوا فى الميدان
ارتجت أسطح البيوت وقعقعت الأوانى الزجاجية فى الرفوف ٠

آه ، أية أغنية هزت ذرى الجبال ـ
وضعوا بين ركبهم طبق القمر وأكلوا
سحقوا آهة فى أعماق قلوبهم
كما يسحقون قملة بين ظفريهم السميكين ٠

فمن سيجىء لكم الآن برغيف خبز دافىء فى الليل كى تطعموا أحلامكم ؟
من سيحرس زيز الحصاد ـ فى ظل شجرة زيتون ـ
لئلا يهوى الى الصمت

وقت أن يدهن طلاء الظهيرة جدار الأفـق المحيط
فيطمس أسماءهم الرجولية العظيمـــة ؟

هذه الأرض التي كانت تفوح بالأريج في الفجر
هذه الأرض التي كانت لنـــا ولهم ـ دمهم ـ أي عبير كانت تمنحــه ! ـ
كيف أوصدت الآن دوننا أبواب كرومنا
كيف ذوى الضوء على السطوح والأشجار
من يحتمل أن يقول أن النصف يرقد ـ الآن ـ تحت التراب،
والنصف الآخر في الأغـــلال ؟

بكل هذه الأوراق تقول الشمس لكم « صباح الخير »
بكل هذه الرايات تشرق السماء ،
غير أن هؤلاء الرجال في الأغلال وأولئك تحت التراب .

فلتصمتوا ـ ففي أية لحظة سوف تدق الأجراس .
هذه الأرض لهم ولنـــا .
وتحت التراب ، يمسكون بحبل الجرس
بأياديهم المعقودة ، في انتظار الساعة ،
لا ينامون ، أبدا لا يموتون في انتظار دق جرس النشور .
هذه الأرض أرضهم وأرضنـــا ـ
ما من أحد يستطيع أن يأخذها منـــا .

(٥)

في الأصيل جلسوا تحت أشجار الزيتون
ينخلون الضوء الرمادي بأصابعهم القاسـية

فكوا أحزمة الخرطوش وحسبوا كم من العناء يمكن أن يتسع له
ممـر الليــل
كم من المرارة فى عقـد الخبازى البريـة
كم من الشجاعة فى عيون الولد الحافى الذى كان يحمل الراية
عاليــا ٠

فى السهل ، مكث السنونو الأخير طويـلا ،
كان يتأرجح فى الهواء مثل شريط أسود على كم الخريف ٠
لم يبق شىء آخر ٠ البيوت الخربة ـ وحدها ـ تحترق ٠
وأولئك الراقدون تحت الأحجار رحلوا عنا منذ زمان ،
قمصانهم ممزقة وقسمهم مكتوب على الباب المتهاوى ٠
ما بكى أحد ٠ لم يكن لدينـا وقت ٠ لكن الصمت سرعـان
ما اتسـع
والضوء الساقط على الشاطئ كان ناعما وأنيقـا
مثل التدبير المنزلى للمرأة المقتولة ٠

ما الذى سيحدث لهم الآن عندما يتسرب المطر الى الأرض
مع الأوراق العطنة لشجر الدلب
ما الذى سيحدث عندما تجف الشمس على بطانية الغيمة
مثـل بقـة مسحوقة على سرير أحد الفلاحين
حينما يقف لقلق الثلوج محنطا على المدخنة فى المساء ؟
الأمهات العجائز ينثرن الملـح على النـار ، يهلن التراب على
شـعرهن
يقتلعن كروم « مونيمفاسيا » لئلا تسكر حبة عنب واحدة فم
عـدو
يضعن عظام أجدادهن فى كيس مع الفضـيات
ويهمن خارج جدران وطنهن
بحثا عن مكان يغرسن فيه جذورهن فى الليـل ٠

سيكون من الصعب علينا الآن أن نجد كلمات أقل قوة
أقل صخرية من كلمات شجرة الكرز –
تلك الأيدى التى بقيت فى الحقول أو على الجبال أو تحت البحر
لا تنسى –
سيكون من الصعب علينا أن ننسى أيديهم
من الصعب على الأيدى التى تصلبت على الزناد أن تبحث عن
زهرة اللؤلؤيــة
أن تقدم الشكر على الركبتين ، على كتاب ، على صدر نجمة ٠
سوف يستغرق وقتا ٠ وعلينا أن نرفع صوتنــا ٠
الى أن يجدوا خبزهــم وعدلهم ٠
مجدافان تسمرا فى الرمل ، عند الفجر ، فى العاصفة ٠
أين القــارب ؟
محراث مغروس فى الأرض والريح تهب ٠ الأرض احترقت ٠
أين الفــلاح ؟
شجرة الزيتون والكروم والبيت – رمــاد ٠
ليــلة قارصة فى حــذاء مزارع ٠
أوراق غار جافة فى دولاب الحائط – لم تلمسها النيران ٠
براد شــاى مسود فى الموقد – والماء يغلى وحــده فى البيت
المغلــق ٠
لم يكن لديهم أى وقت للأكل ٠

على مصراع الباب شرايين الغابة – الدم ينساب فى الشرايين ٠
وهناك الخطوة المألوفــة ٠ من يكون ؟
الخطوة المألوفة بمسامير الحذاء ، تصعد ٠
زحف الجذر فى الصخر ٠ شخص ما قادم ٠
كلمة السر، التوقيع الموثق ٠ شقيق ٠ مساء الخير ٠
بذلك – اذن – سيجد الضوء أشجاره
والشجرة ستجد – ذات يوم – ثمرهــا ٠
دورق الرجل الميت ما يزال به ماء وضوء ٠

مساء الخير ، يا أخي • أنت تعرف • مساء الخير •
وفي كوخها الخشبي تبيـــع السيدة العجوز « غروب » خيطا
وتوابــــل •
لا أحد يشتري • فهم تحولوا الى الأرض العليا •
ومن الصعب عليهم الآن الهبوط •
بل من الصعب أن يبوحوا بارتفاعهم •

وفي طابق الدراس ، حيث تناول الشبان الشجعان عشاءهــم
ذات ليـــلة ،
تبقى هناك نوى الزيتون والدم الجاف للقمر
مع المقياس الشعبي للبنادق •
في اليوم التالي ، أكلت العصافير فتات خبز العسكر ،
ومن الكبريت الذي أشعل سجائرهــم ومن أشــجار زعرور
النجوم صنع الأطفال اللعب •

والحجر الذي جلسوا عليه تحت أشجار الزيتون
في الأصيل ، في مواجهة البحر ،
سوف يتحول غدا الى طلاء في الأتــون ،
وبعد غد سنطلي بيوتنا وعتبة « سانت سافيور »
واليوم التالي ، سنبذر البذور حيث ناموا
وسوف تنبثق براعم الرمان مثل الضحكة الأولى للطفل على
صـــدر الشروق •
وسنجلس ــ فيما بعد ــ على الحجر لنقرأ قلوبهم جميعا
كأننا نقرأ ــ للمرة الأولى ــ تاريخ العالم •

(٦)

هكذا ، مع الشمس فى صـدر البحر ، وهي تصـبغ الثوب المقابـل للنهار ،
فان صاعقة وعذاب العطش احتسبا ضعفين وثلاثة أضعاف
والجرح القديم احتسب من البداية
والقلب احترق في القيظ مثل بصل « ارجيف » أمام الدور.

أكثر فأكثر تشابهت أيديهم والأرض
أكثر فأكثر تماثلت عيونهم والسماء .

جرار الزيت الطينية خاوية . بعض الثفل فى القاع . والفأر الميت .
شجاعة الأم نزفت مع الجرة الطينية والصهريـج .
ولبـان الخراب لاذع بالبـارود .

فأين ستجد الآن الزيت لقنديل « سانت باربرا »
والنعناع لتبخير أيقونة المساء الذهبيـة .
كسرة الخبز لليلة المتسولة لتعزف لنا غنوة النجم على كوكبة القيثـارة .
فى حضن مرتفعـات الجزيرة ، تحولت الكمثرى والبرقـوق الشوكى الى أشباح .

حرثت الأرض بطلقات المدافع والقبور .
المواقع الرئيسية المدمرة ترقعت بالسماء . لاغرفة أبدا لموتى آخرين .
لا غرفة للأحزان كى تتوقف وتجدل شعرها .
وخـلال محجر العين الخاوى ، تبصر البيوت المحترقـة البحر الرخامى فى البعيـد
والرصاصات مغروسة فى الجـدران
كسكاكين فى ضلوع القديس المربوط فى شجرة السرو .

طوال النهار ، والموتى يشمسون أنفسهم ، ممددين على
ظهورهم •
وعندما يحل المساء يجرجرهم الجنود على بطونهم فوق
الصخور المسودة ،
فيبحثون بأنوفهم عن الهواء خارج الموت
يبحثون – وهم يمضغون قطعة من نعال – عن حذاء القمر ،
يضربون الصخور لتفرج عن قطرة ماء
لكن الجدار – في الجانب الآخر – أجوف
يسمعون من جديد قذيفة المدفعية المنطلقة تسقط في البحر
ويسمعون مرة ثانية صراخ الجرحى أمام البوابة •
فالى أين تمضي ؟ فأخوك ينادي عليك •

الليل – في كل مكان – مشيد من ظلال سفن أجنبية •
الطرق مسدودة بالجدران المهدومة •

في اتجاه المرتفعات وحدها ما يزال الطريق مفتوحا •
يلعقون القوارب ويعضون ألسنتهم
ليحسوا بالألم الذى لم يتحول بعد الى عظام

على المتاريس يقف القادة المذبوحون يحرسون الحصن •
وتحت ثيابهم تبلى أجسادهم • هيه ، يا أخى ، ألم تتعب ؟
الرصاصة في قلبك تبرعمت ،
خمس زنابق نبتت تحت ابط الصخرة الجافة ،
نفسا نفسا يروى الأريج العذب الحكاية الخرافية – ألا تتذكر ؟
لدغة لدغة ، يحكى لك الجرح عن الحياة ،
وزهرة الكاميليا التي تبرعمت من أقذار اظفر قدميك
تحكى لك عن جمال العالم •

تتعلق باليد . انها يدك ، ملحية رطبة .
والبحر بحرك . عندما تنتزع شعرة من رأس الصمت
يقطر لبن شجرة التين مرارة . أينما تكون تراك السماء .

ونجم المساء يلف روحك كسيجارة بين أصابعه
فيمكنك تدخين روحك ، وأنت تستلقى على ظهرك
مبللا يدك اليسرى في الليل الواضح ، ذى النجوم
واذ تلصق يدك اليمنى ببندقيتك ، خطيبتك ،
تذكر أن السماء ما نسيتك أبدا
عندما تأخذ رسالته القديمة من جيبك الداخلى
وتقرأ — فيما تفتح القمر بأصابعك المحترقة — عن الشجاعة والمجد .
سوف تتسلق — فيما بعد — الطريق صاعدا الى نقطة مراقبة الجزيرة
وباستخدام نجمة — ككبسولة تفجير — تطلق قذيفة فى الهواء
فوق الجدران والصوارى
فوق الجبال التى انحنت كجنود جرحى
كى ترعب الأشباح وتدفعهم الى مكمن الظل —
ستطلق قذيفة مباشرة الى صدر السماوات لتصيب درع الزرقة
كأنك ستعثر فى قميصها على حلمة المرأة التى سترضع طفلك غدا
كأنك ستعثر — بعد مرور الأعوام — على مقبض باب بيت أسلافك .

(٧)

البيت ، الطريق ، الكمثرى البرية ، الدجاجات التى تنقر لحاء الشمس فى الباحة .
تعرفهم ويعرفونك .

وهنا فى الأسفل وسط العليق ، بدلت حية الشجرة جلدها الأصفر
هنا فى الأسفل جحر النمل وبرج النحل بمعاركه الكثيرة ،
وفى نفس شجرة الزيتون قوقعة زيز العام الماضى ،
وصوت زيز هذا العام
فى حقول العدس، ظلك الذى يتبعك مثل كلب صامت ، يعانى طويلا ،
كلب وفى – يجلس فى الأصيل بجوار نومك الأرضى ويتشمم الدفلى ،
وفى المساء ، يلتف على قدميك ويرقب احدى النجوم .

هناك ، صمت الكمثرى التى تنمو على سيقان الصيف
نعاس الماء وهو يتسكع حول جذور شجرة الخروب –
نبع له ثلاثة أيتام على مريلته
ونسر يموت فى عينيه
وعاليا هناك ، خلف غابة الصنوبر
تذوى كنيسة « سان جون » بالقرية
مثل قطرات العصفور البيضاء التى تجففها الشمس على ورقة توت عريضة .
وهذا الراعى الذى التف فى جلد الغنم
له نهر جاف فى كل شعرة من جسده

له غابة بلوط فى كل ثقب من نايه
وعصاه لها نفس العقد كالمجداف الذى كان أول ما ضرب زرقة « هيلليزبونت » .
ليس عليك أن تتذكر . فشريان شجرة الدلب له دمك .
والجزيرة زنبق وكبر
فى ذروة الظهيرة يجهر البئر الصامت
بصوت دائرى من زجاج أسود وريح بيضاء

مستدير كجرار طينية قديمة ـ نفس الصوت القديم •

وفى كل ليلة ، يقلب القمر الموتى على ظهورهـم

يفتش فى وجوههم بأصابعه الثلجية عن ابنه

ذى الجرح فى ذقنـه ورموشه الحجزيـة

يفتش جيوبهم • فسيجد دائما شيئا ما • دائما ما نجـد شيئا ما •

مفتاح ، خطاب ، ساعة توقفت على السابعة • نملأ الساعـة من جديـد •

وتنطلق السـاعات •

وعندما تبلى فى الغد ثيابهم ، ويبقون عرايا وسط أزرارهـم العسكريـة

مثـل كسرات سماء وسط نجوم الصيف

مثـل النهر بين شجيرات الغـار ،

مثل الممر الملتوى بين أشجار الليمون فى أوائل الربيع ،

آنئذ ، قد نعثر على أسمائهم ونهتف : اننا نحب •

آنئذ • • لكن من جديد ، قد تبدو هذه الأشياء بعيدة ،

لكنها مع ذلك قريبـة تماما ، مثلما تشد على يد فى الظـلام وتقول :

« تصـبح على خـير »

بالشفقة المريرة للمنفى حينما يعود الى وطنـه

فلا يتعرف عليـه حتى أهله لأنه عرف الموت

وعرف الحياة قبـل الحياة وفيما وراء الموت

ويتعرف عليهم • ليس مرة فى الغد • يقول

وهو على يقين من أن الطريق الأطول هو الأقصر الى قلب الرب .

وساعة أن يقبله القمر في أسى على رقبتــــه ،

وهو ينفض رماد سيجارتــه عبر سياج الشرفة ، قد يبــكى
بسبب يقينــــه

قد يبكى بسبب يقينه فى الأشجار والنجوم والأشقاء .

أثينا : ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧

★★★

* عمليـــة

كان يتجرد يومـا بعد يـوم ·
خلـع ثيابـــه أولا ،
ملابســه الداخليـة فيما بعد ،
جلـده بعـد ذلك ،
وبعـده لحمـه وعظامـه ،
الى أن تبقى ـ في النهاية ـ ذلك الجوهر البسيط ، الدافىء ، النظيف ،
الذى يشـكله ـ خفيـا وبلا يـدين ـ
أباريـق صغيرة وقصائـد وناسـا
ربما كان ـ هو نفســه ـ واحـدا منهم ·

* منظـــور

بيوتنـا مبنيـة أعلى بيوت أخرى ، في صف ، من رخام ،
وأولئـك أعلى بيوت أخـرى ·
أقيمت أساساتها فوق رؤوس تماثيل منتصبة ، بلا أيد ·
لهذا ، فمهما كان انخفاض أكواخنا فى السهل ،
تحت أشجار الزيتون لتتحامى بها ،
صغيرة ، مسودة من الدخان ، وبجانب الباب ابريق وحيد ،

فأنك تتخيل أنك تسكن عاليا ، وحولك يتلألأ الهواء ،
أو تتخيل أحيانا أنك خارج البيوت ،
أنك بلا بيت ،
وأنك تتخذ طريقك عاريا متصلبا ،
وحيدا تحت سماء زرقاء ــ بصورة زائدة ــ أو بيضاء ،
و ــ عرضا ــ يلمس تمثال بخفة كتفك بيده ·

* ماء وطين

انحنى فوق البئر ــ دائرة من ظلام ،
ظلام بارد يتلألأ ·
وهناك ، فى المركز ، وجهه المضيء محصور ·
آنئذ رمى الدلو وسحب الماء · كان عطشانا ·
شرب · لم يكن فى الماء أحد ·
هل يمكن أن يكون ــ فى عطشه ــ قد شرب وجهه ؟
سيحتاج الآن ــ على الأقل ــ الى قناع يشبهه
(والا فكيف سيعيش وسط الكائنات الانسانية ؟)
أخذ ماء وطينا ، عجن الطين بعناية ،
لكنه لم يعد يستطيع تذكر شكل وجهه ·
نظر الى يديه ، ــ
طين يتدلى ــ أحمر لامعا ــ من أصابعه ·

* أصيل

الدجاج ما يزال ينقر فى الطريق ·
وزوجة القبطان العجوز جالسة فى الباب
تحمل حفيدها فى حجرها المفتوح ·
طفل يحمل سلة ·
البيوت العشوائية تواجه الغروب ، بجذوعها القديمة .

وأسرتها ومناضدها الحديد ـ وصورها المؤطرة ٠
الملاءات تنشر تاريخها في مستطيلات عريضة ٠
البحر غير مسموع ٠
ويد كبيرة خفية ترفع المقاعد شبرين فوق الأرض ٠
كيف يعيش الناس بلا شعر ؟

* مهندس معماري

مجموعة فتيات في ثياب وردية
يضحكن في ركن البيت المهدوم ٠
البناءون يعلقون بنطلوناتهم وقمصانهم في مسمار بالمبنى الجديد ،
يأخذون لوح الملاط ، والمسطرين
ويصعدون السقالات الكبيرة ، العارية
كأنهم يصعدون الى السماء ٠
والمهندس يحسب ، يتذكر ، يقارن ، يراقب ،
ينظر باكتئاب ، كأن تخطيطه قد ظل نصف مكتمل ،
كأن المبنى الكبير لن يكتمل أبدا ٠
يأخذ مسمارا ويسمره بنفسه في اللوح ،
انثنى المسمار ٠ ضحك العمال ٠ ضحك أيضا ٠
خلع قميصه وهو يشعر أن ـ في ضحكتهم الشعبية هذه ـ قد توحدت يداه وتخطيطه وبناؤهم ٠

* بناءون

أرأيت من هم بناءون بالغريزة
وأولئك الآخرين بحكم المهنة
والطائفة الثالثة ممن يبنون للثأر من الموت
وأولئك ممن يبنون عن وعى وتصميم ؟

كلهم يتوقفون الآن جميعـــا ،
يمسحون أيديهم التى تغطت بالجبس فى بنطلوناتهم ،
يمســحون عرقهم ويبــكون ٠
لا يمسحون دموعهم ٠

والآن ، يلتصق الملاط أفضل بهذه الطريقة ٠
وهو ما يحدث فيما وراء قصدهـــم
ذلك هو السبب فى أن البنائين ـ فى الليـــل ـ
يحلمون بهذا ال « ما وراء » المجهول ، الغامض
فيبنون كل صباح ال « هنـــا » أفضـــل ٠

* نهايـــة خطبـــة

فى اللحظة الأخيرة ، وهو ينهى خطبته وسط التصفيق ،
أضـــاف تعبيرا غامضـــا وهـــادئا :
« الرجل الذى صفقتم لـــه لم يكن أنـــا ،
وكلماتى لم تكن لى ـ
انها مرايـــا صغيرة فى مواجهتكم
ترجـــع شظايـــا من وجوهكم أو توقعكم ،
وفى مواجهة كلماتى كنت أقف أيضا كضوء بعيد
ينعكس فى المرايـــا ، ويرمى أشعته الناصعة فى عيونكم
لتمنعكم من رؤيـــتى ٠
كلماتنا الحقيقية تكمن عميقـــا فى الصمت
(ولا حاجـــة بنـــا اليها ، على أية حال) ٠
وأفعالنا الحقيقية دائما ما تقصى الشهود أو تقتلهم ان استطاعت
أو تتخلص منهم مقابل ثمن باهظ
ما نمتلكه هو ـ فقط ـ ما لا يحتاج الى برهان ٠
وكل التصفيق هو شهادة تالية أو زائفة بلا وعى » ٠
فى تلك اللحظة ، انطفأت الأضواء فجأة

وبدأ الجميع يتدافعون ناحية أبواب الطوارىء ،
فلم يستطع أحد أن يرى التعبير على وجوههم أو وجهه ·
وربما فقط ، كان هناك صمت اجبارى معتم ، يرفرف حرا
فى المرايـا المعلقة بقاعـة الاسـتماع ·

*** تحت النسـيان**

الشيء المادى الوحيد الذى تركه بعده هو سترته ·
علقوها هنـاك ، فى الدولاب الكبير ·
نسيت ، وأزاحتها ثيابنـا الى الوراء ،
ثيـاب الصيف ، ثيـاب الشـتاء ،
ثياب جديدة كل عام من أجل احتياجاتنا الجديدة ·
الى أن لفتت انتباهنـا ، ذات يوم ، ــ
ربما كان لونها الغريب ،
ربما كان أسلوب خياطتها القديـم ·
على الأزرار كانت هناك ثلاثة أماكن دائرية موحدة :
حائط الاعدام بأربعة ثقوب ، محاطة بندمنـا ·

*** ربما كان يعرف**

بعد أمراضـه المتواليـة ، تبقى هذا الوهن ،
يومىء برأسـه صـعودا وهبوطـا ،
ويهمهم بابتسامة : « حقا ، حقا ، حقا ، حقا » .
بطريقة مضحكة بالفعل ، لكنها أيضـا وديـة ·
« حقا ، حقا » ، يهز رأسـه طوال الوقت
كغصن معتم هش به ورقـة خضراء وحيدة ، ــ
والريـح تعصف به أبـدا
فى مشهد طبيعى أجـرد ورقيـق
لعرفـان بلا تبريـر ·

* نفس البرودة ؟

أيام كثيرة ، ليال كثيرة ، أعوام كثيرة ، ــ كان متعبا ٠
لم كل هذا العناء ؟
بعد منتصف الصيف ، كل صيف ، يسمع مجموعة من الشبان
يمرون خارج نافذته يضحكون ، يغنون ، يمزحون ٠
وهو ؟

عندما أضاء المصباح من جديد للمذاكرة
رأى حلزونا يصعد المحبرة ببطء ٠
لكن فى الخارج أيضا ، ــ تذكر ــ بجوار البئر ،
المزهريات ، فى مساءات الصيف ، فى كل الحدائق المروية ،
وبجوار الزهور يتمشى سرب من الحلزون ٠

* العرافة

شعرها فوضى ، دائمة ،
كأنه عويل على جثة ما خفية ،
أو على جثتها هى ٠
« نعمة العرافة » ، تقول « نعمة شريرة » ٠
والشبكة المظلمة فى الحمام المعلقة أمام عينيها
تشبه شعرها ــ
ليست شبكة موت فحسب ، بل أسوأ ،
شبكة اصطياد ، شرك للحسد أو اللاجدوى ٠
والآن تقترب ــ من جديد ــ تلك الساعات الفاتنة الهشة من
الربيع ــ
كطفل يغمس قدميه فى ذلك الحوض العميق ،
يلعب بالصابون ٠٠
بأطراف أظافرها تصنع شقين فى شعرها المنسدل ،
كأنها تعزف على قيثارة ،
ثم تحدق فى الثقوب ،
تخمن عن صواب و ــ عن صواب ــ تبتسم ٠

* ليلة قديمة

هنـــاك عاليا ، حـل الظلام مبكرا .
ليلـــة شـفافة ، مضيئـة كالنهار .
بســتان الزيتون المعتم ،
الشجيرات المحترقة من الشمس وسط كتل الرخام .
المسرح المقفر المعلق على جانب التـــل .
ترس كبير مرمى ووجهه فى الأقـــذار .
اذا ما أمطرت ، فلســوف يمتـلىء بالماء ،
وستأتى السنونوات الى هنـــاك لتشرب ،
مع الدب والأسـد والثور و « كريســوثيميس » ،
وكلاب حارس الغابـة الثلاثـة ، والقمر .

* صورة جانبيــة يونانيــة

بحر معتم ، يتنفس سرا فى الليـــل .
قوارب الصيد الفارغـة راسية على الشــاطىء ـ
والسر العميق فى أجسادها المبلولة ما يزال غير منطوق .
أشعل شخص ما كبريتـا ، ثم ســيجارة .
هذه الصورة الجانبية لعشرين عاما من العمر على القـارب ـ
نعرفها منذ ثلاثة آلاف عام (الشعر منسدل هكذا تماما) .
وراء الأشرعـة المعتمة ، اندفـع بشهاب كالبرق ،
وهو يكشف شلال شـعر لفتـاة منحوتة فى الخشب .

* ضــوء غامض

غربت الشمس منـــذ ســاعات :
فمن أين يأتى ـ اذن ـ هذا الضوء الكبريتى ،
فيـدفن السهل فى أقدام هذه الجبال العموديـة ، كما لو فى
السـديم ؟

قلامة ظفر القمر القرنفلية تغوص في الغرب .

ويمكنك ــ بالكاد ــ أن تستكمل النوافذ الأربعمائة وثلاث للمدابغ القديمة ،

وحتى جلود حيوانات الأضحيات ، المنشورة على الأسلاك الشائكة ــ

وفي أقصى الطرف الأسفل ذلك الصوف الذهبي ،

الذي يلتمع بجوار مقبض الباب الحديدي .

★★★

أوريست

(شابان ، كلاهما في حوالى العشرين من العمر ، توقفا أمام الأروقة. بديا كأنهما يحاولان تذكر شيء ما، واستعادة التعرف عليه ، لكن ما استثارهما أن كل شيء كان مألوفا بصورة لا تصدق ، برغم أنه أصغر الى حد ما – بكثير – مما تخيلاه في المكان ، كمكان وزمان مختلفين تماما : الجدران ، هذه الجلاميد الهائلة ، بوابة الأسد، والقصر في ظل الجبل... حل الصيف. كان الظلام يهبط. وحلت العربات الخاصة والأتوبيسات السياحية الكبيرة ، وأطلقت الساحة المسترخية زفيرها في السكون ، زفيرا عميقا ينطلق من مقابر ذكريات ما قبل التاريخ . قصاصة جريدة ترتعش على العشب المحترق ، وقد لمستها هبة واهية من ريح . وكان للمرء أن يسمع وقع خطى الحارس الليلي ، وصوت مفتاحه الثقيل في الباب الداخلي للقصر . آنئذ ، بدأت الجداجد تقرع طبولها النحيلة ، كما لو ان ندى الليل الدافيء قد أطلق سراحها . ضوء غامض زحف خلف الجبل – ربما القمر . في هذه اللحظة – بالتحديد – انفجرت صرخات حادة عند الدرج الرخامي – عويل امرأة أليم ، بلا تفسير . وقف الرجلان دون أن ينظر أحدهما الى الآخر ، مندمجين – كظلين كبيرين – في الجدار الوطيء . ثم أخرج أحدهما وشاحا ومسح جبهته، وأشار – في ارهاق – باصبعه ناحية الصخب.

وبدأ فى الحديث الى رفيقه ، والذى سيظل صامتة
منتبها بصورة فاتنة ، كما « بيلاديس ») ٠

أنصت ٠٠٠ انها لم تكف حتى الآن ، لم تستنفد نفسها ٠
ذلك لا يحتمل فى ليلة يونانية نموذجية ، دافئة ، ساكنة ،
منعزلة ولا مباليـة ،
وان منحتنا هذا العـزاء الفريـد :
أن نكون فيها ، أن نراها من داخلها ،
و ـ فى نفس الوقت ـ عن مسافة منها ،
أن نشهدهـا عارية حتى أوهى اختلاجة لجداجدها ،
وأقل رعشـة لجلدهـا المظلم ٠

مثل هذا الاسـتقلال ،
هل نجرؤ ـ نحن أنفسنا ـ على الحلم به ؟
بفرحته الفاتنة باللامبالاة ، والصبر ،
فيما وراء العالم ، فى العالم ، وفى أنفسـنا :
وحيـدا ، متحدا ، متحررا ،
فيما وراء هذه التنافسات ، والمقارنات ، والتعسفات ،
فيما وراء معيار الآخرين فى الآمال والرغبـات ٠
يكفى أن ترى رباط صنـدلك ،
حيث يفصل الاصـبع الكبير ليديره تجاهى ،
وتجاه مكان يجاوز زهور الدفلى ، سرى ، ولى وحدى ،
فيما تتساقط أوراق الليل الفضية مرتعشة على كتفيك
ومسيل النبـع يمر ـ واهيـا ـ تحت أظافرنـا ٠

أنصت اليها ،ـ
فصوتها يغلفها كمقبرة تطن بالنحـل ،
وهى ـ نفسها ـ تتدلى داخل صوتها

كلسان جرس يقرع ويقرع جدران الجرس ،
لكن لا من أجـل جنـازة أو حفـل ـ
فليس هناك سوى هذه الصحراء الصخرية الطاهرة ،
و ـ في الأســفل ـ صمت الصحراء المستكين ،
الذى يحول غضبها الطائش الى سـكينة ،
وكل ما حولها كطائرات ورقية بريئــة ،
نجوم بـلا حصر تتحرك مع الخفيف الورقى الأبـدى لذيولها الهائلـة .

فلنمض الى خارج مدى السمع ـ الى التل الخلفى
لكن ليس الى مقـابر الأسـلاف .
فلن أقدم ـ الليـلة ـ أيـة قرابين ،
لن أجز شـيئا من هذا الشـعر
حيث كثيرا ما هامت يـدك ...
ومع ذلك ، فهى ليـلة فاتنـة ،
تبـدو كأنها جزء منـا
وقد انفلتت وانجرفت بعيـدا ،
ننصت اليها وهى تتحول الى نهر أسود يسعى الى البحر ،
مزبدا ـ بين حين وآخر ـ تحت الأغصان ،
تحت البريـق الخشن للنجوم ،
فى صيف ظالم محروق مجدب من الرحمـة ـ
نهر مفعم بالانقطاعات القصيرة ، الغامضـة ،
والقفزات غير المتوقعة (ربما كان أحدهم يرميه بحجر) :
الخرير المرح والنوافذ عبر الكروم تومض .
أمر غريـب ،
فطوال حياتى كانوا يؤهلوننى لذلك ،
والآن ، وأنا أقف هنـا أمام البوابـة ،
أحس بعدم التـأهيل تمامـا .
فالأسـدان الرخاميـان ـ هل تراهما ؟

كم أصبحا أليفين ! ـ
رغم أنهما كانا يبدوان غاية فى الشراسة عندما كنا صغارا ،
وحشيين ، وعرفاهما ينتصبان لقفزة مستحيلة ...
ها هما الآن ينتهيان على مؤخرتيهما فى قناعة
على الزاويتين العلويتين للمدخل ،
فراؤهما بلا حياة ، وعيونهما جوفاء
ـ لا شىء يخيف فيها ـ
ولهما نظرة الكلاب المكدودة ،
لكن ـ حتى ـ دون أن تكون تعيسة :
وفية ، عمياء ، بلا أثر لضغينة ،
فقط ، بين الحين والحين
يمدون ألسنتهم ليلعقوا النعل الفاتر لليل .

حقا ، غير مؤهل .
لا أستطيع ذلك .
لا شىء داخلى مع هذا المشهد ،
مع الزمن ، مع هذه الأشياء والأحداث .
ليس ذلك لأننى جبان ، ـ
غير مؤهل عند بدء الفعل ،
غريب بكاملى عند غاية رتب لها الآخرون .
فكيف حدث أن نجحوا ـ شيئا فشيئا ـ فى تحديد مصيرنا ،
فى فرضه علينا ،
وفى أن نقبل ـ نحن أنفسنا ـ به ؟
كيف حدث أن نجحوا فى نسج حياتنا كلها
من أجمل الخيوط للحظات ماضية معدودة ؟ ـ
رداء خشن ، كالح يلفنا مثل كفن من الرأس الى القدم ،
ليخفى وجهنا كله ، بل وأيدينا
التى أقحموا فيها سيفا لم نره من قبل أبدا ،

ويريقه القاسي يكشف مشهدا لا ينتمي الينا —
متأكد أنا من ذلك : لا ينتمي الينا ·

وكيف حدث أن قبل مصيرنا الحقيقى — أيضا — بذلك ،
متراجعا وهو ينظر شزرا الينا
والى مصيرنا المغاير مثل غريب :
أصم ، صامت ، مستغن ، نساء ،
دون — حتى — سيماء المهابة أو الرزانة ،
دون لياقة أن يتوارى ، أن يموت ،
ويتركنا فريسة لهذا المصير الزائف
(مصير واحد فحسب : غير متضارب أو ممزق) ·
انظر اليه وهو يستلقي هناك ،
ناعسا فيما يبدو ،
واحدى عينيه مغمضة ، لكن الأخرى مفتوحة قوية ،
ونحن نعرف (كما يشتهى نكون) أنه ما يزال يراقبنا ،
ويمكنه أن يرى اختلاجنا الأبدى ،
دونما اداتة ولا غفران ·

هناك — فيما يبدو — قوتان متعارضتان
تتوافقان مع قدمينا ،
كل واحدة تشد قدما الى أبعد ما تستطيع عن الأخرى
توسع خطوتنا الى حد تمزيق الأوصال ،
ويصبح الرأس نوعا من الرابط
الذى يحفظ هذا الجسد الممزق في كتلة واحدة ·
بينما خلقت الساقان — فيما أعتقد —
لتتحرك كل واحدة بالتبادل ،
والاثنتان فى خطوة واحدة ، فى اتجاه واحد ،
هبوطا الى السهل بكرومه المعنقدة ،

فى اتجاه الأفــق الذى يتوهج على البعـد ،
فيولـد الجسـد بكرا .
أم أن الحقيقة أننـا خلقنـا
من أجـل تلك الخطوة الأخـرى ــ
تلك الخطوات الكبرى ، الساخقـة
فوق الهاويـة المجهولـة ،
فوق القبور ، فوق قبرنـا ؟
لا أعـرف .

ومع ذلك ، فتحت الجذور الراقدة العديدة للفوضى والخوف
يمكننى أن أحس الامتـداد اللانهائى للصمت :
نوعـا من العدالـة ،
توازنـا مكتفيـا بذاتـه
يضمنـا فى نظام واحـد مع البـذور والنجوم .
فهل لاحظت ذلك ؟

ففى طريقنـا الى هنـا ، فيما بعد الظهيرة ،
كان ظـل غيمـة يمتـد عبر السهل ،
فيغطى حقول القمـح ، وأحراش الزيتون والكروم ،
والخيول ، والطيور ، والأوراق ــ
كمشهد بعيـد فى السـماء
مطبوع بخفـة فى الأسـفل هنـا على الأرض .
والمزارع يسير على طول حافـة السهل
فيبـدو كأنـه يحمل ــ تحت ذراعـه الأيسر ــ
ظـل الغيمة الكامـل كمعطف هائـل ــ
مهيب ، وان يكن بسيطا كثوبه المصنوع من جلد الغنم .

هكذا تصـبح الارض حميمـة للسـماء ،
متخذة لمحـة من زرقتها ، من غموضها ،

والسماء ـ بالمقابل ـ تتخذ شيئا من الأرض ،
شيئا ما دافئا وأسمر مصفرا ،
شيئا ما من أوراقها ،
من جذورها وصريرها الأرضى ،
وشيئا ما من العيون الصبورة للبقر ـ هل تذكرها ؟
ومن الساقين الثابتتين لذلك المزارع
وهو يختفى من البصر ·

لكن أختى تحاول الابقاء عليه ·
أنصت اليها ·
كيف يمكنها ألا تسمع صوتها ؟
كيف يمكنها الابقاء على نفسها محبوسة
فى لحظة ساكنة من زمن غابر ،
من مشاعر غابرة ؟
كيف ، وبأى شىء ، يمكن احياء
هذا الهوى الحقود ، وصوت الهوى ،
عندما تكذبها كل الأصداء ، بل وتسخر منها ؟
ـ أصداء من الأروقة ، من الأعمدة ،
من الأثاث ، من الدرج ،

من جرار حفظ رماد الموتى بالحديقة ، والقناة ،
من كهوف زارا ، من الحظائر بالوادى ،
من الحراس القائمين على التلال ،
من الثنيات الموجودة على تماثيل الالهات فى الساحة ،
من القضبان الرخامية الضخمة لرماة القرص والعدائين ·

حتى الزهريات داخل المنزل تبدو كأنها تعارض صرخاتها
مع ايماءة الموافقة من بضع زهرات رقيقة

رتبتها ـ بـذوق ـ يـد الأم ،
هنـاك على الخزانـة المنحوتـة ،
فى واجهة المرآة الموروثـــة ،
فى وهـــج (مزدوج من الانعكاس)
يبـدو كما لو من خلال ماء ـ أتذكره منـذ الطفولـة ؟ ـ
ذلك ـ على الأقـل ـ ما احتفظ به عقلى صافيـــا :
وهـج مائى ، بـاهت ، حيـــادى ـ
غموض فيما وراء الزمن والخطيئة :
شيء ما ناعـــم ، وأثـير ،
كحزن فتـــاة صغيرة ،
كزغب على الشـفة العليـا لصبى ،
كرائحـة جسـد نضر من الحمام ،
على الملاءة الدفيئـة بأنفاس ليلـة صيف مترعـة بالنجوم .

لكنها لا تعى شـيئا من ذلك ،
ولا حتى الأصـداء التى تسخر من صوتها المتنافر .
انـنى خائـف .
لا يمكننى الاستجابـة لنـداءاتها ـ
الفـادحـة والمبتذلـة فى نفس الوقت ـ
لكلامها المفحـم هذا ، البـالى
الذى يبـدو خارجـا الى النـور
من صناديق كتانية تنتمى الى ما يحب العجائز أن يسمونـه
« السنين الخوالى » ،
كأعـلام مكرمشة هائلـة ،

وغضونها يتخللها النفتالين ، وخيبـة الأمـل ، والصمت ـ
كلامها العتيق الذى لا يحمل أى شك فى عمره الحقيقى .
وهو يواصل القرقعـة بعيـدا بايماءات غابـرة

فوق رؤوس السائرين المتعبين ، المتبرمين ، بلا ارتياب ،
فوق الشوارع الأسفلتية ،
التي ما تزال – برغم حجمها – متواضعة ،
بنوافذ محلاتها الأنيقة
الممتلئة ببضائع البللور وأربطة العنق ،
وملابس البحر ، والقبعات ، وكتب الجيب ،
وأمتعة السفر التي تستجيب لاحتياجات اللحظة
والاحتياج الدائم للحياة التي تقودنا ·
لكنها تمضي في اعداد الميد والمؤن للموتى ،
الذين ما عادوا يشعرون بالجوع أو العطش ،
بل وما عاد لهم أفواه ،
والذين لا يحلمون أبدا بالعودة أو الانتقام ·
انها – والى الأبد – تستحضر عصمتهم
(لكن أية عصمة ؟) ،
ربما لتتهرب من عبء الاختيار والقرار –
عندما تصبح أسنان الموتى ، النظيفة المبعثرة في التراب ،
بذورا ناصعة في واد أسود بلا مثيل ،
لتنبت أشجارا من عظام بيضاء ، لا مرئية ، معضومة ،
تومض كالفوسفور في ضوء القمر حتى نهاية الزمن ·

كيف يمكن للسانها أن يحتمل النطق بهذه الأشياء ،
بكلمات منزوعة من صناديق قديمة
(من نفس النوع الذي اعتادوا صنعه بمسامير حديدية هائلة
للزينة) ،
منزوعة من بين القبعات القديمة للأم ،
ذات الطراز القديم ، التي لم تعد ترتديها :
لن يدركها الموت فيها ·
هل تراها في الحديقة هذا الأصيل ؟
انها فاتنة كما كانت ، لا أكبر حتى بيوم واحد ،

ربما لأنها تضع الزمن نصب عينها ،
وترعاه كل لحظة ـ
أعنى أنها عادت شابة من جديد
على وعى بالشباب الذى فقدته ،
وذلك ـ ربما ـ سبب استعادتها له ٠

وصوتها ، الآنى تماما ، اليومى تماما ، المعافى تماما ، ـ
وهى تستخدم أكبر الكلمات وأصغرها بصورة طبيعية ،
بأعظم المعانى الممكنة ـ مثلما تقول :
« هناك فراشة تدخل من النافذة » ،
أو « العالم أروع من أن يحتمل » ،
أو « يمكن اضافة مسحوق تبييض أكثر للبياضات » ،
أو « لفحة واحدة من شذا المساء تراوغنى »
ثم تضحك ،
كما لو لتستبق شخصا ما تخشاه ، يوشك على الضحك ٠

وفهمها الكامل وتدليلها الرقيق لكل شخص وكل شيء ـ
هو ـ غالبا ـ احتقار ما ٠
كنت دائما معجبا بها ،
بل وأخافها ، لهذا الوعى الذاتى ، لهذا الزهو الرفيع ،
فتختلط لدى ضحكتها الخفيضة ، المتعددة الأبعاد ،
بذلك الهسيس والشعلة الخفيضة لعود الكبريت
وهى تشعل المصباح المعلق فى غرفة الطعام ـ
وستكون هناك ، مضاءة من أسفل ،
بأقوى ضوء مركز على الخطوط الناعمة لذقنها
وعلى فتحتى أنفها الرقيقتين ، المتسعتين ،
اللتين توقفتا ـ لحظة ـ عن التنفس وضاقتا ،
كما لو ان ذلك سيبقيها الى جانبنا ،

سيتمهل بها ، يبقيها ساكنة ،
دون أن تذوب كخيط دخان فى رياح المساء النشيطة ،
ودون أن تتبدد بفعل الغصون الطويلة للأشجار ،
ولا أن تضع فى اصبعها كشتبان احدى النجوم
من أجل تطريز بلا نهاية ٠

وكان لها أن تنفرد بحركتها ،
وتوقفها الدقيق في نقطة الغياب بالذات ــ
كنت دائما ما أخشى أن تتلاشى ،
أو تهبط كأحد الآلهة ،
حينما تنحنى لتربط الصندل
الذى يترك أظافر قدميها الملونة مكشوفة ،
كنبات « بخور مريم » النحيل ،
أو عندما تعد شعرها أمام المرآة الضخمة
بتلك الطريقة اللافتة فى تحريك يدهـا ،
الفتية الرشيقة ،
بدت كأنها تشبك ثلاث نجمات أو أربع فى جبين العالم ،
أو تدفع زهرتى ربيع الى قبلة بجوار النبع ،
أو تنظر بارتياب ، فى تأثر واضح
اذ يتسافد كلبان وسط الشارع المترب
فى أصيل صيفى حار ٠
كانت الأم ــ فى آن ــ بسيطة للغاية فى اقناع،وقوية للغاية ــ
مهيبة لايسبر غورها ، معا ٠
ربما كان ذلك الشباب الأبدى هو ما لم تستطع شقيقتى غفرانه ــ
فهى نفسها قد شاخت فى السن ،
عاقلة فى تناقضاتها،معارضة ــ فى تعصب ــ للفرح والجمال ــ
زاهدة ، بغيضة في حذرها ، . .

وحيـدة ومنعزلـــة ٠
حتى الأشــياء التى ترتديها ـ
عتيقـة مزمنـة ، فضفاضـة ، رثـة بائسـة ،
والحبل الذى يربطهم الى الخصر قديم متهالك ،
كشريان جاف حول بطنها (ما تزال تربطه باحكام) ،
كحبل بعض الســتائر الســاقطة ،
التى لم تعـد تنغلق أو تنفتـح ،
لتمنح المرء ـ فحسب ـ تلك اللمحة الجانبيـة
لمشهد طبيعى ضيـق وأجـرد ـ
عالم من صخور ناتئـة وأشـجار هائـلة بـلا أوراق
تمد أغصانها تجاه ستارة خلفية من غيوم مخططة بدينة ،
وهنـاك ، فى البعيد ، الحضور الخفى لخروف ضائع ،
كلطخة باهتـة للحياة ، نتفـة من رقـة لاتبين ،
وأختى نفسها جلمود منتصب،موصدة فى صدفتها القاسية ـ
لا تحتمــل ٠

أنصــت اليها ،
فهى ـ عمومـا ـ تـافهة ٠
دائمـة المراقبـــة للأم ،
تنفجر فى الغضب حينما تضـع وردة فى صدرها أو شعرها ،
أو حين تمر خلال الردهة بهذا الكمال الايقاعى فى خطوهـا ،
أو حين تميل برأسها قليـلا الى جانب فى تسليم ،
وقرطاها الطويلان يقطران نغما فاتنـا على كتفيها ،
نغما هى وحـدها التى يمكن أن تســمعه ـ
انـه هبتها الالهيــة ٠
وهو ما يترك الأخرى مســتشيطة ٠

وهى تغذى غضبها بحـدة صوتها ــ
(بذلك الذى ذهب أيضا ، ما الذى استبقته ؟) ــ
أشك أنها خائفة من الفعل ذاته الذى تصرخ من أجله ،
خائفـة ــ حقـــا ــ من أن يتركها بــلا شىء ٠
فهى لم تسمع أبـدا الحفيف السرى لعشب المســاء
وأحـد الكائنــات الخفيــة الرشـيقة
يزحف الى ما وراء النوافـذ فى الغسق ،
ما رأت أبدا سلم الحبال المعلق بلا سبب من أعلى ،
على جــدار قاحـل ، فى احـدى العطلات ٠
ولم تلحظ هذا الافتقار الى سبب ٠
ولم تر الريشــة على أذن من ذرة
وهى تنظف قـدم غيمـة نحيــلة ،
أو شكل ابريـق ، مرسوم قبالة النجوم ،
أو المنجل الذى سقط بجانب النبـع ، فى أوج النهار ،
أو حتى الظل الذى يرميه نول فى غرفـة مغلقة ،
وهـم يرشون الكروم بالكبريت ،
وصيحات الحصادين تطفو من السهل ،

بينما العصفور ، وحيدا تماما فى العالـم والســاحة ،
يشاكس الذبـاب ، والبـذور ، والفتـات القليـل ،
ويحاول اكتشــاف حريتـــه ٠
لم تر أى شىء ٠

بليــدة ، مســجونة فى عماهــا ٠
كيف يمكن لها ــ مهما كان ــ أن تعيش حياتها منفردة
فى تضــاد مع حياة شخص آخــر ــ
بـدون مكان حقيــقى لها ــ
بدافـــع كراهيتها لحياة شخص آخر
لا بدافــع حبها لحياتها ؟

ماذا يريـــدون ؟
ما الذى يريـــدونه منى ؟
الانتقـــام، يصرخـــون •
الانتقـــام !
اذن ، فعليهم أن يتلقوه ضـــدهم ،
طالما أن الانتقـــام هو ما يبقيهم أحيـــاء •

لا أستطيع أن أسمع المزيـــد • كفى •
فما من أحد يمتلك الحق فى التحكم فى عينى ، وفمى ، ويدى ،
وقدمى اللتين تختاران الأرض التى أمشى عليها •
خـــذ بيـــدى •
ولنمـــض •

ليالى صيف طويلة ، كاملـــة لنـــا وحدنـــا ،
مزيج من نجوم ، كؤوس نبيـــذ مهشمة ، آبـــاط عرقانـــة ،
حشرة تئز فى رقـــة فى طبلة أذن الصمت ،
سحالى تتـــدفأ عنـــد أقـــدام شـــبان من رخـــام ،
يرقانات على دكك الحديقة ، أو فى دكان الحدادة المغلق
تمشى فوق الســـندان العمـــلاق ،
تاركة خلفها على الحديـــد الأسود
آثـــارها البيضاء من الســـائل المنوى واللعـــاب

علينـــا ألا نعود الى ميســـيناى •
فالأرض هنـــا تمور بصـــدأ البرونز والدم الأسود •
و « أتيـــكا » أقـــل ظلمـــا بكثير •
اننى أحس أن هذه الساعة هى ساعة نكرانى الزاهـــد الأخير :
فلن أكون أحد شؤونهم ، خادمهم ، أداتهم •
ولا حتى الحاكم عليهم •

انه أوان البدء في أن أعيش حياتي الخاصة ٠
ولا مكان فيها للانتقام ٠
فلماذا نستبقي موتا آخر ، موتا قاسيا ،
مستمدا من الموت ذاته ؟
ما الذي سيضيفه الى الحياة ؟
ذلك كله قديم غابر ٠
ذهبت الكراهية ٠
فهل نسيت ببساطة نفسي الممزقة ؟
لا أدرى ٠
بل انني أحس بتعاطف مع القاتلة ـ
فقد حدقت في قلب جحيم عظيم ،
وعى هائل فتح عينيها عن آخرهما في الظلام ، لترى ـ
ترى ما لا ينفد ، مالا ينال ، ما لا يتغير :
تراني ٠

وأنا ـ أيضا ـ أريد رؤية مقتل أبي في الضوء المعزى للموت المجرد ،
وأن أضيعه في توحد الميتات التي تنتظرنا جميعا ٠
لقد عرفت الليلة براءة كل غاصب ٠
ونحن جميعا غاصبون لشىء ما :
بعض الناس ، بعض العروش ،

الحب من الآخرين ، أو حتى الموت ٠
وأختي قد اغتصبت حياتي الوحيدة ،
وأنا اغتصبت حياتك ٠

صديقي ،
لقد شاركتني ـ في صبر ـ هذه الشئون الغريبة ، التافهة ٠

لكن يـــدى هى يـــدك ـ
خذهـا ، اغتصـبها (نعـم ، حتى أنت) ·
فهى لك ، ولى أيضـــا ·
امسـك بها ، ضمها اليــك ·
أعرف أنك تريدهـا متحررة من الذكريـات ،
من الجراح القديمة ، وآثـام الأســلاف ـ
متحررة بشـكل حقيقى ·
أنــا ـ أيضـــا ـ أحلـم بذلك ،
فآنئـذ ـ فحسب ـ سـتكون بأكملها ملكى ،
ملكى ـ آنئـذ ـ لأمنحها لآخر ·
اغفرلى هذه العزلـة والانقسام الداخـلى ـ
فأنت تراه بوضـوح ـ والذى يتركنى ممزقـــا ···
يــا لها من ليـــلة فاتنــة ·

أريج حاد لزهور الكبر ، والأورجانو ، والزعتر ـ
أم انــه منقـــار الكركى ؟
اننى أخلط بين الروائـح المختلفـة ·
فأحيانا ما يفوح الدم برائحـة تشـبه ميـاه المحيط المالحة ،
ورائحة السائـل المنوى تشبه الغابة ـ تحول واع ربما ـ
فذلك ـ بالتحديد ـ ما أبحث عنــه الليــلة ·
هل تذكر ما أخبرنا به الجندى ذات ليـلة فى أثينـــا ؟
كيف أنه أخفى نفسه ذات مرة فى الأكمـة المظلمة

على شاطىء دمرته الأنـات ، وحديد المعركة المصلصـل ،
وهو يرقب الظـل المتأرجح الذى يرميـه ضوء القمر
لعضوه شـبه المنتصب تجاه فخـذه ـ
محـاولا أن يثبت وجـوده ،
ويختبر قوة ارادته على جسـده ،

على أمـل الانتقال من السهل المفعم بالموت ،
على أمـل حريـة يؤمن ــ جزئيـا ــ بها ٠

فلنمض بعيـدا فى الأسـفل ٠
لا يمكنني الاسـتماع الى ذلك ٠
فصرخـاتها تسحق أعصـابى ، وأحـلامى ،
والطريقة التى ارتطمت بها مجاذيفنا بالأجساد الطافيـة
التى كنا نلمحها بين حين وآخر على ضوء مشاعل السفينة ،
وشهب أغسطس التى تومض بالشباب والشهوة ،
أبـدية أبعد من الظن
فى هذا الموت المنسـاب الذى حمم ظهورهـم وكواحلهم ، وأفخاذهـم ٠

يجىء تحول الفصول فى صمت تـام
ودائما ما يتزايـد الظـلام ٠
مقعد خيزران يقف منسيا تحت الأشـجار
فى الرطوبة الشفيفة والبخار الصاعدين من التربـة ٠
انـه ليس الأسى ٠
ولا هو ــ حتى ــ الأمـل ٠
لاشـىء ٠
حركة تمتـد بـلا حركة الى الأمس والغـد ٠
سلحفاة فى العشب تبـدو كحجـر ٠
سرعـان ما سـتتحرك ٠
انقياد بـلا توقـع ، مشاركة سرية فى جريمة ، فى سعادة ٠

ما يزال فى بسمتك أثر واه من خواء ــ
أهو بسبب ما أحكيـه لك ،
أم بسبب ما سأحكيـه وان كنت لا تعرفـه ،

ما لم تكتشفه في ايقـاع كلماتي
التي تواصـل الركض بعيدا الى الأمام من أفكاري ،
فتكشف ايقـاعي ، وذاتي ؟
مثلما ذات مرة ،
وأنا أتفرج على العدائين يأتون متناثرين الى خط النهاية ،
وقد تحمموا بالعـرق ،
حين لاحظت أحدهـم وقد ربط قطعة خيط صغيرة الى كاحله
بـلا سـبب ،
ببســاطة عن نـزوة ٠
ذلك كل شيء ٠

انها تبحث عن بطولة ، عن تضـحية ٠
ســنوات عديـدة ، وما الذي تغير ؟
أم أننـا من أجـل ذلك قد أتينـــا ــ
من أجل هذه النبوءات الصغيرة بالمعجزة الكبرى
التي لا تعرف كبرى ولا صغرى ــ لا قتـل ولا خطيئـة ؟

كل شيء هو حب شـبقي ــ
سحر وفتنة ، كما اعتادت أمي أن تقول ــ
حينما تمس أوراق المساء العريضة ، الشهوانية جباهنـا في
هـــدوء ،
والثمرة الساقطة تصـبح رســالة راسخة لا تصـل أحدا
كالدائـرة ، والمثلث ، والمعـين ٠
ويرى عقلي منشارا قديما يصـدأ في مخزن أخشاب مهجور ،
والأرقام على البيوت تزحف الى الأفق ــ ٣ ، ٧ ، ٩ ، ٠٠٠ عدد
بـلا حصر ٠٠
لكن انصـت ٠
لقـد توقفت ٠

سكون عميق ــ سكون فوق التصديق •
لا بد أن ألف حصان أسود يتحركون في غموض أعلى المنحدر
الى « تريتوس » ،
كنهر من ذهب يفيض في الجانب البعيد تجاه السهل ،
تجاه ينابيعه الجافة ــ وثكناته الخاوية ،
تجاه الحظائر حيث ما يزال يرسل الدخان
مع الدفء الأبدي لحيوانات وكلاب غائبة وذيولها بين أرجلها
تختفي كبقع حبر في أعماق الليل الوامضة •

أخيرا ، رحلت •
هذا الصمت عجيب ــ انعتاق •
انظر كيف تخلف ظلال الحشرات الهاربة
آثارا دقيقة من رطوبة على الجدار ،
أجراسا دقيقة سترن بعد دقائق قليلة •
وذلك الوهج الأرجواني في البعيد ، كشيء مريب :
القمر شعلة نار صغيرة ، وحيدة بعيدا وراء الأشجار ،
والمداخن ودوارات الرياح بالبيوت
التي تلتهم القراص الكبير والجرائد القديمة ،
لتخلف وراءها قبولها ــ
بحياة بلا أمل ، بلا انتظار ،
بعبث قابل للاثبات :
تمجيد قريب يمتد الى البراري التي لا تجفل ، الى حافة الطريق
والوميض الشبحي القاسي لقطة ما •

حينما يظهر القمر ، تغوص البيوت في السهل الى أسفل ،
وتصدر سيقان الذرة صريرا مع الصقيع ، أو قانون التكاثر ،

وتلتمع جذور الأشجار المطليـة بالأبيض كالأغمدة ،
المحصـودة فى حرب صامتـة ،
وتعلق الشـارات فوق الدكاكين الصغيرة المغلقـة ،
كنبوءات شهدنـا تحققها ٠

لا بد أن المزارعين كلهم ــ الآن ــ نائمـون ،
وأياديهم الضخمة مسـتقرة على بطونهم ،
والطيور ــ بمخالبها الصغيرة ــ تقبض ، فى ارتخـاء ، على
غصـن فى نومها ،
كأن الاستمرار لا يحتاج الى مجهود ،
كأن المجهود لا شىء أبـدا ،
كأن شـيئا لم يحـدث ،
ولا شىء على وشـك الحـدوث ــ
هكذا بخفة بالغة ، تبدو السماء كما لو دخلت أجنحتها ،
كما لو ان شخصا ما يسير فى ممر طويل بمصباح فى يده
وكل نوافـذه مفتوحـة على آخرهـا ،
بينما فى الخارج ، فى الساحة، ترعى الماشية فى سلام كامل،
كما لو خـارج الزمن ٠

أحب هذا الصمت الشـافى ٠
فى شرفة قريبة ، امرأة تمشط شعـرها الطويـل ،
تفرده بجانبها ، ومخاوفها الداخلية تتنهد فى ضوء القمر ٠
يصبح العـالم سـائلا ، زلقـا ، مرحـا ٠
الأباريق الكبيرة فى الحمامات تصب الماء فوق أكتاف وصدور
الفتيـات ،
والصابونة الصغيرة المعطرة تنزلق على القرميـد ،
تنبثق الفقاعات خلال أصوات الماء والضحك ،
تنزلـق امرأة وتهوى ،

وينزلـق القمر من ضـوء السـماء ،
يصـبح كل شيء زلقـا بالصـابون ،
ولا يمكنك أن تمسك به ، ولا ــ حتى ــ بنفسك :
هذا الانزلاق والسقوط العاجز هو الإيقـاع المتوالد للحياة :
تضحك النساء وتسقطن بيضاوات كأبراج من رغوة، بلا وزن
فوق الأحراج الصغيرة لأفخاذهن ٠
هـل تشـبه السـعادة ذلك ؟

ان بقاءنـا هـنا هذه الليـلة يضعنى فى موقف بين بين ٠
وبالكاد يمكننى التمييز :
هناك ــ ربما ــ أقنعة كبيرة مهشمة ، وزخارف من حديـد
وصـندل الميت يتوه فى الرطوبـة ،
يتحرك من تلقاء نفسه كأنه يمشى بلا أقدام لا تمشى :
والشبكة الكبيرة فى حوض الاستحمام ــ من الذى نسجها ؟ ــ
عقـدة عقـدة ، سوداء ، لن تحل ــ لم تكن أمى ٠

ظـل بلا حـدود ينتشر فوق القنـاطر ٠
حجر يتقلقل ويهوى أسـفل واجهة الجرف ــ
لكن لا أحـد كان يسـير هـناك :
ثـم لا شيء ٠
ومن جديد ، غصن ينكسر تحت أوهى ثقـل للسـماء ،
وضفادع صغيرة تقفز بـلا صوت فى رشاقة خـلال العشب
الميلـول ٠

سـكون ٠
فـأر رمادى يسـقط فى الآبـار ويغرق ،
وسط الأشكال البطيئة ، المتخثرة لدائرة البروج ،

هناك يرمون ببقايـا المآدب من الأباريـق والكراسى وأكواب
النبيـذ والمرايـا ،
وعظام الخيوانات والقياثر ، وكلمات الحكمة ٠
ولا تمتـلىء الآبـــار أبـــدا ٠

شىء ما يشبه أصابع اللهب والندى يمر ـ متعاقبا ـ خـلال
صـــدورنا ،
يرسم دوائر حول الحلمة مثلما حول ضحيـــة ،
ونحن أنفسنا منطلقون ، دائـرة فوق أخـرى ،
حول مركز غامض فوق الادراك ، لكنـه راسـخ :
لوالب لا نهائية حول صرخـة كظيمـــة ،
جـرح من ســكين ،
والسكين ، فيما أظن ، مغروسـة فى قلبنـــا ،
لتصـبح المركز ،
كالوتـد فى منتصف سـاحة الدراس ، على التـل ،
والأحصنة ، والقمح ، والفوانيس ، والبغالـة ، والحصادون
يستلقون أمام أكوام التبن ، والقمر يريح رأسه على أكتافهم ،
وهم يستمعون الى الأحصنة تصهل عند حدود النوم ،
الى الثور وهو يبول على الصفصاف والشجيرات ،
الى الخطوات الألف لـ « أم أربع وأربعين » على الصرير الخزفى،
الى الأفعى الكسولة وهى تزحف على بطنها خلال أجمة الزيتون،
الى صوت الأحجار التى ألهبتها الشمس وهى تبرد وتنكمش ٠

هناك كلمة صامتة عن الحب ، موصدة ـ أبدا ـ فى أفواهنا،
كحصاة أو مسمار ناتىء فى صندلنـــا :
لا نكلف أنفســنا عنـــاء التوقف وخلعـه ،
أن نحـل السيور ، فنتـأخر :

نحن أسرى الايقاع اللاواعى للرحلة فيما وراء الوجع الأليم
للحصاة ،
فيما وراء ما يلح على تذكيرنا بتعبنا ، وارجائنا ٠
ولربما نحس – حتى – ببعض الوهن ينخس الابتهاج
حين نتذكر أن الحصاة من شاطىء نكن له محبة خاصة ،
تمشية سارة ، مفعمة بالأفكار المضيئة والصور المتثالة ،
ونحن نستمع الى هذر التجار فى مقهى الشاطىء ،
والى أغنية البحارة ، وأغنية البحر :
أبعد ، أبعد ، مفقود ، أقرب ، غريب ، ملكنا ٠

لقد توقفت ، تلك المرأة البائسة ٠
وتلتمع جذور الأشجار المطلية بالأبيض كالأعمدة ،
كأننى أستطيع أن أسمع حقيقة كلماتها في صمتها –
مباحة فى غضبها ، مقهورة ،
وشعرها يسقط على كتفها فى مرارة كزهور جنائزية –
مكفنة فى صدقها الهزيل ٠
ربما تكون – الآن – نائمة ، ربما تحلم ببلد بلا خطيئة ،
بماشية أليفة ترعى وسط بيوت مطلية بالأبيض ،
وشذا الورود والخبز الساخن ٠

لا أعرف السبب ،
لكننى فكرت – فحسب – فى تلك البقرة
التى رأيناها هذا المساء فى السهل الأتيكى – هل تذكرها ؟
متحررة من النير ، وقفت تحملق فى البعيد
وريشتا البخار من منخريها تضببان أرجوان الغروب، وذهبه،
وبنفسجه ٠
صامتة ، تتحمل جراحا جديدة فى ضلوعها وظهرها ،
علامات للضرب على وجهها ،

كأنها جاءت لتعرف الطاعة والعصيان ـ
فالعناد والحقد يوجدان متوافقين .

لقد وازنت أثقل جزء من السماء بين قرنيها : مثل تاج .
ثم خفضت رأسها لتشرب من الجدول ،
ولسانها المتخثر يلعق ذلك السائل الأبرد من صورته السائلة ،
كأنها بهذه الملاطفات الرحيبة ، الأمومية ، المحتومة ،
تلعق ـ فى سكينة ـ جرحها الداخلى ، من الخارج ،
كأنها تلعق الجرح العميق ، الدائرى ، الصامت ، للعالم ـ
فربما يرتوى عطشها .
من يدرى ، فربما لا يروى عطشنا غير دمنا .

وحين رفعت وجهها عن الماء .
دون أن تمس شيئا ، أو تمس
مهيبة كقديس ، رفعت بين القائمتين الأماميتين الراسختين فى الماء
بحيرة قرمزية ، صغيرة ، دائمة التحول ـ دما من شفتيها ـ
كخريطة للعالم تنتشر وتتلاشى تدريجيا ،
متبددة كأن الدم قد انسرب الى شريان أرضى ، خفى ،
ليتحرر أخيرا ، أبعد من الألم :
وكان أن عثرت هنا ـ بالتحديد ـ على سكينتها ،
كأنها عرفت أن دمنا أبدا لا يهدر ،
أن لا شىء أبدا يهدر ، لا شىء ،
أن لا شىء قد أهدر فى هذا اللا شىء العظيم القاسى ، بلا عزاء ،
وغير المتكافىء فى النهاية :
فادح العذوبة ، فادح العزاء ـ فادح العدم .

فى ذلك تكمن لانهائيتنا الانسانيـة ٠
فلأى هدف ـ اذن ـ لهائنا ، والحاحنا ، ومجدنـا ؟
بقرة مشابهة تتبعنى كظلى ـ غير مربوطـة ٠
تأتى معى من تلقاء ذاتها ،
هى ظـلى على الطريـق حين يظهر القمر ،
ظـلى فى غرفـة مغلقـة ٠
ولا تنسى أبـدا :
فالظـل ناعـم ، بـلا جسـد ،
وظـلا القرنين يمكن أن يتحولا بسهولـة
الى جناحين مدببـين ليرفعاك فى الطيران ـ
كأن هنـاك طريقـة أخرى لعبور البـاب ٠

ورغم أن ذلك غير هام، على نفس النحو، فاننى أتذكر عينيها :
عينين مظلمتين ، واسعتين ، بلا بصر ،
مسـتديرتين كتلين صغيرين من ظل أو زجاج أسـود ٠
وكان هنـاك برج كنيسة ينعكس على الزجاج بلا وضـوح ،
مع طيور « الزاغ » الجاثمـة على الصليب ،
آنئذ ، صاح شخص ما ، ففرت الطيور من عيون الحيوانات ٠
كانت البقرة ـ كما أظن ـ رمز احدى الديانات القديمة ٠
لكن مثـل هذه الأفـكار ، وهذه التجريـدات ـ
لا تعنى لدى شـيئا ٠
بقرة عادية مهمتها لبن الفـلاح ، والمحراث ،
مع كل حكمة عملها ، والصبر ، والفائـدة ٠
ومع ذلك ، ففى نفس اللحظـة الأخـيرة ،
قبيـل أن تبـدأ الحيوانات فى العودة الى القريـة ،
استدارت الى الأفق وخارت بصورة تدعو الى الرثـاء
تبددت الغصون القريبة ، والعصافير والسنونو ، والأحصنة.
والأغنام ، والمزارعون ،
ليتركوها وحيدة ، وسط دائرة جرداء

انبثقت منها الكواكب اللولبية فى أعماق الفضـاء ،
الى أن تلاشت البقرة نفسها ، هبطت ٠٠٠
لا ، لا ــ أظن أنها كانت هنـاك فى القطيـع ،
صامتة ، طيعة ، تشق طريقها فى الممر المعشب نحو القرية ،
والذى كان ــ فى تلك الساعة ــ يضىء مصابيحه فى ساحات تخفيها الأشـجار ٠

انظر ٠ شروق النهار ٠
الديك الأول يصـيح من وراء الأسـيجة ٠
يقظة البستانى : ربما يسـند شجرة فى الحديقة ٠
وهذه الأصوات المألوفة الحميمة لأدوات العمال :
المجارف والمنـاشير ، حنفية مفتوحـة فى الساحـة ، شخص ما يغتسـل ، روائح التربـة ٠
ماء القهوة يغـلى فى البراد ،
نسيج ناعم من دخان فوق السطح، والأريج الدافىء للمريمية٠
هكذا ، عشنا ليـلة أخرى ٠

تعال ، ساعدنى فى رفع هذه الجرة التى تضم رمادى المزعوم ــ فمشهد التمييز على وشك الابتـداء ٠
سيعثرون فى على الرجـل الذى ينتظرونـه ،
سيعثرون على « الرجل الحق » ، حسب قوانينهم ،
ونحن وحدنا اللذان سنعرف أن هذه الجرة
تضم ــ فى الحقيقة ــ رمادى ، رفاتى الحقيقى ٠
ووسط احتفال الناس بالصنيع الذى قمت به ،
سيكون لنـا ــ نحن الاثنين ــ أن نبـكى على السيف اللامع ، المجيـد ، الدامى ،
نبكى هذا الرماد ، الذى كان ــ ذات يوم ــ لهذا الرجل ،
الذى يواجـه ــ فى مكان ما ــ رجـلا آخر ،

وجلد وجهه الممزق يختفي تحت قنـاع من ذهب ـ
قناع طاهر ، كريـم ، وربما ـ حتى ـ مفيد ،
في شكله المنحوت الخشن ، كرمز أو تمثال ، كمخدر للشعب،
صورة للرعب من الطاغيـــة :
تدريب يدفـع التاريـخ الى الأمـــام ـ
مهما يكن ببطء ، وخراقـة ـ مع كل انتصار وموت متتابع ،
لا بأدوات أي وعي جديد رهيب (غير متاح للجماهير) ،
لكن من خلال بعض الأعمال الصعبة ، والايمان السهل ـ
ايمان صارم ، اجباري ، وبائس ، معقود ألف عقـدة ،
حيث يتشبث به الكثيرون بأسنان وأظافر روح الانســان ـ
ايمان جاهـــل يمكن ـ كالنملة ـ أن يجترح معجزات تحت
غطاء الليـــل .

وأنا ـ غير المؤمن ـ قد اخترت هذا الايمان
(طـالما أنهم لا يختارونـــني)
لكنني أفعـل ذلك عن وعي .
أختـار معرفـة وفعـل الموت الذي يهذب الحياة .
فلنمض الآن ، لا من أجـل أبي أو أختي
(لا بـد أن يجيء الوقت لأودعهم) ،
ولا من أجـل الانتقـام ، من أجـل الكراهيـــة ،
ولا ـ حتى ـ باسم العقـاب (من يعاقب من ؟) ـ
ربما ـ فحسب ـ من أجل استكمال برهـة وقت ما ـ
ذلك ـ على الأقـل ـ يظـل اختياريا ـ
ربما ـ فحسب ـ من أجل انتصار بلا معنى على خوفنا الأول
والأخـير ،
أو من أجل نوع ما من « نعـم » ، التي ستشرق غامضـة ،
بـلا فســاد ،
فيما أبعد من كل منـــا ،
على أمل أن تساعد هذه الأرض على التنفس .
انظر كم هي جميلة هنـاك في الشرق .

يمكن أن تكون رطبة قليــلا فى الصباح البــاكر فى الأرجو ـ
والجرة مثلجة تقريبــا ، تلتمع بقطرات قليــلة من النــدى
كأن الفجر ذا الأصابع الوردية ، كما يقولون ، قد نضح عليها
دموعـــا ،
وهو قــابض عليها بـين ركبتيـــه ٠
فلنمض الآن ٠
فالساعة الموعودة قد حلت ٠
لماذا تبتسم ؟ هــل اتفقنــا الآن ؟
أكان ذلك لأنك كنت تعرف كل شيء ، دون أن تتكلم ؟
هذه الخاتمة العــادلة لصراع أكثر عدالـــة ؟

فلتسمح لشفتى أن تقبــلا ابتسامتــك هذه المرة الوحيــدة
الأخـيرة ،
الآن حيث لا يزال لدى شـفتان ٠
فلنــذهب بها ٠ فمصيرى الآن واضـــح لى ٠
هيـــا بنـــا ٠

(حينما وصلا البوابة ، تنحى الحراس كأنهم كانوا يتوقعونهما ٠ فتح حارس البوابة العجوز الباب الكبير، مطأطئــا رأســه فى احترام كالترحيب ٠ وسرعــان ما تصاعدت ـ من الداخل ـ آهة ثقيلة لرجل ، تلتها الصرخة المفاجئة الأليمة لامرأة ٠ ومن جديد ، سكون عظيم ، لم يكسره سوى طلقات الرصاص المتقطعة من الصــيادين فى السهل ، وزقزقــة الخضيرى والدورى الطنــان والشــحرور والقبرات غير المرئيــة ٠ طيــوز السنونو تنعطف ـ فى حــدة ـ على الجنــاح الشمالى للقصر٠ خلع الحراس ـ بلا حراك ـ قبعاتهم ، ومسحوا

الشريط الجلدى الداخلى بأكمامهم . وبعد لحظة ، انبثقت بقرة ضخمة تحت قوس بوابة الأسد ، وعيناها الكبيرتان الساكنتان الفاحمتان تحدقان عميقا فى سماء الصباح) .

بوخارست ، أثينا ، ساموس ، ميسيناى
يونيو ١٩٦٢ - يوليو ١٩٦٦

١٨ غنوة عن الوطن المرير

* اعـادة تعميـد

كلمات بائسة تلك التى تعمدت من جديد فى المرارة والعويل
لتثمر أجنحة وتبدأ فى الطيران ، كطيور تبدأ فى الزقزقة .

أما هذه الكلمـة ، الأكثر تفردا ، الكلمة السريـة للحريـة
فانها ـ بدلا من الأجنحة ـ تنبت السيوف وتمزق الريح اربا.

* حديث مع وردة

بخور مريم، وردة بخور مريم صغيرة داخل شق صخرى عميق
أين وجدت الألوان لتزهرى ، من أين الساق لتتماوجى ؟

داخل الشق ، قطرة قطرة ، أنسـج الدم الذى ظللت ألملمه
منديلا ورديا ، وألملم ـ الآن ـ الشمس .

* الانتظـار

أصبحت الليالى طويلة طويلة بكل هذا الانتظار الذى لا ينتهى
حتى أن غنوتنا مدت لها جذورا وكبرت بطول شـجرة .

وأولئـك المقيدون فى أغـلال من حديد وأولئك البعيدون فى
المنفى
يحاولون أن يطلقوا تنهيدة مريرة ـ فتنبت ورقة حور .

* الشعب اليوناني

كثيرا ما يواصل اليونانيون القتال بدون سيوف أو رصاص
من أجل شعوب العالم ، وخبزهم ، وأغنيتهم ، وضوئهم .

تحت لسانهم يحتفظون دائما بالعويل والهتاف
واذا ما بدأوا في الغناء عنهم ، فستتشق أغنيتهم الصخور .

* طقس جنائزي

الجد يقف في ركنه ، وعشرة أحفاد في الركن الآخر
وعلى المنضدة رغيف خبز ، مع تسع شمعات فوقه .

الأمهات يمزقن شعرهن ، والأطفال محتفظون بهدوئهم
ومن النافذة تنظر « الحرية » وتنوح .

* فجر

عظيم في البهاء ومترع بالشمس ، الفجر الرهيف للربيع
لكن أين من له عينان لينظر اليك ، ومن هناك ليحييك .

في موقد البخور جمرتان وبضع حبات بخور
وصليب أسود ، مرسوم بالسبناج ، على عتبة باب وطننا .

* غير كاف

متواضع وبليغ لكنه يرى بضع كلمات على الأرض
يظنها ظل طائر صغير وظل الأعالي .

هل يعلن ذلك ، وما الفائدة ، فالسباب وحده لا يكفي .
آه ، بلا عمل تتعلق بندقيته الحزينة في شجرة الكمثرى البرية .

* يــوم أخضر

يوم أخضر ، يتلألأ فى الشمس ، منحدر جميل لتــل منسوج
من أجراس وثغاء الماشــية ، من آس وخشخاش ٠

الفتــاة تنســج أشــياء المهر ، والشــاب يجــدل الســلال
وقطعان الغنم على طول الشاطىء ترعى الماج الأبيض ٠

* طقــس ديـــنى

تحت أشـــجار الحــور سرب طيــور وقباطنـــة متمرديــن
يبــدأون معا طقســا دينيــا مع مايو الجديـــد ٠

الطابــق الأرضى للوطن تضــيئه أوراق الأشــجار كالشموع
ونسر كبير يقرأ ــ من أعلى ــ الأناجيــل ٠

* المـــاء

ماء قليــل من الصخرة ، تطهر بالصمت
وبسهر الطائـــر ، وظــل الدفــلى ٠

يشربــه المطاريد فى السر ويرفعون أعنــاقهم عاليـــا
تماما كالعصافير ، يباركون اليونان ، وطن الفقراء ٠

* نبـــات بخــور مريــم

طائر صغير ، وردى اللون ، مربوط بخيــط نحيــل
وبجناحيــه الصغيرين الملتويين يرفرف تحت الشمس ٠

اذا ما نظرت اليه مرة واحدة ، فسيبدأ فى الابتســـام
واذا ما نظرت مرتين أو ثلاثا ، فستنطلق فى الغنــاء ٠

* فتيــات نحيــلات

فتيات صغيرات نحيلات بامتداد الشــاطىء يجمعن الملح
ممرورات ، محنيــات ــ لا ينظرن الى المحيــط ٠

هناك فى الخارج ، شراع ، شراع أبيض أبيض يومىء اليهن من
الزرقـــة
وعندما لا ينظرن اليه ، ينقلب الى أسود من الأسى ٠

* الكنيســة البيضــاء

الكنيسة البيضــاء ، على المنحدر ، التى تواجــه ــ مبــاشرة ــ
الشمس
تطلق الرصاص من خلال نافذتها الضيقة والقديمة ٠

وجــرسها المربــوط عاليـــا ، أعلى من أطول شــجرة دلب
يستعد طوال الليل ليدق احتفالا بعيد « الشعب المقدس » ٠

* تــذكار

الشــبان الشجعان سقطوا فى المعركة ، محافظين على رأســه
مرفوعـــة
لن يهال عليها الطين ، لن يمسه أبــدا الدود ٠

الصليب فى عنقــه كجناحــين ، وما يزال يندفـــع عاليـــا
ينضـــم الى نســـور قويـــة هناك والى ملائــكة من ذهب ٠

* هنـــا الضـــوء

هذه الكتل الرخامية الناصعة البياض لن يلوثها أى صدأ قبيح
ولا يمكن ليونانى أو لريــح وحشية أن تقيــد من كاحلها ٠

هنا الضوء ، هنا البحر ـ ومضات ذهبية وزرقاء فاتحة ،
وعاليا على الصخور ينطلق الدب حرا، محطما الأغلال الحديد.

* تزايـــد

كيف للبيت أن يبـنى ، من سيركب الأبواب فى أماكنها ،
طالما أن الأيـدى العـاملة هنـا قليلة ، والأحجار ثقيـلة ؟

فلتصمت ، فالأيدى ستزداد ـ أثناء العمل ـ عددا وقوة
ولا تنس أن الموتى أيضـا يقومون بالمساعدة طوال الليـل .

* ضمـــان

صامتـة هنا كل الطيور ، والأجراس أيضا صامتة
وصامت اليونانى المرير وجميع موتـاه حولـه .

وعلى هذا الصمت ، كما على صـخرة ، يسن أظـافره ،
وحده ، بلا مسـاعدة ، نحو حريـة مضمونة أبــدا .

* من أجل روميوسينى لا تبكوا

لا تبكوا من أجل روميوسينى : عندما يلتف على عنقها الطوق ،
والسكين تدنو من العظم ، على حافـة الاحتضار ،

فهنا سوف تثب ، مبتدئـة من اللا شىء ، الى القوة والعنفوان
وتطعن الحيوان الوحشى بشمس كأنها حربـة .

★★★

* معنى البساطة

أتخفى وراء الأشياء البسيطة كي تعثروا علي ،
وان لم تعثروا علي فستعثرون على الأشياء ،
ستلمسون ما لمسته يدي ،
وتمتزج بصمات أيدينا .

قمر أغسطس يتوهج في المطبخ
مثل قدر مطلي بالقصدير
(أخذ هذ الشكل بسبب ما أقوله لك) ،
يضيء المنزل الخاوي والصمت الراكع للمنزل ـ
دائما ما يظل الصمت راكعا .

كل كلمة باب للقاء ،
لقاء من ليس في الحسبان ،
ذلك حين تكون الكلمة صادقة : حينما تتمسك باللقاء .

* جوع

انقضى الليل بفمه الملئ بماء أخرس .
في الصباح ، أشرقت الشمس مبلولة على الخطوط المتعرجة .

ظلال الوجه ، ظلال الصارى ، الرحلات ـ
رأيناهم واضحين ـ وجوعنا لم يشبع .

كان شخص ما يصيح وراء الجبل ،
وشخص ما آخر وراء الأشجار ، وآخر من جديد ،
ومن جديد الامتداد الأقصى للغروب ـ
أين يجب أن نجرى ، أى طريق أولا ؟
هل يمكن أن نكون الأشخاص الذين كانوا يصيحون ؟
والجبال تصبح أكبر وأكثر حدة
مثل أسنان الشخص الجائع .

* وجه

وجه صاف ، صامت ، وحيد تماما
مثل وحدة كاملة ،
مثل انتصار كامل على الوحدة .
هذا الوجه ينظر اليك بين عمودين من ماء ساكن .

وأنت لا تدرى أى الاثنين يستحثك أكثر .

* صيف

النوافذ الأربع معلقة تنظم رباعيات
عن السماء والبحر فى الغرف .
شجرة خشخاش وحيدة
ساعة فى معصم الصيف ،
تعلن الثانية عشرة ظهرا .

وهكذا تحس بشعرك تقبض عليه أصابع الشمس
لترفعك حرا فى الضوء الريح ٠

*** ربما ، ذات يوم**

أريد أن أريك هذه الغيوم الوردية فى الليل ٠
لكنك لا ترى ٠ انه الليل ـ
فماذا يمكن للمرء أن يرى ؟

الآن ، لا اختيار عندى سوى أن أرى بعينيك ، قال ،
وبذلك ، لا أكون وحيدا ، لا تكون وحيدا ٠
وفى الحقيقة ، لا شىء هناك فى الأعلى حيث أشرت ٠

وحدها النجوم تزاحمت معا فى الليل ، متعبة ،
كهؤلاء العائدين ـ فى عربة نقل ـ من نزهة ،
محبطين ، جائعين ، لا يغنى منهم أحد ،
بزهور برية ذابلة فى أيديهم الغرقانة ٠

لكننى أصر على الرؤية وأن أريك ، قال ،
لأنك ان لم تر أنت أيضا ، فكأننى لم أر ـ
سأصر ، على الأقل ، على ألا أرى بعينيك ـ
وربما ذات يوم ، من اتجاه مختلف ؛ سوف نلتقى ٠

*** اكتفاء ذاتى ؟**

الصباح الخاص حمل الشمس على ظهره
وهو يتسلق التلال الأتيكية
كشاب يحمل أكورديونه ٠

انقضـت الليلـة الأخـيرة بمتعتها ،
وبخـوفها من متعتها .
انقضى أيضا ذلك الحزن الذى لم يأمل فى انتهائه .

أشجار الصنوبـر ، والشمس ، والنوافـذ _ هنـاك .
تحت الأشـجار كرسـيان . لماذا هما اثنـان ؟
آه ، نعم ، واحد لتجلس عليه ، وواحد لتمدد رجليك .

* اتفـاق نهائى

عندما ضرب المطر زجاج النـافذة بأحد أصابعه ،
انفتحت النـافذة الى الداخـل .
أهو صوتـك ؟
صوتك تشـكل فى أذنيك .
وفى الطرف البعيد هنـاك وجـه ، وصوت مجهول _
فى اليوم التالى ، زحفت الشمس الى الحقول ،
مثـل نزول الفـلاحين بالمناجـل والمذارى .
وخرجت الى الطريـق تصـيح ،
دون أن تدرى علام تصـيح ،
لتتوقف برهـة وابتسامة تحت صوتك ،
مثلما تحت المظلـة القرنفليـة ، المشرقـة
لامرأة تتمشى بامتـداد سـياج حديقـة .
هناك ، أدركت _ فجأة _ أنه كان صوتك الحقيقي
متوافقا مع كل الأصوات غير المتشككة
التى تملأ الهواء .

* اعـادة تشـكيل

ما تسميه سـلاما أو انضباطا ، شفقة أو لامبالاة ،
ما تسـميه فما مغلقـا على أسنان مطبقـة ،

لتشير الى الصمت العذب للفـم ،
وهو يخفى الأسـنان المطبقـة ،
هو ـ فقط ـ الاحتمال الصبور للمعدن
تحت المطرقـة النافعـة ،
تحت المطرقـة الرهيبـة ـ
هو معرفتك بأنك تنتقل من اللاشكل الى الشـكل ·

* فجـاة

ليلـة هادئـة · هادئـة ·
وقد توقفت تنتـظر ·
كانت ـ تقريبـا ـ آمنـة ·
وفجأة ، لمسـة على وجهك ، مفعمـة بالحيويـة ،
من شخص غائب · سـيأتى ·
ثم صوت المصاريع وهى تنغلق بنفسها ·
الآن ، تتزايـد الريـح ·
وأبعـد قليـلا ، كان البحر يغرق فى صوتـه ·

* سـيرك

سيرك ليـلى ، الأضواء ، الموسـيقى ،
العربـات الوامضـة بامتداد الشـارع ·
عندما تنطفىء الأضواء فى المنطقة المجاورة
عندما تلقى الملاحظة الأخيرة كورقـة جافـة ،
تبدو واجهة السـيرك
مثـل طاقـم ضخم من أسنان مستعارة
آنئذ ، تنام آلات النفخ النحاسية فى صناديقها ،
وتسمع الحيوانات تخور على المدينة ،
والنمر يحدق فى ظله ، فى قفصـه ،
يخلع مروض الحيوانات رداءه ، ويدخن سيجارة ·

وبين حين وآخر تضيء المنطقـة المجاورة
عنـدما تومض عيون الأسود خلف القضبان ·

* أصيـــل

في الأصيل سقط الجص كله، وحجارة سوداء، وأشواك جافة·
للأصيل لون صعب صنعته خطى عجوز تعرج في المشي ،
وجرار قديمة مدفونة في الباحة ، يغطيها التعب والتبن ·

قتل اثنان ، قتل خمسة ، اثنا عشر ــ كثيرون كثيرون ·
كان لكل ســاعة قتلها ·
خلف النوافذ وقف أولئك المفقودون ،
والاباريق المملوءة بالماء الذي لم يشربوه ·

وتلك النجمة التي هوت على حافة المســاء
تشبه الأذن المقطوعة التي لا تسمع الجداجد ،
لا تسمع تبريراتنا ــ لا تنزل لتسمع أغانينـــا ــ
وحيـــدة ، وحيـــدة ،
وحيـدة ، معزولـة تماما ،
لا تبالي بالادانة أو البراءة ·

* فهـــم

الأحـد · أزرار السترة تومض
مثل ضحكة متناثرة · الأتوبيس رحـــل ·
أصـــوات ســعيدة ــ
غريب أن تكون قادرا على أن تسمع وتجيب ·
تحت أشجار الصنوبر عامل يتعلم العزف بآلة نفـخ ·
وامرأة قالت صبـاح الخير لشخص ما ــ

صباح خير بسيطة وطبيعية
حتى أنك ـ أيضا ـ ستحب أن تتعلم
كيف تعزف بآلة نفخ تحت أشجار الصنوبر .

لا قسمة أو طرح .
كى تستطيع النظر خارج نفسك ـ دفء وسكينة .
لا أن يكون « أنت وحدك » ، بل « أنت أيضا » .
اضافة صغيرة ، حسبة عملية صغيرة ،
سهلة الفهم ،
الى حد أن طفلا يمكنه حلها ،
وهو يلعب بأصابعه فى الضوء ،
أو يعزف بآلة النفخ تلك للمرأة التى تسمع .

* نسخة مصغرة

وقفت المرأة أمام المنضدة .
تبدأ يداها الحزينتان فى تقطيع شرائح ليمون نحيلة للشاى
مثل عجلات صفراء لعربة صغيرة جدا
مصنوعة لاحدى حكايات الأطفال .
الضابط الشاب الذى يجلس فى المواجهة
مدفون فى الكرسى القديم . لا ينظر اليها .
يشعل سيجارته .
يده التى تمسك الكبريت ترتعش ،
وهى ترمى بالضوء على ذقنه الرقيقة
ويد فنجان الشاى .

أوقفت الساعة دقتها برهة .
شىء ما تأجل .

مرت البرهـة . فات الوقت الآن .
فلنشرب شـاينا . أيمكن للموت ، اذن ،
أن يأتي في عربـة من هذا النوع ؟
يمر علينـا ويمضي ؟
ويكون لهذه العربة وحدها أن تبقى ،
بعجلاتها الصفراء الصغيرة المصنوعة من ليمون ،
متوقفـة لسنوات طويلة في شـارع جانبي منطفىء ،
وبعدهـا غفوة صغيرة ، وضباب قليـل ،
ثـم لا شيء ؟

* نســاء

النسـاء بعيدات ، بعيـدات .
تفوح ملاءاتهن بـ « تصبـح على خير » .
يضعن الخبز على المائـدة حتى لا نشعر بأنهن غائبـات ؟
تـدرك ــ آنئـذ ــ أنـه خطأنـا .
ننهض من الكرسي ونقول :
« لقد بذلت اليوم جهدا شـاقا » .
أو « دعيـه ، سأضيء المصباح » .

عنـدما نشعل الكبريت ، تستدير ببطء ،
وتخرج الى المطبخ في احتشاد غير مفهوم .
ظهرهـا تل حزين ممرور ، مثقل بموتى كثيرين ــ
موتى العـائلة ، موتـاها ، وموتك .

وأنت تسمع خطواتها تقرقـع
على ألواح الأرضية العتيقـة ،
تسمع الأطباق تصرخ في الرف ،
ثم تسمع القطار الذي يأخذ الجنود الى الجبهة .

* لوحـة ثلاثية :

١ ـ الى أن حل الظـلام :

أمسـك بيدهـا فى يـده · لم يتـكلم ·
سمع بعيدا ، وربما داخله ،
البحر ، وأشجار الصنوبر ، والتـلال كانت يـدها ·
ان لم يقـل لها ذلك ، فكيف يمكن أن يمسك بيدهـا ؟

كانـا سـاكنين ، الى أن حـل الظـلام ·
وتحت الظـلام ، لم يكن هنـاك
غير تمثال بيـدين مكسورتين ·

٢ ـ امـرأة :

تلك الليلـة : وهى عشيرة المناك ، لم تقبـل أحـدا ـ
وحيـدة فى خوفها من عدم وجود من يقبلها ،

بخمسة أصابع من نجوم تخفى جميلة شعر بيضـاء ،
وهى جميلـة مثـل انكار ذاتها الفاتنـة ·

٣ ـ لماذا هو خطأنـا ؟

تحت لسانك بقايا رقيقة من سمك البوريل ،
بـذور عنب وأليـاف خوخ
فى ظـل رموشـك بلد دافىء ·
يمكننى أن أتمدد وأسترخى بلا سـؤال ، قال ·

ما الذى يعنيه ذلك الآن ، هذا البعيد أمامنـا ؟
لماذا هو خطأك ، فدون شك ، أن تظل وسط الأوراق ـ

جميلا ، بسيطا ، في الشكل الذهبي لحرارتك ؟
ولماذا هو خطئي أن أمضي قدما في الليـــل ،
سجين حريتي ، قال ، أعاقب المعاقب ؟

✻ ممطـــرة

موسيقى ليلـة سـبت بائسـة
تأتي من مدرسـة الرقص المجاورة .
موسيقى بائسـة ، مثلجة ، بأحذيـة خشبيـة ــ
في كل مرة ينفتح البـاب غير المطلى
تنـدفـع الموسيقى خارجـة الى الشوارع ،
ترتعش تحت الضوء ــ في الركن ،
تحدق في نافذة عاليـة أو في الليــل ،
ثم تهبط بنظرتها الى الطـين ،
باحثـة عن شيء ما ، منتظرة شيئا ما ،
كأن شخصا ما مريض ، وأبطأ الطبيب في المجيء اليـه .

موسـيقى بائسـة . برد .
لا أحـد يفتح نافذة ليقدم لك قليلا من الضوء ،
أو بعض الزبيب الأسود ،
ليقول لك : انني أذكر ــ منذ عشرين عاما أو ثلاثين ــ
بعض الأصوات من عربات قديمة في المطر ،
مشهدا طبيعيا ضبابيا مرسوما على نظارات «تيلوس أجراس» .

لكن الأحذيـة طينية ومليئـة بالثقوب ،
الأزواج يهربون الى الشارع . لا يسمعون .
رجـل يتوقف بجوار الحائط .
لا . لايسـســمعك .

يلصق شيئا ما بالحائـط ٠
والسكين وحدهـا على المائدة فكرة ، ومضة ضوء ٠

موسـيقى بائسـة ، ان استطعت أن تتوافـق
فلتـأت عبر فتحة ابـط الجوار ٠

❋ نفس النجمـة

الأسقف تلتمع ـ مبلولة ـ في ضوء القمر ٠
النسـاء يتـدثرن بالشـيلان ٠
يتـدفعن ليختبئن في منـازلهن ٠
واذا ما ترددن قليـلا على العتبـة
فسيمسـك بهن القمر صـارخا ٠

ذلك الرجل يشك في أن كل مرآة
بها امرأة واضحـة ، أخرى ، محبوسة في عريها ـ
تقريبـا كأنك تريد أن توقظها ، لن تسـتيقظ ٠
تستغرق في النوم وهي تتشمم نجمـة ٠

ويستلقي يقظانـا وهو يتشـمم نفس النجمـة ٠

❋ نتيجـة

هذه النافـذة وحيـدة ٠
هذه النجمة وحيـدة ٠
كسيجارة منسـية على المنضـدة ـ
تدخن ، تدخن في الزرقـة ، وحـيدة ٠

وأنـا وحيـد ، قال ٠
أشـعل سيجارتى ، أدخن ٠
أدخن وأفكر ٠ لست وحيـدا

* ننتظـر

ببطء يحل الظـلام حولنـا ٠ لا نستطيع النوم ٠
ننتظر الصباح ٠ ننتظر الشمس
أن تضرب صفيح السقيفة مثـل شاكوش ،
أن تضرب جباهنـا ، وقلوبنـا ،
أن تصـبح صوتنـا .
وأن يصـبح الصوت مسموعـا ـ
صوت مختلف
لأن الصمت ملء بطلقات البنادق من أماكن مجهولة ٠

* هـل تسـتطيع ؟

رأينـاه يركـع فى أقصى الأوضـاع عموديـة ،
ينفخ تحت القـدر النحاسى الضخم
ليطعم النـار باستهلاك نـاره ٠
نافـد الصبر ، وهو ينفـخ بقـوة ،
يكبحه جلده ، عاجزا عن التـلاؤم داخلـه ٠

ارتعش الضوء فى الأفـق
عنـدما انفتحت عروقـه وانغلقت ٠
من نبضه انتفـخ لحـاء الكروم
ودفـع الأوراق الجديدة مدومـة بلا حركـة ٠

هكذا ، منحنيــــا ،
أنفق نفســه من أجـل أن تظـل منتصبين ،
أنت وأنا ، دون أن يفكر ـ مرة واحـدة ـ
أننـا مدينون له ، ذات يوم ، بشيء ٠

كيف ـ اذن ـ يمكنك أن تظل منتصبا ، على الأقـل ؟

❋ الشـكر

لن تقول شـكرا لى ،
مثلما لا تقول شكرا لدقـات قلبـك
وأنت تنحت وجـه حياتـك ٠

لكننى سأقول لك شـكرا
لأننى أعرف دينى لك ٠

هذا الشـكر هو أغنيتى ٠

★★★

* نقاهة الطفولة

فلنغلق أعيننا برهة
ليمكننا أن نسمع الأم وهي تغسل الأطباق في المطبخ
ليمكننا أن نسمع السكاكين والشوكات وهي تسقط في الدرج
ليمكننا أن نسمع حفيف ثوبها في الممر
وابتسامة السيدة العذراء تطوف بحاجز الأيقونات .

في الغد لن نكون مرضى بعد : انظر في الترمومتر .
ما يزال دافئا من ابطنا . .
أبانا الذي في السماء
فلتقل لابنة عمي الصغيرة أن تأتي غدا
كي نستطيع أن نقوم بنزهة قصيرة في الغابة مع الأيل .

سأجمع لوزا طازجا لها .
أيل أزرق سيأتي ، يا أبانا ،
لنستطيع النوم
أيل أزرق أزرق
يا أبانا
الذي
في السماء .

* تـأخير

متأخرون دائما • وساعتنا أيضا مخطئة • بطيئة •
نبحث عن مقعـد فى الظـلام ،
مثـل تلك المرة فى نهاية المسرحيـة
ـ مر وقت طويـل من العرض ـ
ونحن نسقط على ركبنا فى الممشى وفوق المساند الخلفية •
وفجأة يضيئون الأنوار وسط التصفيق •
ونحن واقفون ، ما نزال نبحث ، كأنهم يصفقون لنـا
نحن من لا نسـتحق •
انتهينـا الى أول مقعـد
ونحن ندوس على أقدام عجوز قبيحة •
لم تصرخ •

* تبـديد

بددنـا نظرات ، وكلمات ، وحركـة •
فى الظهيرة سنحدق ـ نحو البحر ـ فى خسارة ما
بين أصوات زيز الحصاد ، بين الأوراق ـ
نظرات مبعثرة كى لا نرى ما بأيدينـا •
فى المساء أخفت العتمة ظلالنا المتناثرة •
مقعد خشبى ، طويـل ، ضيـق
مع قمصان رياضيـة ليست للبيـع
منتصب خارج الطريق فى الميدان المجاور •
فاح الميدان برائحـة شموع منطفئة •
ما من ذريعـة أخرى لنـا
غير الاستماع الى فواق نجمـة خلف البـاب •

* نمط الاكتساب

أيا ما كان ما تمسكه في يدك
بكل هذا الحرص ، بكل هذا الحب ،
مهما كان ـ بكامله ـ ملكا لك ، يا رفيقي ،
فعليك بالتخلي عنه
ليمكن له أن يصبح ملكا لك .

* حنان منسي

كانت الجدة امرأة طيبة ، كانت هادئة .
بجانب عينيها كانت هناك تجاعيد دقيقة كثيرة
كتجاعيد مفارش الشاي المطرزة بعناية .
كان لها أيضا قلب خفيف
مثل حقيبة صغيرة ملأى بالقطن .

رحلت الجدة .
ربما ذهبت لتغزل قطنها على حافة مستوقد الليل العظيم .
لكن كيف أمكن للجدة أن تخرج من المنزل ، وفي المطر ،
بل وحتى دون أن تأخذ شالها الصوفي ؟

الفتاة الصغيرة تبكي في كرسي المدخل .
المطر الخفيف يبكي أيضا على سلالم كنيسة « الكوميتوس » .
لم يبك أصغر الأحفاد ، وهو يرى كم هو جميل
أن يبكي المطر والسلالم والكرسي والفتاة الصغيرة جميعا
على الجدة الصغيرة التي تنسج الآن صوفها الخفي .

* كسل

جلس وحيدا في ظلام الغرفة يدخن .
ما من شيء كان يرى .

وعضة سيجارته وحدها تحركت ببطء ، بين حين وآخر ، باحتراس ، كأنه كان يطعم فتاة مريضة بملعقة من فضة ، أو كأنه كان يداوى جرح احدى النجمات بمبضع صغير .

* أيـدى

كثيرا ما تشبه الأيدى الوجـوه أو الأجساد بكاملها .
هذه الأيدى تبـقى كسولة فى الربيـع المبتسر ،
تعطس ، تكح ، تشكو ، تصمت ،
كعجوزين على كرسيهما ، وأزرارهما مفتوحـة ،
بأعضائهما التناسـلية الذابلة فى الشمس .
فى المواجهة ، امرأة ترضـع طفلها .
ويداهـا ، برغـم سـكونهما ، عداءان عاريـان
فى حلبـة شاسعة من رخـام .

* تقويـم مكتبى

شهور على شهور ، أسابيع ، أيـام ـ عام غير معروف .
أبريل بنظارات قصر النظر على دكة الحديقـة .
يوليو يمنعك من النوم وحيـدا .
سبتمبر يتـذكر المنـازل المغلقـة ـ
وردتان من ورق ومشط بأسنان كبيرة على المنضـدة .
فى نوفمبر يحمل رجـل ما حجرا على ركبتـه .
يناير ، فبراير ـ الجميع ذهبوا الى الخـارج
ملامح اليـأس من الريـح
فى واجهة البـاب الزجاجى للفنـدق المغلق .
ثم تظهر خادمـة النهار الصـامتة فى الفجر
بممسحة كبيرة لتنظيف النوافـذ .

* ليـــل

الليــــل يعريك . يـداه ترتعشــان .
عاريـــا تماما ، يلتمع جسـدك فى الظـــلال .

ذلك الصفر الحكيم الذى اعتصر رقابنـــا
ينقســم فجأة نصفين
كبيضـة مسلوقـــة تنشطر بسـكين .

* نقطـــة

هديـر عميق يطن حـول كل نجمـــة .
قوة ما سريـة ، محزنـــة
أعتمت الأشـــجار .
نقطـة الجذب الوحيـــدة فى العتمـــة :
دوائر ضوء لمدة دقيقتين ،
وركبتـــا المرأة الصامتـــة .

* اقتصـــاد

لا أريـــد أى شىء ، قال .
انــه يشــبه ذلك تمامـا .
فما يرى طوال الخريف كله
غير النوافـــذ المغلقـــة لبيت المســـنين .

ذلك الحبل الذى استخدموه فى ترويض الحصان
مرمى الآن وحيـــدا حـول جــذع الشــجرة .

* الوحيـــد

ذلك الذى توقعوه ـ لبعض الوقت ـ لم يحدث .
في الشرفـات ، أنزلوا الأعـــلام .
الجدران تفوح ـ بقوة ـ بالغربـــة .
السند الوحيد ـ الآن ـ هو الافتقار لأى تبرير .

* نفس الشـوكة

وقف الليـل في مواجهتنــا ،
تماما كواجهة لدار أيتام من طابقين ، مغلقة النوافـذ .

فى اليوم التـالى ، أخرجت امرأة ـ تحت الأشجار ـ
شوكـة من باطن قـدمها ـ

نفس الشوكـة التى ندوسها كل يـوم .

* مؤكـد ـ غير مؤكـد

العـــالم سلسـلة طويـلة من أغـــان
عليـــك أن تغنيها ، قال .
العـــالم شـجرة ملأى بفـاكهة
لا يقطعها غير ســيف .

السـيف يقطـع الأغنيـــة .
والأغنيـة تثـلم السـيف .
فما الذى تختـار ؟ قال .
كيف يمكنك الاختيار بين ما تم اختيـاره بالفعـل ؟
العـــالم أغنيـــة عميقـــة مغلقـــة .

* الذى لم يرقص

حرك أصابعه الضخمة على المنضدة
كأنه يغمسها فى نهر • لم يتكلم •
بوجهه مصبوب فى حديد •
أحس بصهيل حصان أحمر
يحمحم داخل غرزات سترته •
لم يرقص • رمى بعملات كبيرة ، غليظة
الى عازفى الكمان كى يرقص الآخرون •

* تخطيط

يحل الظلام • والنساء الفقيرات مازلن ينتظرن فى طابور أمام المخبز •
الشعراء ينتظرون فى طابور أمام القمر الجديد ،
حتى لو كان العشب المعزول على حافة الطريق
لا يسمح بأية فائدة بالمرة •

أتوبيس مر • أضيئت الأنوار •
كم تحدثنا – ببساطة – هذه الليلة •

* صوت الصمت

ليل • لا صوت أبداً •
هدير الفضاء وحده
وذلك القمر الشفاف غير المحدد
والذى ظل ضوءه بلا شكل ويجرحه •

* عـــلامة

أحيانـا ما لا يكون في الغابـة كلها غير شجرة وحيدة
تهتز أوراقها جميعا ، بـلا أيـة نسمة أبـدا ·
وفي الحال تتحول الى سكون وخامن من جديد
مثـل شمعدان غير مضـاء في قلب الليـل
يقطـع أنفاس الرعـاة والأحصـنة والنجوم ·

* في أطــلال معبـد قديــم

حارس المتحف كان يدخن أمام حظيرة الغنم ·
كانت الغنم ترعى وسط الأطـلال الرخاميـة ·
وفي الأسـفل البعيد كانت النساء يغتسلن في النهر ·
وكان يمكنك أن تسمع طرقـة المطرقـة في دكان الحداد ·
صفر الراعي · جرت الغنم اليه كأن الإطـلال الرخامية كانت
تجـري ·
والقفا الغليظ للماء التمع بالبرودة خلف أشجار الدفلى ·
نشرت امرأة غسيلها على الشجيرات والتماثيـل ـ
نشرت سراويل زوجها الداخلية على أكتاف هيرا ·

الفـة صامتـة ، ساكنـة ، غريبـة ـ عامـا بعد عام ·
على الشاطىء الأسفل ، مر الصيادون بسـلال عريضـة
ملأى بالسمك على رؤوسهم ، كأنهم يحملون
ومضـات ضوء طويـلة وضيقـة :
ذهبيـة ، ورديـة ، بنفسجية ـ
موكب شبيه تماما بنفس ذلك الموكب
الذى كان يحمل وشاح الربة الطويل المطرز بترف ،
الذى قمنـا بـه في اليوم الآخر
لنصنع منه مناشر ومفارش لمنازلنـا الخاويـة ·

* جزيبة

منحدر التل يتغطى بأقماع الصنوبر وأشواك الصنوبر -
فى القمة توقفنا لنشمح الأسفل
الوهد يهدر بأشجار البلانيرة في البعيد
مع النعيب الوحشى للطيور والأنهار
والشكوى المزقزقة الخافتة من طائر أسود
نقشت المساء المتجمد فوق الهدير العظيم ·

هنا تزاوجت الأحصنة المتعجرفة، دون ارتباط بحب أو أبوة -
الأفق صهيل بلا حدود
وفى الأعلى هنا ، لا يحقق الركوع أى غفران ·

روح الجبل ظلت ساهرة — فى عناد — على المعرفة والجهل بالموت ،
شامخة بكبرياء الحاضر غير الهادف ، غير المحدود ·
فوق الكانتين الخاوي سيمنا ،
مثلما فوق ضوت طبول هجينية·
الأصابع المقتحمة للبرد الهائل ·

ساموس — ليكا : ١٩٥٨/١/٧

* بغنود

حدق فى الضباح من خلال النافذة ·
أحس أن الزرقة تزحف — بالضبط — على جلد الطائر أو الغيمة ·
ارتاب فى أن تمس الاحساسين بالملمس راؤه عنه تقل الشجرة أيضا ·

١٩٩١.

والدخان تصاعد من المداخن كأنه يعترف
بسر الحرارة فى الغرف التى كانت ما تزال مغلقة ·
على هذا النحو ، كل صباح ، تدخن كل البيوت ·
والرجال ، وهم يخرجون مبكرين الى العمل ،
يشعلون سجائرهم على العتبة ،
كأنهم يتذكرون الها مجهولا ، ملكهم تماما ، ولا يبلغه أحد ·

* نكاية

مرت الليلة مظلمة للغاية ·
ركضت فى الريح صرخات هائلة ·
فى اليوم التالى ، لم نتذكر شيئا ·
كانت هناك فجوة عميقة باقية فى الزمن ·

هناك حيث أوى الذئب ،
كان أخدود يتغطى بشعر ذئب دافىء ·
الآن يمكن للأغنام أن تستلقى هناك ·

* أحداث جارية

صحف ، ثورات ، استنكارات ، اكتشافات ، زيجات ، ميتات ،
عرق ، غبار ، ظلام ، صيدليات طول الليل ،
سلم يرتفع فى تهور ، سرقات ، جرائم ، ظلم ،
بغايا ، كلاب ، سماسرة ، سجون ، رطوبة ، سكارى ،
عميان ، متسولون ، جيتار ، الشجرة ، المشنوقون ، عمود الانارة ·

نجمة بين مدخنتين طويلتين · شكرا ·
لقد تركت المفتاح فى نفس المكان الذى تعرفه ·

* ربيـــع

جلسا في الحقـل في مواجهة بعضهما ،
خلعـا حذاءيهما ، وباطن قدميهما ـ العـاريان هكذا
تلامسـا في العشب الطويـل · وبقيـا ·

* اكليـــل

كان وجهك مختبئـا في الأوراق ·
قطعت الأوراق واحدة واحدة لأقترب منك ·
عندما قطعت الورقة الأخيرة كنت قد ذهبت ·
فضفرت من الأوراق المقطوعـة اكليـلا ·
لم يكن لدى من أهديـه لـه ·
فعلقته على جبينى ·

* صـور جانبيـة مسـائية

ما تزال يداهـا صغيرتـين ،
معذبتين بالتوقـع وبالزمن المضاعف ،
شـاحبتين على ثوبها الأسـود ·
كانت تجلس وحيـدة في الباحة ،
تحدق ـ في عزلتها ـ في المراكب التي تتلاشى ·
فجأة ومض الغروب على خاتمها
كما على نوافذ قريـة عاليـا في التـل ·
آنئذ ، غطت الخاتم ـ في حنان ـ بيدها الأخرى ،
أغمضت عينيها أولا ، ثم ابتسمت ·

البعيد ـ ١٩٣٠

* تعبير الخريف

الرطوبة الهائلة بدأت . رحل المصطافون .
بهتت الآن علامة الفندق ، صفراء
مع الاسم بالأزرق ، معلقة تحت غيمتين .
عاملة النظافة ستمر بها ببطء فى الصباح
فى طريقها الى غرف المتزوجين حديثا ،
بستائرهم المسدلة وشباشبهم ما تزال دافئة تحت الأسرة .

* رسالة

السمكرى فى الأفرول على السلم .
باطنا قدميه عريضان .
أنابيب موقد التدفئة تلمع على الأرضية
مثل سيقان أشجار فى غابة فضية .
عاليا هناك ، فى مواجهة الحائط ، يشعل سيجارته .
مطرقته تدق وسط شرارات حمراء صغيرة .
ما الذى نفعله فى موقد تدفئة هذا الوقت ؟
فالآن ، سيحل الصيف فى أى يوم هنا .
والدجاجات بدأت ـ فعلا ـ فى وضع بيض أزرق قوى
بجوار برميل النبيذ والمحراث .

* ثلاثية

وهو يكتب ، دون أن ينظر الى البحر ،
يشعر بأن سن قلمه يرتعش ـ
انها اللحظة التى تضاء فيها المنارات .

* الليـــالى والتماثيـــل

ترحـــل الليـــالى بخطوات واســعة ٠
ذلك هو السبب فى أن أجمـل التماثيـــل
تقف مضمومـــة القـــدمين ٠

***

البعيد

* بطء

قسنا المكان ، ألقينا بالميت فى الجير ،
بعد ذلك اعتلينا القارب تحت أوهى الأقمار ،
الرابع حمل الصندوق الحديدى على ركبتيه
تكور على نفسه
كأنه يستمد حرارة من نار سرية داخله ٠
والدخان ظل خفيضا فوق الماء ، لم ينقشع ٠

* هبوط

« ايوريديس » ، نادى ٠ نزل جريا على السلالم ٠
لم يكن هناك ضوء فى صالة المدخل ٠
بحث بيديه عن المرآة ٠
وفى الطرف البعيد كانت المرأة ذات المظلة الصفراء ترحل ٠
المرأة الثانية فى الطابق الأرضى زعقت فيه : « لقد ماتت » ٠
والطياارون الثلاثة خرجوا من المصعد بدولاب كبير –
داخله كانت يداها المقطوعتان ومخطوطاتى ٠

* حوار قصير

اشتعلت السماء وحيدة خلف البيوت ٠
لماذا تبكين ؟ ، قال ، وهو يثبت حزامه ٠

العالم جميل ، ردت ،
جميل جدا بمثل هذا الصداع القظيع ،
والسرير حيوان صامت ، متوحش يتأهب للرحيل ٠

* لأن

لأن الأتوبيسات قد توقفت أمام السياج
لأن الدمى في نوافذ الدكان المضاء أومأت لى
لأن الفتاة ذات الدراجة توقفت خارج الصيدلية
لأن النجار حطم الباب الزجاجى لقاعة البيرة
لأن الطفل كان وحيدا فى المصعد مع قلم مسروق
لأن الكلاب هجرت فيلات الشاطىء
لأن المبشرة الصدئة قد تغطت بالقراص
لأن السماء كانت رمادا بـه سمكة حمراء
لأن الحصان على الجبل كان أكثر وحدة من النجمة
لأن هؤلاء وأولئك قد تم اصطيادهم
بسبب ذلك ، بسبب ذلك وحده ، كذبت عليك ٠

* اكتمال تقريبا

تعرفين أن الموت غير موجود ، قال لها ٠
أعرف ، نعم ، أننى الآن ميتة ، ردت ٠
قميصاك تم كيهما ، فى الدرج ،
الشيء الوحيد الذى أفتقده هو وردة صغيرة ٠

* عرض غزلى

كانت المرأة ما تزال ممددة على السرير ٠
أخرج عينه الزجاجية ، ووضعها على المنضدة ،
خطا خطوة ، وتوقف ٠

هل تصـــدقينني الآن ، قال لها ٠
التقطت العين الزجاجيـــة ، قربتها من عينها ،
نظرت اليـــه ٠

* حمـــى

ميادين صغيرة فى حركة دائبة ، والواحد يخترق الآخر ،
الواحد يخرج من الآخر : مبنى ، خرابـة ،
مدينـــة من نوافـــذ فـــوق نوافـــذ ،
فى اليمين واليسار ركنان ينتصبان بلا اتساق ،
وفى الوراء تماما ، بلا ضوضاء ، الانهيار العظيم وسط حركة صـــامتة ،
بينما الكلاب المهزولة الثلاثة تزداد ابتعادا فى الميادين المتتالية
التى تفوح برائحة موتى غرباء عند سلالمها الكبيرة فى الطرف البعيـــد ،
هناك حيث المرآة ترفع ـ عارية ـ الأرنب المسلوخ أمام مرآة ٠

* الرجـــل ذو الذراع الواحـــدة

أربع مناضد مستديرة ، عارية بطول الصالة الضيقة الطويلة،
يضربهم الضوء مثل رماد، يهطل من النافذة البللورية الكبيرة،
بجوار المنضـــدة الثانية ، دون انفصـــال
وقف الرجل ذو الذراع الواحدة ، معاديا تقريبـــا ،
ذراعه كانت حمراء كلها ، وكان يحمل كتابا برتقاليا صغيرا ـ
المسالة كلها أننـــا لم نعرف أبدا ما الذى سيجرى ٠

* شـــكرا

سمعت صوتك وهو يقول : شـــكرا
(بطبيعية بكماء ، غير متوقعـــة) ـ

كنت على يقين الآن :
أن جزءا كبيرا من الأبدية قد أصبح من نصيبك .

* خطوات واسعة

استلقى السكارى ، وغرقوا ــ حالا ــ فى النوم .
راجع الحسابات ، أطفأ النور ، وذهب الى الحديقة ،
أحس ــ تحت حذائه ــ بطراوة البرعم الدائرية .
أيها البعيد ، أنت المنسى ، بلا سياج ، أيتها النبوءة .
قطرة من نبع قمر سرى على ورقة واحدة .
وفجأة تضاء النوافذ السبع كلها خلف الأشجار .
السكارى ، وهم يقفون على الأسرة ،
يعرضون لبعضهم بعضا انتصاباتهم .

* فى السر

سمعهم ينادون باسمه فوق الماء .
تأكد أن ذلك كان من أجله . اختبأ .
خرجت سفينة ضخمة مضاءة بصورة ساطعة من الميناء .
على المعبر المرأة ذات القبعة ــ مزركشة ضخمة .
حجبت عن الرؤية البرج المعتم ، والقمر ، والسقالة .

* وضع مريب

شاحب ، شاحب للغاية ، فى شعره أشواك ــ
أشواك حتى كتفيه ، حتى خصره ، حتى باطنى قدميه ــ
ربما كانت بالفعل أجنحته ،
لأننى ما ان نظرت ــ مرة ثانية ــ ناحية الباب ،
لم يكن هناك سوى دخان قليل مكان المطرقة .

* متلبس بجريمـــة

صوب كشاف الضوء ـ مباشرة ـ الى وجهه ،
فلنره ، وهو مختبىء على هذا النحو فى الليل ، ونجعله يحمر
خجـلا ،
له أسنان جميلة ـ ويعرف ذلك ، يبتسم
والقمر الصغير فوق التـل المقصوف بالقنابـل ،
وأطفـال الحطابين فى الأسـفل عنـد النهر ٠

* مع ما يتعـذر بلوغـه

بعيد جدا جدا ـ ولهذا منيـع أيضـا ـ قال ،
لكن لا أحد بعيد بما يكفى ، لا أحد بقدر ما يريـــد
بقدر ما يسـتطيع أو ما يجب ٠
يربـط رسـغه بمنديـله
أبكم ، لا ايماءة واحدة ، لا أحمر ولا أسود ،
منـديل أبيض : الأبيض الأكثر كثافـة ، والأبعــد ٠

* فجـــر

ظلمـة أرضيـة عميقة حتى النهايـة ٠
أضيئت نافـذة واحـــدة ـ
ماسـة خضراء كبيرة مسروقـة ٠
السماء بيضـاء تماما ، عاريـة تمامـا ٠
أيها الفجـر السرى ، قال ـ
جلد أبيض منقوش بمسام حمراء ، حلم ،
حلم مندمـل ، وندبتك أكثر بياضـا فى معابدنـا ٠

* مع الموسيقى

خزانات كثيرة ، دواليب كثيرة ، والكمان مرمى على السرير ،
الأسود والأبيض فى معينات متزاحمة متقاطعة
والعجوز الشمطاء الأولى ذات العجيزة المشوهة ، السمينة
وزهور وسجائر ولؤلؤة عمياء
وزخرفة صغيرة موشاة بالذهب على البيانو ـ
فى الدخان طفت الأيدى النبيلة ،
اللوريات المحملة بالامدادات العسكرية قعقعت على طول الممرات السرية ،
وأنت تجلس على الأرضية تقشر الفول السودانى
و «بام» و «بوم» ، والموتى بعيدون فى الداخل ، بعيدون فى الأعالى .

* الاعداد للاحتفال

خطأ ما حدث فى الاحتفال الذى كانوا يعدونه لى .
صعدوا وهبطوا السلالم ، تصادموا فى الممرات .
والشمعدانات الثلاثة ظهرت فى الصالة الكبيرة .
فوق المنصة تلتمع أكواب الماء .
يقدموننى .
أستحث قدمى ، أتفحص نفسى بيدى ، اننى ضائع .
واذا ما حاولت نزول السلالم ، فسيقبض الحاجب على .

* أرق

الترديد الدائم لنفس النص المستغلق ـ
فى أعلى الجريدة الثقب الصدىء من المسمار ،
فى الأسفل قطرتان من دم أسود .

الاثنتان ـ قال ـ الاثنتان ، الزوج ، الصوت المزدوج ، المعنى المزدوج .

متعب من الأبواب التى تفتح وتغلق مع الموتى والنساء .

ليفتريس يسرع بالذهاب قبل أن يبدأ المطر .

عاد ـ بعد ذلك ـ بالبطانية المبلولة والقبعة

التى تخص الشخص المشنوق .

* مقياس مصغر

تكيف سهل للجسد فى كل أوضاعه ، كل ساعة ،

فى كل اضاءة ، هو نفسه مع الأثاث .

الباب الأخضر فى مكانه الأيمن .

شعرك يسقط بكثافة أكبر من رموشك .

لم أهتم عندما تأخرت .

الطائر الثانى قال ما قاله الأول .

لا أحد يحمل مفاتيحه الخاصة .

مارى ، وكأنها عارية لا ترى بعد موتها ، تشعل الكبريت .

وخلال برهة صوت الانفجارات فى الضاحية السفلية .

* فى اتجاه السبت

الصوت العميق سمع فى الليل الأعمق .

ثم مرت الصهاريج . ثم بزغ النهار .

ثم سمع الصوت من جديد ، أقصر ، أبعد .

كان الحائط أبيض . الخبز أحمر .

السلم استند ـ عموديا تقريبا ـ على عمود الاضاءة القديم .

المرأة العجوز لملمت الصخور السوداء واحدة واحدة فى حقيبة من ورق .

* اعـــادة ترتيـب

كل منهم يحمل ميتـة أو أكثر على ظهره ·
طريق بعد طريق، صخور، عوارض خشبية، شجرة محترقة ·
شخص ما أنزل المصباح ، الخبز على جـذع شجرة ·
الى أين تحملون الموتى ؟
لا أرض هناك فى هذا الطريق · لاعشب ينمو ·
طوال شهور ثلاثة لم نفلح الا مع بذر الخروب وحده ،
والذاكرة تنفــد ·
ان لم يكن للموتى أى أرض ، فليس لنا أيضـا أى أرض نقف عليهـــا ·
آنئذ أشعلنا النيران الهائلة ، وضعنا العجوز على الصخرة ،
خلعنا أحذيتنا ، ونحن نجلس هكذا على الأرض
قسنا أقدامنا اثنين اثنين ، وباطن القدم يواجه باطن القدم ·
قوسطنطين الشاب ، صاحب أكبر قدم ، هو أول من رقص ·

* هجـــوم

شوينـا البطاطس فى الجمر · وفيما كان الملح ما يزال بين أصابعنـــا
سمعنا الصراخ فى الساحة ، بالقرب من البئر ·
حسنا، قال، فلنرحل عبر السياج الخلفى · خذوا البطانية ·
قمر زائف من نافذة الى نافذة ، من سطح الى سطح ،

والمرآة فى دولاب الملابس خائنة ، ذات عينين معصوبتين ،
أبعد فى الداخل ثياب الميت معلقة والتذاكر التى لم تستخدم فى الجيوب ·
انفصال صامت عن مخاوفنا وعن أحلامنـا المريرة ·
والتمثال الموجود فى المدخل يهذى ، وجهه مضرج بالحمرة من شـبقه ·

ثم صوت الكلاب وهي تنبــح ٠
بذلك ابتعـــدوا ٠
عبروا النهر ٠

﴿ لسـبب مـــا

ربط الحبل بالشجرة ٠ لم يربط أى شيء بالحبل ،
تركــه مرميـــا على الأرض
لهؤلاء الذين يقفزون الى النهر فى الصـــباح
لهؤلاء الذين يقفزون من ســطح الى ســطح فى الليــل ـ
شيء ما سيسقط من جيوبهم ، مهما كانت محمية تماما ،
وسيعثر عليه كناسو الشوارع فى اليوم التالى
والأوامر ستكون قاطعة : عليهم تسليمه ـ

(فدائما هناك حاجة لشيء ما عام ، فى النهايــة)

﴿ الجانبـــان

حفنـــة عظام وقطعـــة من حديد صـــدىء ٠
كانت المرأة تجمع الخضر فى الحقــل ـ
وساقاهــا مكشوفتان الى أعلى من كل ناحيـــة ،
فى الخلف ، يحرس الكلب الطفل تحت الشجرة ٠
وما ان حل الظلام حتى عدنـــا الى المدينـــة ،
توقفنا أمام المنزل الأحمر ، نظرنا عبر النافذة المنخفضة ٠
كلاهما على المائــدة ، بجوار المصباح ،
أطباق العشاء ، حركات بطيئة ـ ضغينة صامتـــة ٠
يقف الثالث فوقهما بسكين ، يقشر تفاحـــة ٠
فى تلك اللحظة التفت وقال : دائما ما ننتهى بنفس الشيء ٠
وبما كان يعنى بذلك الخطيئـــة الأولى
أو نسيانـــه لمشــطه فى حمام شخص آخر ٠

* اليوم التالى

أعمدة اضاءة ساقطة ، وشجرة ـ الضوء ينتشر من أسفل ،
الطريق الثانى بمحاذاة البالوعة .
جاءوا بالأوناش ، ورفعوا الأتوبيسات . لم يكن خطأنا ، قال.
ووسط الدروب كانت المرأة العجوز تجمع أزهار البابونج .
عثرت على ساعة النائب العام ، زلقتها فى معصمها .
أتظن ، يا بنى أن الموتى لا يعرفون الغضب ؟
انهم يقتاتون الحديد والأبواب والصخور .
آنئذ ، صاح فانجيليس ، أعلى الجدار الباقى .
انهم لا يستطيعون استيعاب الكلمات .
أخرج الآخرون الأعلام من تحت قمصانهم
ومضوا نحو الفارس البرونزى .

* شروق شمس الشتاء

ما حدث هو أننا تطلعنا الى كلا الاتجاهين ـ
سقط الزمن فى توازن ما ـ
المرآة الداخلية والشجرة وكشك المحارب القديم المعوق .
ساعة بعد ساعة
المجلات والجرائد الملونة ـ
العرايا ، دخان ، هؤلاء القتلى ، الوحدة .
هذا التجهيل المعتم ، والحوائط المقابلة : مضاءة .
متعة ، صرخت المرأة ، متعة حمراء بأظافر حمراء .
جسد أحمر مذبوح ، والملاءة تتدلى الى الدرج الحجرى
والشبان الثلاثة المتأنقون ، المترابطون كتفا بكتف
(الأوسط منهم تمثال ؟)
يتمشون ـ على مضض ـ فى اللامبالاة المضيئة للموت .

* متوقـع وغير متوقـع

ذلك ما لايحتاج ولا له ــ حتى ــ أى عــلاج •
قمر ناقص ، ساكن يخترق الحائط باصبع واحـد •
من الداخل ، فتشت المرآة عن تأكيد فى وجوهنـــا •
وكنت تحـدق فى مكان آخر •

طرقوا الباب • فتحته لهم • لم يقولوا أى شىء •

حدقوا فينــا كأننا كنا الأشخاص الذين ارتكبوا خطأ ما -
ورحلـــوا •

وعلى البرج الأبيض تركوا المسامير الثلاثة الأخرى ،
والشاكوش والقصـــيدة •

فى الحديقـة ، تحركت فضـــة قمر ما خلف أذن التمثال •
وسمعت •

* الأكثر كفايـــة

يمكنك أن تستكمله بسهولة أكبر ــ
فيـكفى ألا تريـد الاقتنـــاع أو الخــداع •
وحيدة وحيدة الطيور والأطفال والموسيقى والسرير والستائر •
المرآة المريضـــة تعالج بالكى •
ذبابة أخيرة متاهبـــة ــ تقريبــا ــ للموت
تتجول على امتـداد الملاءة الدافئـــة •
وهناك سلسلة سرية من ميتات فاترة وراء موتنا العادى ،
ووراء تماثيله الرصـــينة المجيدة ،
خلال تلك المعجزة الطافيـــة ،
خلال ضوء هذه المرآة التى تعرف كيف تعكس
(مهما كان الزيف والتشظى) مجد الجسدين العاريين •

* بعــد كل مــوت

نبحث مرة ثانية وثانية ـ من البـداية ـ عن تلك النعومـة المطلقـــة ،
عن تلك الاستدارة العميقـة ـ
صخرة النسيان البيضاء المحفوظة فى خزانة البحر الأسود ٠
انحنت المرأة على النـافذة ، وهى تضـغط ثديها الأيسر فى الخشب ٠
والكرة الحمراء محشورة فى ماسورة تصريف المياه فى السطح المقــابل ٠
ذلك ما كنت أفكر فيه ، قال ، وأنا أسمع صوتها فى حزن ،
محدقـا فى التمثال بالحديقة فى الأسـفل ـ.
ذلك الذى أخرجوه الليلة قبل الماضية من البحر مع المشاعل ٠
كم ينتصب شامخا ، وابهامه ما يزال رطبا أمام شفته الرطبة.
وهو يعترض سبيل البياض الكثيف المدهش .
قبـل أن ينجـح فى العثور على تعبير ٠

* ودائـــع

منضدة الصراف من زجاج ـ أية عملات غريبـة ؛
أية أسنان مسـتعارة من ذهب ، وفضـة ، وحديـد ،
سنة ذهبية واحدة للميت ، قلادة ايلينى ،
دبوس قبعة ضخم ، العهد القديم مجلد بالفضة
مع أحجار حمراء وخضراء ٠
الساعة الكبيرة فى ساحة المدينة دقت الثانية عشرة ٠
أخرجـوا الدواجن من الثلاجـــة ٠
وقف منظف الأحذية عند البـاب وحذاء أنتينوس ينزلق على يديـــه ٠
آنذاك هبت نسمة رقيقة من الجنوب ، ارتعشت الملاءة الطويلة
وتحت السريـــر

يمكنك أن ترى الحذاء الناصع البياض ذا الكعب العالى للعروس الميتـــة ٠

* التماثيـــل فى المقـــابر

التماثيـل العــارية تحت الأشجار فى المقابر
حوصرت بالأصوات المشبوبة لطيور الليل حينما انسحب آخر الموكب ٠
التماثيل تقلد ـ باخلاص ـ الموت ، الحب الشبقى، السكون،
بسيوف حجرية ، بأجنحة حجرية ، بأعلام حجرية ،
من كل مكان الى آخر ، نوافذ تضاء ، أسرة ، رقص ليـلى فى الحديقـة ٠
اخرج ، اخرج ، صرخ بيتروس ،
مفاتيحى مع الحارس فى حزامه ، وكلبه يتبعنى ـ
ذلك مكمن اعتراضى عليـــه ٠
التماثيـل لا تقلدنـا ، انها ـ أيضـا ـ وحيـدة ،
تعانى ، تنكر اللاوجود ، تتهيج ، تحمر خجـلا ،
وشريانها الرئيسى مترع بالدم ٠
ذلك هو سبب صياح الطيور هكذا ٠
لتغطى هزيمـة الموت الهادىء ٠

* البعيـــد

أيها البعيد ، البعيد ، العصى المنال ،
فلتتسع دائما للصامتين فى غيابهم ، فى غياب الآخرين
عندما يصبح خطر القريبين ، خطر القرب ذاته ، عبئا ثقيلا
خلال ليالى الوعد بالأضواء الملونة الكثيرة فى الحدائق ،
عندما تلتمع عيون الأسود والنمور نصف المغمضة
بلا مبـالاة خضراء وامضـة فى أقفـاصها

والمهرج العجوز أمام المرآة المعتمـــة
يزيل دموعه المرسومة حتى يستطيع البكاء ـ
أيها المستعصى على الامتلاك ، أنت بيدك الطويلة الكئيبة
خفى ، بلا استعارة أو اعارة ، بلا التزامات ،
تسمر المسامير فى الهواء ، تدعـم العـالم
فى ذلك التراخى العميق حيث تسود الموسيقى ٠

★★★

(ثـلاث نسوة عجائز ، نحيـلات ، بائسـات ، مسـبيات فى أرض أجنبيـة ، مأسورات من وطنهن ، يجلسن بالخارج فى الشرفة ، قرب منتصف الليـل فى الربيع ، مقعيات بجوار بعضهن البعض الى الحائط، بثيابهن السوداء ، وأوشحتهن السوداء، يشبهن أطفال الليل، الأشباح · لا ينظرن الى البحر· ولا الى النجوم· شيئا فشيئا يبدأن فى الكلام ببطء ، كأنهن قد نسين ــ أيضا ــ الكلمات ، كأنهن قد تذكرنها ــ الآن ــ توا ، من جديـد ، ويمسكن بها تحت ألسنتهن يمضغنها مع لعـابهن ، ولا يعرفن ما اذا كانت تلك الكلمات أم أنها شيء آخر · الآن ــ من جديـد ــ يتـلعثمن ، يتوقفن . كأنك ــ وأنت تمضغ شيئا ما تعرف أنه طرى ، كقطعة خبز فى فمك، اذا بأسنانك تصطدم فجأة ــ بلا توقع ــ بشيء صلب ــ بحصـاة ، بشظية من عصا المكنسـة ، بكسرة ما ، فتلفظ اللقمة فى احدى كفيك ، وتتحسسها باصبع من الكف الأخرى ، لاشيء ــ خبز فحسب ، تعيد اللقمة الى فمك ، تبتلعها ، ــ كم كانت لذيذة· والنسوة يفعلن ذلك · ولا يبين · فهو الليل · وكثيرا ما يرفعن أكفهن الى أفواههن · ربما ليغطين ثقبا فى جزء آخر ، ثقبا غير مرئى ــ ثقبا فى الروح ، على ما يقولون ــ ، ربما حرصا على ألا يسمعهن أحد من السادة النائمين فى

البيت • مؤكد أنهن لابد أن يكن نسوة عجائز من ميلو ــ اللائى أخبرنا بهن عمنا العجوز ثوسيديديس ، منذ يوم أو يومين ، عندما أتى فيلوكتيتيس ابن ديمياس ــ فى العام الثالث ــ من أثينا مع سفن كثيرة وسحق الجزيرة ، مضرما النار فى البيوت والمعابد ، معدما كل الرجال ــ الكبار ، والشبان والأطفال ، مستوليا على النساء كمسبيات ــ نسوة عجائز ، ونساء حديثات عهد بالزواج ، وأمهات وفتيات صغيرات • حقا ، انهن نسوة من ميلو، على جزيرة أخرى الآن ، مسبيات، بائسات• على الشرفة الأجنبية يتحادثن فى صوت خفيض ــ وبالتدريج يتكلمن بسرعة أكبر ، بوضوح أكبر ، بهدوء دائما) :

المرأة الأولى : يبدو أن القشعريرة وصلت • الصيف تأخر •
وساعة الكنيسة تدق •

المرأة الثانية : دقت الثانية عشرة • منتصف الليل •
هس ــ سيسمعوننا بالداخل •

الثلاث معا : فلنجلس هنا ، نقعى معا ، فيمكننا الاحساس بالهواء المنعش •

المرأة الثالثة : أليس غريبا أن الساعة تدق ونحن نعد من البداية ــ
اثنين ، ثلاثة ، خمسة ، تسعة ،

المرأة الأولى : ذلك أنها تدق ونحن ننصت ــ غريب •
وهل نحن اللائى نتكلم ؟

الثلاث معا : هل نحن اللائى نحرك شفاهنا ،
نحن الموتى منذ أعوام ، نحن نسوة ميلو ؟

المرأة الثانية : نحن نفتح أفواهنا ــ فهل يخرج منها صوت ؟ ــ
وهل نسمعه ؟

الثلاث معا : هل كان لميلو وجود ، وكان لنا أيضا وجود ،
ولنا أيد ، ونحرك أيدينا ونتذكر ؟ ـ هل يتذكر الموتى ؟

المرأة الأولى : وهل يتحادثون وتطرف رموشهم ؟

الثلاث معا : هل تعتقدون أننا كنا نائمات لأعوام وأعوام ،
ورأينا هذه الأشياء فى نومنا ، كى يستردها ـ بعد
ذلك ـ النوم ؟

كانت جزيرتنا صغيرة (كانت مكانا ـ لاذكريات وأحلاما)،
كانت جزيرة صغيرة كخاتم ، ـ
كانت هناك أشياء كثيرة لا نمتلكها ، وأشياء كثيرة
لا نعرفها ،

المرأة الثانية : أعوام تعيسة مرت أيضا ـ أمطار وعواصف حينا ،

المرأة الأولى : وحينا الحرارة الحارقة للشمس والجفاف العظيم ـ
ولا حتى حبة قمح ، ولا طائرا يعبر ،

المرأة الثانية : المكان أتون ، والهواء حديد محمى ـ البحر يعمى بوهجه ٠

المرأة الثالثة : وبياض حائط الحظيرة المطلية كان سكينا ـ تجز شعرك ،
فجأة ذاب جرس الكنيسة وانساب نهرا من حديد على
الدرجات ٠

الثلاث معا : وكان للزيتون أن يذوى ، فيسقط بعنف على الأرض
مثل عينى شخص مريض ،

المرأة الثانية : مثل عينى شخص نعسان ، مثل عينى شخص أعمى ـ
ويكون علينا أن نلملمها من الأرض ،

الثلاث معا : ننحنى وننحنى من جديد ـ ونحن نؤدى كفارتنا أمام
أيقونة فارغة ،

وندسهم فى كيسنا كأننا ننتزعهم من أسنان الموت ،
وفوق رأسنا محصلو الضرائب

المرأة الثالثة : وفوق رأســنا الأمراض ، والجرة المكسورة ، والمكنســة
بــلا شـــعر

مثل اللقلق النحيل الذى هرب فى الليل وترك روثه على
المدخنـــة .

الثـلاث معـا : لم نقل شيئا ـ كانت الكلمات صعبة ـ
المكان سجن ، والصمت يزيـــد .
فى الصمت كنا نبدو أكثر أمـــانا ،

المرأة الأولى : والحجر ـ فى حائط البيت ـ كان يبدو أكثر أمانا أيضا .
والكرسى المجاور للنافـــذة .

الثـلاث معـا : أحيانا ما كان أسيادنا سيئين ، وأحيانـا أسوأ ـ دائما
أســوأ ،
لكننا حتى فى هذه الحالة لم نكن أبدا بلا قوت تماما ـ
كنا نعد لقيماتنـا ، نعد الهواء الذى نتنفســه فى السر
فوق سرير الطفل ـ

المرأة الأولى : وفى الغد ننسى أنفســنا ، ـ
ونحن نرفو الجوارب الصوفية الكبيرة غرزة غرزة ، ٥ ،
٧، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٤٥، ـ كنا نهدهد أنفسنا كى ننام،

المرأة الثانية : كنا نسقط فى النوم على الكرسى ،
تسقط رؤوسنا فننطلق من جديد ، نفتح عيوننا فنوقف
العـــد ،
كان الجورب كبيرا كبيرا ،

المرأة الثالثة : كبيرا كميناء فارغ ـ وكلما نسجت كان الثقب يكبر
مثل عين الرجل الأعور المختبئة التي لا تريد أن تراك ،
بل وتخاف من أنك قد تلمس المقلة بالابرة .

الثلاث معا : كنا نعمل عملا شاقا ، حتى في الليل ـ
بل لم نكن نعرف ما اذا كان هناك قمر في الخارج ،
ولا حتى كنا نريد أن نعرف ـ الآن ، فقط ، فكرنا فيه .
كنا نعرف ما اذا كانت الريح تهب ـ كنا نستطيع أن
نسمع الريح ،
فمعطفها كان يعلق من وقت لآخر ـ في الخارج ـ بالمسمار
في الحائط ،
حيث تركنا جدائل الثوم معلقة ،
كان يعلق بالمفتاح .

المرأة الثالثة : وعندما تتوقف ، كانت يدنا اليمنى تظل ـ لبرهة ـ في
الريح ،
ووبر البطانية ينام برفق كعرف الحصان الذى عاد الى
الحظيرة .

الثلاث معا : عشنا بالكاد على خبز الشعير والذرة والنخالة ـ
أيضا عاش معنا الدجاج ،

المرأة الأولى : لم يكن لدينا وقت لنمرر المشط في شعرنا ـ لم نهتم ـ

المرأة الثالثة : هل ينظر الحمام والدجاج في المرآة ؟
ما كان يفزعنا هو أن نرى أطراف كم قميص أزواجنا
الليلي مبلولا ،
حينما كانوا يغتسلون في الباحة ، ـ أحسسنا بها ،
ولو انه لمسنا آنئذ ـ وفي يديه سواران باردان ـ
لأحسسنا بالبرودة على ظهورنا .
الثلاث معا : يا الهى ، كم غريب ـ عالم أعجوبة ـ كمان مبلولان .

المرأة الثالثة : وفى يوم آخر ، ونحن نقشر كوز ذرة كبير، ورقة ورقة ــ
أوراق كبيرة محبوكة ، قفزنا وأفواهنا مفغورة ــ
كانت الذرة تضحك بألف سنة مصفوفة ، ذهبية بفعل الشمس ·
وعاليا على التل ، فى الأفران ، كانوا ينادون « جورج ، جورج » ·
دفسنا الذرة فى صدورنا ، لم نقضمها ·

الثلاث معا : كنا نحرث، نقطف العنب، نقلم الأشجار ، نروى الحقل،
نقوم بالغسيل ، بالعمل الروتينى ، نكوى ــ
بينما فى الخارج يحل مساء ربيعى هادىء ،
وفجأة يتردد فوق البحر هناك ، فوق الماء الذى يتكلم فى السر ،
صوت منفرد صاف كالبللور

المرأة الثالثة : صوت أجش ، صوت صياد شاب ــ متحجرا برهة فى الهواء ،
لينتشر بعد ذلك،فيمتصه السكون كما لو بورقة نشاف،
ونحن هناك فى الظلام ، فوق الحديد ،
نجاهد ــ بمرارة ضاحكة ــ لحل شفرة الحروف المقلوبة على ورقة النشاف ــ
نحن الذين لم نستطع ــ حتى ــ أن نميزهــا على نحو صحيح ، ــ
بل وحتى لم نستطع أن نراها جيدا ،
حيث كانت فضة القمر تلتمع على تويجة الشاطىء ــ

الثلاث معا : كان القمر ورقة واهية ، يظهر خلف النافذة ،
بعيدا كأننا كنا نحن اللائى ابتعدن عن العالم · كنا نضىء المصباح ·

المرأة الأولى : آنئذ ، في موسم عصر العنب ،
عندما يكون على أزواجنا أن يعودوا من المعاصر ،

المرأة الثانية : ملطخين بخميرة العصر من الرأس الى القدم ـ
الأقدام ، الأيدي ، الوجه ، الملابس الداخلية ، القمصان .

المرأة الأولى : يتضرجون من الحماس والبهجة ، محمرين كتلك الآلهة القديمة ، كما يقال ،

المرأة الثالثة : كانت قطرات من الدم تتجلط على شعر أرجلهم الملتف
كأنهم عائدون من مجزرة سرية كبيرة فنندفع لنخبئهم .

المرأة الأولى : لنسخن الماء في القدر ، نغسل أقدامهم وأرجلهم ،

المرأة الثانية : نغسل سراويلهم ، وقمصانهم ، نزيل الآثـــار ،

المرأة الثالثة : نطعمهم العشاء على عجل ، ونخبئهم تحت الأغطيـة .

الثلاث معـا : ثم كان لهم أن يضحكوا في السر من وراء شواربهم ،
كأنهم قد سمحوا لنا أيضا بالاطلاع على سرهم الكبير ـ
ولم يكن هناك أي سر ، ـ
لكن النوم الناجم عن ذلك كان مريحـــا .

المرأة الثالثة : آه ، موســم العصر ، مع الحصير القش ، والســـلال ، والسكاكين ، ـ
كانت الباحـة عـاطرة ،

المرأة الثانية : كان الشاطىء يفوح بأريـج الورد ، والخيول تنزلق على الحصى ،

المرأة الأولى : وبراميل كبيرة مملوءة تغط في نومها بالطابق الأرضي ـ

الثلاث معا : النبيذ الذى سيشربه الآخرون ،
عناء على عناء ــ القطاف ، التقليم ، الرى ، التجفيف ــ
ركبنا أصبحت يابسة كالعظام ، ــ
لم يكن لدينا وقت للنظر فى أنفسنا، لم نشأ أن ننظر فى أنفسنا ، ــ
ولماذا حقا نجلس ــ من جديد من جديد ــ متربعين ،
برأس محنية على الركب ، كالجنين المنحنى
داخل الظلام الدامس ؟ ــ
فأين نجد الوقت · تقليم وحرث وترتيب ،

المرأة الأولى : أشعلى النار ، زنى السمك ، املئى الجرار ،

المرأة الثانية : نظفى زجاج المصباح والنوافذ من غبش البحر ،

المرأة الثالثة : نظفى العدس واحدة واحدة ــ
نسجنا ــ أيضا ــ زوجا من مناشف الوجه على النول .

المرأة الأولى : نسجنا قطعة أو قطعتين من الصوف ، وبطانية كبيرة ــ

المرأة الثالثة : ولم ننس أن نضيف اليها النقوش ــ
زهرتى ربيع ، طائر أحمر ، ودولفين ضخم فيروزى ،

الثلاث معا : كبرنا ونحن نعمل، ونحن نعمل تعلمنا أن نعمل ، ونحن نعمل تعلمنا أن ننسى همومنا ، أن ننسى أنفسنا ، أن ننطلق من جديد ·

المرأة الأولى : فى الصيف ، فوق جزيرتنا ، كم كان الأصيل يتلألأ ،

المرأة الثانية : عندما كانت رياح الصيف العظيمة تصفر ،
والبحر يرتعش ــ متكسرا ــ بكامل جسده ،
والعالم كان ومضة ، وحدسا ، وشرارة ·

المرأة الثالثة : وداخل البيوت كانت البرودة تقعى كطائر ، كبير كبير ،
يحتـل المطبخ ـ دون أن يترك لك أبدا غرفـة لتتزحزح
اليها ،
لترتبها ، لتقف عند النـول ، دون أن تـدوس على ذلك
الطائـر الذهبى
ذى العينين البنفسجيتين ،

المرأة الأولى : ولا حتى غرفة نذهب اليها كأنك تهش ذبـابة مزعجـة
وقفت على كوب ماء نظيف ـ
وتهرش قفاها بقدميها الاثنتين ـ

المرأة الثالثة : لاشىء ، لاشىء ، بدون نتف قليل من زغب الطائر الذهبى
وبعثرته على العالم ، آه ، قليل من زغب ، ـ
وتجلس غريقا مثلما فى كرسيك جامـدا ،
واليدان على الركبتين ، فى خدر عميق ،
وأنت أيضا مذهب كأيقونة مرسومـة على لوح من خشب
سرو ،
كأن شخصا ما ربما آمن بك فجعلك نـذرا ،
وذهبـــك ـ

الثـلاث معـا : كنا كأننـا ـ فى داخلنا ـ نؤمن بأنفســنا .

المرأة الثانية : كان ذلك الضـوء العظـيم للحصـاد ـ هو ما غطى على
العبودية والموت ،

المرأة الأولى : كان الضوء العظيم وأوراق الشـجر ورياح الصيف غير
الحليقـــة
مع أصدافها الهائلة التى تصيح بالخارج برفقـة الزيز ،

المرأة الثالثة : وداخل البيت القطة النائمة على رأس السرير .

الثـلاث معـا : آه ، كم آمنـا ، نحن المظلمات ، بالضوء ،
وكم آمنـا ، نحن المهدومات ، بالحياة .

المرأة الثالثة : وذات أصيل آخر – كيف حدث ذلك –
ونحن ننحنى على البئر ، متلهفين على أن نرى شيئا –
لا لنسحب ماء – لاندرى ، سر كأنة خطيئة ، –
أجفلنا من صرخة المرارة فى صرخة طائر يمرق عاليا فى
السماء ،
فى مكان لم يخطر لنا ببال – على التل تماما –
كان يستهدفنا من خلف ظهورنا .

الثلاث معا : تحسسنا – آنئذ – مفاتيح المخزن فى جيب مريلتنا ،
نظرنا الى شجرة التين – أوراقها عريضة كالأيدى العاملة، –
لم يكن أى شىء ، دخلنا ، هادئين .
فقط جرادة واقفة على أرجلها الخلفية ، هناك، على حوض
الماء
ترقبنا بعيون خضراء ، كروية ، كبيرة .

المرأة الأولى : وأحيانا كان يحل صمت قصير وسط الساعات ،
كأننا رحلنا ورتب البيت نفسه ،

المرأة الثانية : كأن الساعة على المائدة – فجأة – توقفت
ومعها توقف الزمن أيضا ،

الثلاث معا : ولم يعد من الممكن أن يحدث شىء بعد ذلك ،
لاشىء يمكن أن يكون قد حدث ، –
كأن الولادات والجنازات كانت – آنئذ – أكاذيب

المرأة الثانية : والقدر الذى يمكن أن نسمعه يغلى على المرجل يصمت ،

المرأة الأولى : والدلو الذى يستخدمونه فى سحب الماء من البئر يصمت
أيضا ،

المرأة الثانية : انقطع الحبل ، غرق الدلو ، غرقنا –

الثلاث معا : غرق هادىء ، راحة مؤقتة ــ أن تعرف أنك غرقت
ولو ان شخصا ما فوق الماء ينادى باسمك ، فلن يعثر
عليك .

المرأة الثالثة : صوته وحده يغوص ببطء فى الماء
كالقرط الذى أسقطته أختك غير الشقيقة وهى منحنية على
البئر .

الثلاث معا : آنذاك ، وفيما تنعس ، تخز اصبعك الابرة التى كنت
تمسكها فى يدك ،
من تلقاء ذاتها ــ تقول لك « استيقظ استيقظ ، ليس
ذلك صوابا » ،
تقول لك ، كأنه ليس صوابا فى الكنيسة أن تنظر خارج
النافذة ،
وفجأة تنتزع الابرة ، تهز يدك اليمنى لأعلى وأسفل
على نحو ما ترسم الصليب على نفسك ،
لتتخلص من الشر ، لتطرد الروح الشريرة ــ

المرأة الثانية : وفى الحال تشد الخيط كأنك تشد حبل الدلو ،
تنتزعه وتقفز ،

المرأة الأولى : تنظر حواليك كمجرم ،
خوفا من أن يلمحك أحد هناك فى الحضيض ،
خوفا من أن تراك المرآة على الحائط ،

المرأة الثالثة : خوفا من أن تكون آنية القهوة التى تعكس الشفق
قد قالت أى شىء لبعضها ،

الثلاث معا : وعيوننا متأهبة دائما للاعتذار للجميع ،
للطفل ، والكلب ، والكنارى ، ما من كائن يظهر فى
طريقنا .
نتشبث بهذا الخيط الذى نمسكه ونتسلقه .

المرأة الأولى : وحده الخوف دائما ما يبقى ــ
ذلك الخوف من أن يضــــل أولادنـــا الطريــق ــ كل مرة
يخرجون فيها ــ
ويفشلون فى الرجوع ،

المرأة الثانية : من أن تعثر عليهم روح شريرة هائجــة والســكين بين
أســنانها ،

المرأة الأولى : من أن تسـقط على رؤوسهم ــ وهم ســائرون ــ لافتــة
المطعم الضخمة ،

المرأة الثانية : ضخمة جدا ومحدبة ، بمسامير قاطعة كأسنان الأسد .

المرأة الثالثة : هل ذلك هو المطعم الذى تعنينه ؟ ــ
عنده دجاجتان فى سفود مرسومتين فى الركنين العلويين ــ

المرأة الأولى : خوفا من أن تضربهم صاعقة وهم يفتحون أفواههم ليقولوا
ما هو صــواب ٠

الثـلاث معــا : خوف ورعب ــ كان الشــتاء قــادما ــ فيرتعد جسدنــا
بكامله ،
يقشعر جلدنـــا ، ندس أيدينـــا فى الجوارب الصوفيــة
لأولادنـــا الغائبــين
كأننـــا نمسك بأقدامهم كى ندفئها ، ــ
ونتدفـــأ ٠

المرأة الثانية : ننظر ــ فقط ــ الى الباب ، حتى لايدخلوا فجأة
فيجدوننـــا غــائبين ــ هكذا ــ عن الوعى ، وأيدينـــا فى
جواربهم ٠

الثـلاث معــا : آه ، لو ــ فقط ــ يجيئون
حتى لو وجدونا نقضم أظافرنا بجوار القدر ٠

المرأة الأولى : كانت هناك أيضا فجوة سرية في الحائط ــ
هناك احتفظنا ــ لأعوام وأعوام ــ
ببعض العملات المتبقية ــ أحيانا ــ من الشراء ،
هناك احتفظنا بهدايا العــام الجديد للأوقات الصــعبة ــ
ببعض الأشياء الرخيصـــة ،
وكنا نسد الفجوة بالورق ــ فلم تظهر ·

الثــلاث معــا : وفى بعض أيام الأحــد ، عندما كان الجميع بعيدين فى الميــــدان ،
أو على الشاطىء ، كنا نستخرجهم ، نحصيهم ــ
شيء ما لخطبة البنت ، كنا نقول ، زوج بنطلونــات للولد الأكبر ، ــ
لم يكن هناك ما يكفى ، ســيعطينا الرب ،
نقــــول ،
وكنا نبتهج ببيضـــة العش الصغيرة ·

المرأة الثانية : كم كانت ترتعش رموش ابنتنـــا وأنت تفردين زوجا من الملاءات المطرزة ،
زوجا من أكياس الوسائد أمام عينيها ،

المرأة الثالثة : غطاء أحمر للسرير بطائرين أبيضين جنبا الى جنب ،
يتعانقــان منقــارا لمنقــــار ·

الثــلاث معــا : لم يكن هناك ما يكفى ، كنا نعيدهم الى الحائط ·
ذات يوم ، فتحنـــا الفجوة ، كانوا قد اختفوا · لم ننطق بكلمـــــة ·
ظهرت أشياء أخرى ، أكثر خطورة ــ غطت عليهم ·
عــدا ذلك ، فمن حين الى حين ، نتذكرهــــم ونحن نقوم بأعمال المنزل
أو فى السرير عند المساء ،

في المعدة تماما ، أسفل المعدة ، قرب السرة ،
عقــدة ، نتوء مجوف ثقيــل ،
كأن تلك الفجوة في الحائط قد حدثت في جسدنا ·
ساوينا الحائط فيما بعد · ما ظهر شيء ·
ولم نكن ــ حتى ــ ندير أعيننا نحو هذه البقعة ·

المرأة الأولى : أوقات مسترخية جاءت أيضا ــ لا نستطيع الشــكوى ــ
مثلما حدث مساء السبت ، عندما سددنا ديوننا للبقال ،
وبقى من الزيت ما يكفي لأسبوع أو اثنين، بل ربما شهر ــ

المرأة الثانية : ومثلما فعلنا مع الغسيل ،
وكانت سلة الغسيل تجف سعيدة في الباحة ، والملابس
تجف مكشوفــــة ،

الثلاث معــا : بعدئذ كنا نلمهم ، نلقيهم فوق كتفنــا ،
فيلمسون خدودنـــا دافئـين ، ينفثون البخار ، بملمس
الزغب ،
يفوحون بالشمس والصابون وبالأريج الآخر لعمل اكتمل
ولشيء ما وردي ،

المرأة الثالثة : وشذرة زغب من نبات شوكي حطت على قميص الولد
وداعبتنا تحت الأذن ــ أرادت اضحاكنا ،
أرادت ردنا الى الشباب من جديد ، ــ
نجحت ، ــ وضحكنا داخل أنفسنا ،

الثلاث معــا : على هذا القبيل ، لانت أنفسنا بفعل عنائنا ،
متباهيات ــ في السر ــ بكل هذه الملابس على أكتافنا ،
كأننا كنا ــ بأنفسنا ــ نرفع العالم بأسره ــ وكان خفيفا،ــ
كنا نحن الذين جعلناه خفيفا ، وجعلنا خفيفات ·

المرأة الثانية : أوقات مسترخية ــ لا سبيل للشكوى ، ــ
والكي لم يكن ملحــا ·

الثلاث معا : ذات ليلة ، ونحن جالسات على العتبة ·
عندما كنا نحاول فى السر تخيل شكل القمر ـ
زهرية زجاجية

المرأة الأولى : مليئة بملح ـ رطب قليلا ـ

المرأة الثانية : أم انه ـ بالأحرى ـ مصباح تذور ذهبى
أم أيقونة عذراء لازوردية ـ

المرأة الثالثة : أم عش من قش زغبى وبداخله العندليب
وكان يغنى ، لكننا لم نستطع أن نسمع صوت زقزقته
العذبة ـ تويت تويت ·

الثلاث معا : وأحيانا ما كنا نتأمل أيضا ، وأحببنا ذلك ·

المرأة الأولى : أو أحيانا ، فى مساء احدى العطلات ،
نمضى من باب الى باب نثرثر مع السيدات الطيبات فى
الجوار ـ
من كانت تتزوج ، أو تتعمد ، أو تحتضر ،

المرأة الثانية : وكان بجيب مريلتك بضع لوزات ،
وكثيرا ما كنت تلمسينها بأصابعك ، تعتصرينها ،
لكى تحسى بشكلها القوى ، بخوافها الحادة ،
كقوارب صغيرة موصدة باحكام
تطبق على الجوزة البيضاء فى قشرتها ـ

الثلاث معا : تحسسنا اللوز القوى فى جيوبنا ،
لأن المساء كان واضحا ، وروحك أيضا كانت واضحة ،
وكانت الحياة واضحة
وكانت تهرب من يديك دون أن تدركها ·

المرأة الثانية : هل تعرف أن ذلك هو السبب فى أننا كنا ، فى داخلنا
الأعمق ،

فيما وراء الكلمات ، نتكلم ونحن صامتون
وكنـا ننصت لذلك الصمت العظيم الذى يزدحم بأشياء مجهولـــة ٠

المرأة الأولى : مثلما يحدث عندما تهتز الستارة من ذاتها ، دون ريح ،

المرأة الثانية : مثلما يحدث عندما ينطفىء المصباح الذى كنا قد ملأنـاه منـذ ساعـة ،

المرأة الأولى : مثلما يحدث عندما يستقر الغبار على الصندوق الحديد الذى يضم أكاليـل الزفاف الشمعيـــة ،

المرأة الثالثة : مثلما يحدث عندما تجد ـ على المنضدة التى نظفتها حالا ـ قطعة جبس مفتتـة ، ـ
وترفـع رأسـك ـ على الفور ـ لأعلى
فاذا بالسقف على حالته ،
وعنكبوت كبير يجاهد ليختبىء عن نظرك ـ لايختبىء ٠

الثلاث معـا : فى أمسيات الصيف ، لا تستطيع احتمال دخول البيت للنوم ـ
قليـل من وقت اضـافى فى الباحة ، قليـل من وقت اضافى لمشـاهدة العالـم ـ
ويجىء العالم الينا من جديد كحمار صغير طيب
بأذنين كبيرتين حادتين فى السمع ـ

المرأة الثالثة : وكثيرا ما يهز أذنه اليسرى ليهش نجمة أو بعوضـــة ٠

الثلاث معـا : وكنـا نعض على شـفاهنا لنمنع أنفسـنا من الضـحك بصوت عال ،
حتى لا يسمعنا الأطفال النائمون بالداخل ،

المرأة الأولى : حتى لا يسمعنا أزواجنا فيظنون أننا قد أصبحنا أطفـالا بسـخفاء ٠

الثلاث معا : كانت الأشياء ـ آنئذ ـ طيبة ،
ولم نكن ـ حتى ـ نعرف ذلك ـ هناك في الباحة مع البئر ·
كانت الصخور ما تزال دافئة من شمس النهار في برودة الليل ·
ومع الباب التالى يمكنك أن تسمع الدجاجات الدافئة في العشة وهى تنفش ريشها ،

المرأة الأولى : وغناء الصياد في قاربه في المياه الضحلة ، في الأسفل

المرأة الثالثة : والورقة الجافة الكبيرة تسقط من شجرة البشملة بصخب عال
بعدها يصبح الصمت أكثر صمتا كمرآة مهجورة تحت الأشجار ·

الثلاث معا : كنا نتعرف على الأصوات ـ
نستعيد تعارفنا مع شيء ما عطوف ، منسى ـ

المرأة الأولى : السلحفاة التى تزحف ـ دون أن يلحظها أحد ـ في الحديقة ببطء ،

المرأة الثانية : طابور الحباحب الذين يشعلون قناديلهم الصغيرة لينيروا طريقهم ،

المرأة الأولى : النحلة التى تنام في الوردة ـ
يمكنك أن تسمعها وهى تبتلع لعابها ،

المرأة الثالثة : وصرير أجنحة الفراشة ـ
لم تتكيف داخل القرنفلة ، مهتاجة دائما ، متقلبة دائما في نومها ·

الثلاث معا : وكانت أنوفنا تدرك الروائح واحدة واحدة من حديقتنا المروية الصغيرة ·

المرأة الأولى : هذه عترة ـ تقول أنوفنا ـ وتلك نعنـــاع ،

المرأة الثانية : وتلك ريحان أو بابونـج أو ورد

المرأة الثالثة : هذا بقدونس ، ـ وضحكة تقهقه داخلنا ،
مثلما يحدث عندما تهز ثوبـا قديمـا
فيسقط ـ مصلصلا ـ على الأرض خاتم طفـل صغير كنا
نظنـه قد ضـاع ٠

الثـلاث معـا : كانت الأشـياء طيبـة ـ وليس من الصـواب أن نكون
جاحـدين للحيـاة ـ
تلك الأمسيات التى يتحد فيها كل شىء ويتصالح الجميع،
البرعم، والقمر ، والكلب ، والكنارى ـ الجميع فى واحد،

المرأة الأولى : والقمر ، حقـا ، لم يكن غريبا ، كان قمرنـا ، أبيض ،
كاللازورد ،
دافىء كبيضة كبيرة باضتها الدجاجة منذ لحظات ٠

الثـلاث معـا : آه ، نعم، حقا، ـ فبين حين وآخر كانت لدينا قطرة وقت
لنرفع يدنا ونمسح العرق عن جبهتنـــا ،
بين حين وآخر لنلفظ «آه» بين ورقتين خضراوين ناضرتين
ونحن راكعات على الحوض ، نعجن الخبز للصغار ،
رفعنا ـ بلا قصد ـ عيوننا، ـ الى النافذة التى كان يقف
بها طائر صغير ويرقبنا ـ نسينا أنفسنا ،

المرأة الثالثة : أعتقد أن الطيور قد أكملت لنا العجن ونحن ننظر ـ

المرأة الثانية :وربما أكملناه نحن أيضا ـ من يدرى ؟ ـ
لم نصـــنع أرغفـــة ،

المرأة الثالثة : بل صنعنا طيورا من العجين ، نثرنا عليها سكرا ،
ونثرنا على أجنحتها حلوى حمراء وزرقاء ،

وضعنا قطعتى قراصيا مكان العينين ، ـ
استمتع أطفالنـــا كثيرا بهم

الثـــلاث معـــا : بل لم يعرفوا ماذا يفعلون بهم :
هل يأكلونهم أم يلعبون بهم ٠
أزواجنا ـ وحدهم ـ تجهموا وعبسوا،عاقدين حواجبهم ـ
من يهتم ؟

المرأة الثالثة : لمرة وحيـــدة ، صنعنا ما أردنــــا ،
بالطريقة التى دلنا اليها الطائر وقلبنـــا ٠

المرأة الأولى : يا صديقاتى ! تذكرن ذلك الغروب الربيعى ،
الهادىء ، الصـــامت ، هبـــة الرب ـ والبحر ناصـــع
كالكريستال ،

المرأة الثانية : صوار وحبال ومجاذيف مبلولة ،
حمرة داكنـــة تومض ،

المرأة الأولى : هلب منصوب ـ تتعلق فى أطرافه قلائـــد براقة ـ
أى مرجان ، أى يواقيت وذهب ـ

المرأة الثالثة : فتـــاة صغيرة تتمشى وحيـــدة على الشـــاطىء فى الأســـفل
كأنها تتمشى فى عالم آخر الى نفسها ـ
لم تكن جبهتها محنيـــة ٠

المرأة الثانية : وفجأة تظهر جزر صغيرة فى البعيد ، بعيدا فى البحر ـ
لم نرها أبدا من قبل ، لم تكن هناك من قبل ـ

المرأة الثالثة : جزر صغيرة لازوردية ، شـــفافة ،
تضىء كلها دفعة واحدة فى الغروب ،
تومض كالجواهر ، تحترق وتموت ،
ثم تتحول الى رماد ، لتذوب في الليـــل ٠

الثلاث معا : لكننا رأيناها بأنفسنا وعرفنا بوجودها ،
وعرفنا أن العالم كبير ، أكبر مما استطعنا رؤيتـه ،
وأننـا لم نكن وحدنـا •

المرأة الأولى : وفجأة وصل مندوبون ذات شـفق ،
من بلد ، على ما يقولون ، بلد كبير ، بعيد ،
به ملايين السفن ، به بيوت بيضاء كبيرة ،

المرأة الثانية : ناس من حجر، على ما يقولون، يقفون منتصبين على أعمدة طويلـة ،
ولديهم مدارس كثيرة من حجر أبيض •

الثلاث معا : واعترانا شـعور قلـق ـ
ثيابهم كانت جديدة ، وصولجاناتهم المزخرفـة فى جمال لامعـة ،
لم ينظروا الينا مباشرة فى عيوننـا ،
كانوا ينظرون من أعلى، فيروا شيئا ما لم نستطع رؤيته •
سفن كبيرة بخمسين مجذافـا اصـطفت أمام جزيرتنـا الصغيرة •
لم يطأ بحارتها أرضنا ، لم يدخلوا مطاعمنا ،
استلقوا هناك منبطحين فى انتظار الاشارة •
جاء هؤلاء المندوبون وحدهم من الأرض الأجنبية ،
وكانوا ــ على ما يقولون ــ يونانيين أيضـا •
جمعوا أزواجنـا وأبناءنـا

المرأة الأولى : عند المتراس العلوى ، حيث يوجد المدفع القديم الصدىء،

المرأة الثانية : ذلك المدفع الأعوز ، المهمل هناك منذ عهد أجدادنا

المرأة الثالثة : ليتسلقه الحمام والعصافير والأولاد ويمتطوه ،
متظاهرين بأنهم فرسـان عظماء
فى أمسيات الصيف ، قبـل العشـاء ،

ويمدوا أيديهم فى قمة الخاوى
ليمسكوا بقدم الجنية ، ربما ، ويصبحوا رجالا شجعانا.

الثلاث معا : جمعوهم عاليا هناك ،
ونحن فى كل ناحية ، التصقنا بالأبواب .
تكلموا بهدوء (آه،هذا الهدوء الذى تشمه قبل العاصفة) ـ
لم نستطع فهم كلماتهم ـ التقطنا جرسها وحده .
« استسلموا » ـ قالوا ـ « والا سندمركم » .
قالوا الكثير ، قالوه بكلمات مختلفة ـ
ذلك ما فهمناه : « استسلموا » . ـ

المرأة الأولى : أمثل ذلك يأتى من البحر ؟

المرأة الثانية : مثل ذلك وأيدينا معقودة ؟

الثلاث معا : كنا نتطلع الى أزواجنا ـ

المرأة الثانية : الفك مطبق ـ أخرس ـ
كأنهم يحملون فى أفواههم قصف رعد هائل .

المرأة الأولى : والآخرون واصلوا الحديث ـ
عيونهم تزداد صغرا ، كلماتهم تزداد سرعة ،

الثلاث معا : أفواههم تزداد اتساعا ـ كانوا يبتلعون كل هوائنا
لم يبق لنا شىء كى نتنفس .
ورجالنا ، صامتين كالحجر ، قالوا شيئا ما
من قلب الحجر ، قدموا ردا ما ،

المرأة الأولى : قالوا شيئا ما عن « الشرف » ،
شيئا ما عن « الوطن » (وقرقعت هذه الكلمه

المرأة الثانية : على نحو ما يقرقع أساس البيت فى الزلزال
فتظن أن كل النوافذ ستتحطم ،
ومعها زجاجات « الراكى » الجيد فى الرف على الجدار

المرأة الأولى : الزجاجات التى احتفظنا بها للزوار) .

الثلاث معا : تكلموا جيدا ـ فأحسنوا ـ
« الشرف »،« الوطن »، وينظرون الى أسفل فى أحذيتهم.
وبعد ذلك كلمة أكثر صعوبة ، أكثر عظمة ـ
أسموها « حرية » ـ

المرأة الثانية : نعم ، « حرية » . فومض ضوء أسود هائل عاليا
حتى منتصف السماء ،

المرأة الأولى : نعم ، « حرية » ، ولم نعرف ما الذى تعنيه ـ
وفاضت عيوننا بالدموع ،

المرأة الثالثة : فاض البحر تحتنا بالدموع ،
وتحول الشاطىء الى زرقة الحبر .

المرأة الأولى : انفجر طفل فى النشيج فجأة ،
كأنهم قد ذبحوا ـ أمامه ـ أباه .

المرأة الثالثة : والعمة « كوستينا » تقدمت خطوة ،
وضعت يديها خلفها وفكت مريلتها كأنها لن تعمل بعد الآن .،
ثم جاهدت لتربطها مرة ثانية باحكام أكبر ، ـ
ولم تنجح فى ذلك .

الثلاث معا : كنا نرى يديها ترتعشان ـ
يدان كبيرتان كأيدى جزيرتنا كلها ، ـ
لم تستطيعا العثور على أربطة المريلة ،
وقد تظن أن الأربطة قد ضاعت ،
قد تظن أن أصابعها أصبحت أكثر رخاوة .
كان الصمت حولنا ينتشر ، ـ

ولا تستطيع أن تسمع سوى قرقعتــه ؛
الحركات كانت بطيئة فى الظهور ،
وتظن أن عامين أو ثـلاثة قد مروا منذ أن تدخل يدك فى
جيبـــك ،
فتعثر على فص ثوم ، وتكسره ٠

المرأة الثالثة : أما الجدة العجوز ذات المائة عام ،
السيدة « كاتينا » التى تداوى بالأعشاب ،
والتى يمتلىء بيتها كله ــ من الداخل والخارج ــ بأكياس
صغيرة
لا تحتوى سوى على أعشـــاب ،
معلقة على الجدران فى مسامير صدئــة ، ــ
اندفعت السيدة « كاتينا » الى السطح ، ممسوسة ،
وهى تحمل مرتبتها القش ،
رمتها فى الشرفة وراحت تضربها بعصا غليظـة
كأنها تضرب شخصا ما على مؤخرتــه ٠

الثـلاث معــا : وفجـــأة
ماذا كان ذلك الضـــوء الســاطع ،
ذلك الهدير ، تلك الغيمة من غبـــار ؟ ــ
هل اشتعلت فى مرتبتها النـــار ؟
هل اشتعلت النار فى أكياسها المعلقة على الجدار ؟
هل كانوا يطلقون قنابل المدافع من الســفن ؟ ــ
متى ــ فى ذلك الحين ــ وطأ أرضنا الغربـــاء ؟
وأين وجـد ناسنا السيوف ؟
جدران التحصينات كانت تهوى والصخور تنفجر ،

المرأة الأولى : الزيت الساخن كان يفور فى القنوات ، والدم يجرى ،

المرأة الثانية : وهذه الكلمة المزدوجة « الحرية أو الموت »
انفجــرت فى الفضـــاء ،

المرأة الثالثة : كف مطبوعة بالدم على باب المطعم ــ
الباب الموارب ــ كان الجميع يجرون ــ

المرأة الثانية : صيحات « الحرية أو الموت » من الحصن العالى ،
من الشــاطىء الأســفل ــ

الثــلاث معــا : كنا نحن الذين نصيح ، ألم تكن نحن ؟ ــ
أصوات عالية ــ ألم وخوف ــ

المرأة الثانية : (بين الألم والخوف ، كان الخوف هو الأقوى) ــ

المرأة الأولى : لا الألم ولا الخــوف ــ
كانت العوارض الخشبية تحترق ، وتهوى ،

المرأة الثالثة : والنار اشتعلت فى علم مبنى البلديــة ،
فتوهج وهوى فى الشفق مثل ورقة شجر صفراء كبيرة ــ

الثــلاث معــا : التفتنــا لحظــة ورأينــا ــ
كانت السارية تحترق مثــل اصبع وحيــد
لم يعد لديه ما يشير اليــه
« الحرية أو الموت » ــ كنا نجرى من جديد ــ

المرأة الأولى : أية حرية ؟ ــ أي موت ؟ ــ أين ذهب أطفالنا ؟ ــ
كنا نجرى على غير هدي ، الى أعلى الى أسفل ــ
كان المكان يتبــدل
ولم تكن تستطيع القول أين توجد بيوتنــا ــ

الثــلاث معــا : لم تكن هناك بيوت بل ألسنة حمراء كبيرة ،

المرأة الثالثة : فى جرعة واحدة كانت تبتلع شرفة ، أو سقفا ،

المرأة الثانية : معلقا ، تعريشة كروم ، بابا ، نافذتين ،

المرأة الأولى : الكنيسة بأبراج الجرس ــ خوف وألــم ،
ــ لا الخوف ولا الألــم ــ

الثلاث معـا : آه ، كيف تنطقون « حريــة » ؟
كيف تنطقون « مــوت » ؟
لقد حددتم اختياركم مقدما ــ وحده الموت .

المرأة الأولى : لم يتركوا أى كائن ذكر ــ
وعيوننـا لم تعرف كيف تبكى ،

المرأة الثانية : والأقدام كانت تجرى من تلقاء ذاتها ــ
لم نعرف الى أين كانت تجرى ؛

المرأة الثالثة : والفم كان يصيح من تلقاء ذاتــه ــ
لم نعرف بم كان يصــيح ،

المرأة الثانية : والعيون كانت ترى من تلقاء ذاتها ــ
لم نعرف ماذا كانت ترى .

الثلاث معـا : كل شيء سواد واحمرار ، ــ حصان يجرى ،

المرأة الثالثة : بقرة تهز ذيلها ــ فتهش ذبابــة ــ
ذلك ما رأينـــاه ،

المرأة الأولى : زجاج نافذة مكسورة فى العشب ،

المرأة الثانية : قطة مقتولة على القرميد ــ لم يكن هناك بيت ــ

المرأة الثالثة : قرميـــد المطبخ وحــده ، ــ
واحدى عينى القطـة نصف مفتوحـــة ،

المرأة الأولى : والمستوقد يشتعل فى الشتــاء ، ــ
دجاجـــة تقوقى

المرأة الثالثة : امرأة عجوز ترتدى أسمالا خطفت البيضة .
كانت البيضة بيضاء ، مستديرة تماما ــ
كسرتها وامتصتها ، والبياض سال على شفتيها ،

الثلاث معـا : كان شخص ما يصــيح « ابنى ، ابنى » ــ
يصيح من داخــل الآبـــار

المرأة الأولى : والمتسول الأعمى على سلالم « سان نيقولا »
كان مايزال يمــد يـــده ،

المرأة الثانية : قطعها أحد الجنود بضربة سيف واحــدة ،
والتقطها من الأرض ،

المرأة الأولى : كأن الدم يتفجــر نهرا ـ
« خذها » قال له ، ورماها عند ركبتيه ،
« يا الهى » صرخ أحد الأصوات ـ من صرخ ؟ ـ
صرخ مرة ثانية « يا الهى » .

الثلاث معـا : وذلك الصوت « ابنى » ، « ابنى » ، « ابنى »

المرأة الثالثة : من أظافر قدمك الى جذور شعر رأسك ـ لن يتوقف .

الثـلاث معـا : ثم لاشىء ـ خرس مع صوت خطى أجنبيــة ، ـ
وحــل الليــل .
بالنسبة لنا ، قيدوا أيدينا ، ورمونا في السفن ،
الواحدة فوق الأخرى ، أكياس مربوطة ، أكياس طرية ـ
لم يكن بالأكيـــاس شيء ،

المرأة الأولى : ولا حتى شيء تافه ، لا مذراة ، ولا ذكرى ـ خاوية .

المرأة الثالثة : كيس خاو يحس بالألم ولا صــوت لــه ،
ولا يلفــظ « آه » ،

المرأة الثانية : كيس خاو ـ لا ، ليس خاويــا ، ـ
كانت به عظام ، فعندما كان كوع بداخله يرتطم بخشب
السفينة ،
كان يصــدر صوتا مكتوما ،

الثـلاث معـا : كان يمكن سماع صوت واهـن ، ـ
كانت عظامنا داخــل الأكياس .
حملونا الى هنا ـ عبيدا فى أرض أجنبيــة ـ

المرأة الأولى : لا نعرف المكان ،
وأيدينا لا تعرف الإمساك بالمكنسة ،

المرأة الثانية : مطرقة الباب ، ركن المنضدة ، الامساك بالجرة ـ
أجنبى ، أجنبى ـ

المرأة الثالثة : أنوفنا لا تعرف الهواء ، لا تتعرف على الروائح .

الثلاث معا : المرتبة محشوة بمسامير ـ
تتقلب يمينا ويسارا ـ لن يغلبك النوم ،
وذاكرتك مليئة بمسامير ،
لا مكان لتحنى ظهرك ،
جدار وحيد ، عال ، بلا ركن لتحتمى به من الريح ،
جدار ملىء بالمسامير ، مثل جدار السيدة « كاتينا » ـ
وأين يمكنك الآن أن تعلق الأكياس الصغيرة
ذات الأعشاب القديمة ، حيث المقصات ،
وسلة من التوت البرى ، وقبعة حمراء ، ومرآة صغيرة ؟

المرأة الأولى : ما الذى يمكن أن تفعله بمرآة ؟
ما الذى يوجد لتراه ـ وجه الموت القبيح بالأنف المجدوعة؟

المرأة الثانية : الأسنان العارية فى ظلمة الليل ؟ ـ
عيوننا أظلمت ـ لا ترى ،

المرأة الثالثة : عيوننا لا تعرف الأشجار ، لا تعرف البحر ،

المرأة الأولى : بحر بلا ملوحة ، بلا طحالب أو أسماك ـ لا رائحة .

الثلاث معا : هنا ، سرا فى الليل ، اجتمعنا معا ، مستوحشين ،
بالمنديل الأسود يعصب عيوننا
هنا ما نزال نتساءل ، نتساءل بلا كلام
هل كان لميلو وجود ، هل كان لنا أيضا وجود ،
نحن نسوة ميلو ، أكان لجزيرتنا وجود ؛
وهل كبرنا نحن أنفسنا هناك ، وعملنا وتزوجنا
أنجبنا أولادا ما عادوا لنا ؟

كيف حدث ذلك ؟
كيف يمكن حقـــا أن يكون ذلك الذى ما نزال نتـــأمله ونـــذكره ؟
لابـد لذلك أن يعنى ـ اذن ـ أن ميلو كانت موجـودة ، أننا ـ أيضا ـ كنا موجودين ، وأننا ما نزال ـ

المرأة الأولى : وأن تلك الكلمة ، ذات شفق ، « وطن » موجودة فينا ،

المرأة الثانية : وأن تلك الكلمة « حرية » موجودة ، ذات مساء ، فينا ،

المرأة الثالثة : وأن تلك الكلمة الأخرى ، رفيقـة الحرية ، « الموت » ، تأكل فى أحشائنـــا ،

الثلاث معا : كبذرة أزواجنا ، تكبر وتكبر ، فتملأنـا ـ
هيه ، حامل من جديد فى السبعينيات ، فى الثمانينيات ،
لنلد ـ من جديد ـ أطفـالا كثيرين ، ألف طفـل ، أولاد وبنات جزيرة ،
لنلد ـ من جديد ـ ميلو ذات الخدين المتوردين
يا الهى ، هل أصابنا الجنون ؟
يا الهى ، هل متنا وبعثنا كطيوف ليلية من الجانب الآخر من العـــالم ؟
الرحمة يا الهى ، الرحمة يا الهى ، الرحمة يا الهى ـ
نرسم الصليب على أنفسنا ، ها هى يدنا ، ـ نراها ،
انها ترسم شارة الصليب هناك ،
وهناك ظلها على الشرفـــة ـ
يد جديرة ـ آه ، يا الهى ـ بأن تحمل من جديد
الخبز ، والطفل ، والسكين ، والعلم ٠

(الفجر يشرق عن بعد ناحيـة البحر ، ـ وهـج وردى فـاتن ٠ كتلة جزر صغيرة مبعثرة هنـا وهنـاك تنبثق ـ لازوردية ، شفافة ، بعيدا، كذلك الشفق الذى

يعـود ـ الآن ـ الى ميلو • النسوة العجائـز يتطلعن • وجوههن تبـدو وردية ـ وتظن أنهن يعدن الى الشباب من جديـد • وبطونهن تبدو ـ حقيقـة ـ كأنها تكبر ، وهناك ميلو ، هناك ، هناك ، الى اليسار أكثر قليلا ، بكل بيوتها ـ ليست ذكرى وحلما ـ حيـة • الزجاج يلتمع فى النوافذ • وأربعة شبان رائعون عند الميناء فى الأسفل على الطريق الساحلي ـ اثنان فى المقدمة واثنان خلفهما • وعارضـتان كبيرتـان على أكتافهم • على قمة العـارضة ، يحملون كنيسة بيضـاء • والفخار الأول يمر مع حماره الصغير المحمل بجرار وأباريـق جميلة الزخرفة • « صـباح الخير ، يا سيداتى الكبيرات » ، يقول • « هـل قال لنـا ذلك ؟ ـ » تسـاءلت النسوة العجائز • « صباح الخير ، أيها الشاب الوسـيم » ، يجبن • يمر • « ألا يشبه ذلك ما يحدث فى ميلو ؟ » ، قالت احداهن • « الشاب ؟ الأباريق ؟ ـ نعم ، تماما كما فى ميلو » ، قالت الثانية دون انتظار لاجابـة • « انهم يشبهون تماما ميلو » ، قالت الثلاث ، وفتحن أذرعتهن الى البحر كأنهن يتمطين ، كأنهن يسـتيقظن من كابوس ردىء) •

(ساموس ، سبتمبر ـ نوفمبر ١٩٦٩)

حجـــرة البـــواب

* بيـــاض كثير

خلف النوافذ الزجاجية ، الدكان الخاوى ، كله أبيض ـ
حوائـط بيضـاء ، طاولات بيضـاء ،
على الطاولات صناديق بيضاء بها بيض أبيض .
فقط ذبابة كبيرة سوداء رفرفت أمام زجاج النافـذة .
وكنت متأكدا تماما أن صاحب الدكان
قد توفى منذ برهـة يسيرة فى الحمام
والعملات فى جيبه من بيـع البيضات الأخيرة ـ
بيـاض كثير لم يطلق سراحـه ، بياض كثير غير مطلوب ،
وحيـــد تماما ، باهـر .

* اعمـــق

أكثر عمقـا ، ـ قال ـ بل أعمـق
(بايقـاع ـ أيضا ـ فى الهبوط ، باستمراريه) ـ
هناك تكمن النقطة الوحيدة الثابتـة .
شيئا فشيئا تعتاد العين على الظـلام .
تميز افتقاد الحوائط ـ افتقاد السقف ، افتقاد السلالم .
لا نوافذ زجاجية ، لا مرآة ، ولا الخزانـة القديمة .
الستائر معلقة فى الفراغ الأوسط بدبابيس .

وذبذبات خطواتك المبكرة الواهيـــة
على ابريـق اللبن النحاسى
الذى ترك فى الصباح الباكر ، مع ندى الربيـــع ،
أمام بوابـة الحديقة غير المحكمة ، البيضـاء
أو على الابريـق الفخار الآخر
الذى تحمله على رأسها المرأة الصامتـة ٠

* قرب الفجـر

آخر الليـــل ، عندما يبدأ المرور فى الخفوت فى الشارع
ويترك رجال المرور أماكنهم ،
لا يعرف ما الذى يفعله بعد ذلك ،
ينظر من النافـذة الى أسـفل
الى النوافـذ الزجاجية للمقهى الكبير ،
المغبشـة ببخار السهر ،
ينظر الى عاملى المقهى منكسرين فى الضوء ، كأشباح ،
متجاورين خلف الطاولة الطويلة ،
ينظر الى الســماء بثقوبها البيــضاء ،
التى يمكن — من خلالها — رؤية عجلات الأتوبيس الأخير ٠
وبعد ذلك ، « لا شىء آخر ، لا شىء آخر »
يعود الى الغرفـة الخاويـــة ،
يحنى جبهته على كتف تمثاله (الأكبر من الطبيعى)
فيحس ببرودة الصباح على الرخام ،
بينما الحراس — أسـفل فى الســاحة مع أحجار الرصــيف المكسورة —
يلملمون شظايا الآلات الوترية من طرود المنافى ٠

* استقالة جزئية

هكذا حدث أن انقلب النهار فجأة الى نهار غائم .
فقد الساحر قبعته الرسمية مع الطيور .
وربط البهلوان حبله الى رجل المنضدة .
فى الممر أوراق لعب الليلة الماضية مرمية مبعثرة .
وفى الغرفة العلوية، الرجل الميت ممدد ـ وحيدا ـ على السرير
بثيابه والحذاء متقاطع فى يديه ، مفتوح العينين ،
يحملق فى السقف بذلك الغثيان الواضح
من كل هذه الذرائع ، والالتواءات ، والأقنعة ،
من كل هذه الأزرار فى البنطلونات ، وخاصة فى الصدرية
عندما يكون الموت واحدا ، بلا نظير ، وحيدا
وحوض الغسيل ذو المرآة المكسورة غير صالح للاستخدام .

* حركة

توفيت أمهاتنا مبكرا .
فكيف كبرنا على هذا النحو بين أيدى غرباء .
صباحات شتائية مع كسرة خبز مغموسة فى ماء وقليل من
سكر .
رنين المنبهات قطع نومنا الى النصف .
خرجنا الى الشارع دون اغتسال .
ظللنا ننتقل من بيت الى بيت كل حين وآخر .
وكنا دائما ما نترك خلفنا شيئا ما ـ
صندوقا به بعض الكتب ، ماندولين مكسورا .
سوف نمر ـ هكذا كنا نقول ـ ذات يوم أحد لنأخذهم .
لم نمر أبدا .
وحقيبة الملابس هذه وسط الغرفة ، مغطاة بالخدوش .
مع أربطتها المبعثرة على الأرض .

بالداخل تركنا تعويذة قديمة فى خيط أسود
مع تلك الصور المتسخة التى رأيناها ألف مرة
المزدحمة بنساء عاريـات ، من النموذج القديـــم ،
لهن حوض عريض ، وخصر نحيل وصـــدر كبير ٠
احداهن كانت ممددة ووجهها لأسفل كأنها تبكى ٠
كانت ـ بالفعل ـ تبكى أمام الحائط
ذى المسامير الصدئة التى يتعلق بها زوج من المقصات وحمالة البنطلون ٠

❋ اقتـــراح

لا تتكلم بصوت عال ، فلا أستطيع احتمال الأصوات العالية ٠
فالجميع يزعقون ، ما الذى يجنونه ؟ ـ قال
فاذا ما تكلمت برقـة أكبر ، فسوف أصدقك ٠
المنبـه خبأته فى صندوق الثيـــاب ، ـ
فهو مصمم على تقطيع وقتى الى فتات ، كأنه من أجل عصافير الشـتاء ٠
لكننى لست طائرا ، ـ أريد وقتى سليما
بلا صرخات أو صخب مثـل قطار ما بعد الظهيرة ، المنحدر فى الشــــارع ،
أسفل طريق « ليوزيون » بعربات كثيرة ٠ واحدة وراء الأخرى
محملة بالفحم والمجارف فوق الكومــــة ٠

❋ فنـــاء

عميقا فى الفضاء الداخلى ، بلا أيـة أشجار ،
لكنه يضم الأشجار التى أصبحت مقاعــد ،
وكراسى ، ومناضــد ، وصناديـق ٠
على صندوق الثياب تجلس المرأة الصامتة ، تغطى رجليها

تنظر الى اليرقة وهى تزحف على الأرضية ـ
يرقة خضراء ، لزجة تائهة ،
نفس اليرقة التى أكلت الخشب وتأتى الآن لتأكل البيت .
والصور المعلقة على الجدران والحبل المتدلى من السقف ٠

✻ رقصة امرأة تجاوزت الشباب

لا تخبرنى ٠ دعنى أخمن ـ تقول ـ اننى أخمن ٠
أقفز من شرفة الى أخرى ،
وأنا لا أحرك غير أصابع يد واحدة ٠
أحل الستارة البيضاء ٠ أرميها على كتفى ٠
أتذكر أننى حافية ٠
وهو ما يجعلنى أشعر بما يشبه الرقص ٠
أرقص فى الهواء ٠ انظر ٠
قدمى اليسرى أكثر خفة ٠ اليمنى أكثر مهارة ـ
اننى مطاعة ، انظر ، وموجودة ٠
فكل حبل ، فى طرفه ، فى حافته الأخيرة ،
له عقدة محكمة تمنعه من الانتسال ٠
أليس ذلك هو ما يحدث مع غير المتوقع ؟ ـ دائما فى النهاية ـ
آه لو أستطيع تعليم أحد ما هذه الرقصة ٠

✻ أبنية

أكنت أنت الذى علقت البطانية الصفراء فى الشرفة ؟
أكنت أنت الذى رسمت شارة الصليب فوق الخبز ؟
لقد كنت وراء الحائط ٠ ورأيت ظل يدك اليسرى على الباب ٠
أما السكين فلم أرها أبدا ٠
الباقى أغفلناه كله ـ

كيف تشكلت الكلمات، كيف يتمشى حارس الغابة وحيدا على
التـــل ،
قبــل حلول الليــل والأحجــار تتجــدر ــ
تقضمها الكلاب ، تحملها الى النهر ، عنــد المرجــل ،
حيث تغســل النسوة ــ فى هــدوء ــ ملابس الميت ·
آنئذ تقف الكلاب بلا حراك ، وأفواهها مفتوحــة ،
تكشف عن أسنانها ، كأنها ما تزال تحمل نفس الأحجار
وتنظــر الى أعلى ــ
هذه الأحجار التى بتينــا بها البيت غير المأهول بلا سقف ·

* اعتراف صــــعب

لقد كنت أنا الذى أخذت المسامير وألواح الخشب · فلا تخنى
كان بمقدورى ألا أخبرك · لا أستطيع ·
بينما كان الآخرون يدقون ، وهم عرايا فى الشمس ،
صعد السلالم مرتديا ثيابــه ، وربطة عنقــــه ·
فتــح الخريطة ، كبيرة تماما ، وأشار باصبعه ·
جعلنى أتجمد · فلم تكن الشواكيش مسموعــة فى الدق ·
الآن أعرف الفرق بين الورق والحديــــد ·
فالعــالم ينقســم الى اثنــين ·
وسواء وافقت أم لا ، فلن يتوحــــد ·

* تحـــولات

تعاملت مع الدب الأسود برفق ــ يقول ــ فروضته ·
فى البداية قدمت له خبزى ، ثم رأسى ·
فالدب ــ الآن ــ هو أنــا والمرآة ·
أجلس على الكرسى ، أبرد أظافرى ،

ألونهم بالأحمر أو الأصفر ، أنظر اليهم ، يرضونني ·
لا أستطيع لمس أى شيء · فأنا خائف من الموت ·
صنعت تاجا بعد ما تحررت من السلسلة حول رقبتي ،
وضعته على جبهتي ·
والآن ، ماذا أفعل ؟
على أن أقف مرفوع الرأس ، أنظر دائما الى أعلى ·
مع ذلك ، ففى منتصف الليل ، فى سهرى الجديد ، ولا يهم كيف أمشي ،
أسمع صدى خطواتي يتردد فى الأسفل تحت الباب المسحور ،
بينما السلاسل الأخرى تتدلى من الجدران ·

* علاقة

لقد اتهمت السيدة العجوز الوحيدة ،
بفكها الملتوى ، وعينيها القاسيتين ، وأسنانها السوداء ·
الآن تتمشى مع الكلاب وسط القاذورات ·
يداها طويلتان ، نحيلتان ، معتنقتان فى سمو بكر ·
تنظر الى نافذتك · ترمى لها منديلها الذى نسيته ·
تتركه يسقط على الأرض ، وتلتقطه ، تفتحه ،
تضعه تحت ذراعها ، تصعد السلالم ،
تضعه على عتبة بابك من الخارج —
لا تدخل ·

* ايماءة

ها هنا — مرة أخرى — شيء ما يستهويك ، بلا توقع ، شيء ما بلا أهمية
كايماءة امرأة تأخذ الورود الجافة من الزهرية
لا تتخلص منها على الفور ، بل تتوقف ، تفكر ،

حركة مرجأة ، بل نادمــة ســلفا ــ
اذا ما حــادثتها فلن تســمعك ــ
ايماءة صماء ، كالكلمة التى تضعها فى قصــيدة
وبعدها تدور هنا وهناك متسائلا : « هل قلت شيئا ؟ »
ولا تبــالى بأن الحرب قد أعلنت
وأن الطائرات الكبيرة تمزق الغروب
بظلال سوداء ذات حدين فوق الأحمر .

* مقــارنة مهيبــة

المقهى ، والصيدلية ، والمخبز ، باب أحدهم بجانب الآخر ،
أبعــد قليــلا محــل الزهور الصغير .
النــاس لا يتوقفــون .
النساء ينظرن الى انعكاساتهن فى النوافذ قبل حلول الليــل
مبــاشرة .
خلف الحائط غير المكتمل فى حقــل الخبازى
يرمى الجميع أشياءهــم ــ صوانى كرتونيــة ،
زجاجات دواء ، أكوابا مكسورة ، فناجين ، زهورا عفنــة .
هنــاك مكان تجمــع النســاء والكلاب .
يبحثون فى الكومة بعناية ، بذهن شــارد ــ
لا يرون الغروب الذهبى ،
يبحثون كالشعراء يبحثون عن القصــيدة ،
وأكثر النساء العجائز بؤســا ، المهجورات ، سعيدات
بقشرة برتقالــة جافــة ، بجزء من مرآة مكسورة ،
بزجاجــة دواء زرقــاء ما تزال تحمــل
الآثــار البيضــاء للحلزون المتشرد
وفى جوفها صوت القطار الذاهب الى « لاريسا » .

* النوع الآخر من الدقـــة

عليك بالقياس جيدا ، وأن تحسب بدقة الحدود والأبعاد .
بذلك ، تمد ـ منحنيا ـ عصـا القياس على الأرض ،
مستغرقـا ـ بذلك ـ في المرات التي قد تكون نسـيت فيها
الحدود ـ من يـــدرى ـ ،
فقـد تكتشف الدقة الكبرى ، وحيدا وذاتيـا ،
عندما ستلمس أصابعك ـ بالصـدفة ـ على الأرض
مشبك حزام « هيلين » ـ الحزام الذى كانت ترتديه ذات مساء
وهى تراقب ـ من فوق الأسوار ـ معارك اليونانيين والتروجانز
وخلفها ـ كالمصير ـ الكلبة السوداء الحامل
تتبعها ـ منتشية ـ بعينيها الناعستين .

* لقـاء غير متوقـع

لاشيء ، بالطبع ، ينشأ بكامله من تلقـاء ذاته .
وأنت أيضـا لابد أن تبحث كى تعثر عليـه .
فى الصباح تدخل الشمس من النافـذة الشرقيـة ،
تغير لون الكرسيين الأرجوانيين ، تبقى برهـة ،
ثم تنسحب مخلفـة وراءهـا الشعور بالسكينة ـ
هذا التـلاشى الهادىء .
وزهور السجادة التى داستها الأقدام ، لها حقها ،
لها آذانها التى سحقت فى الأرض ،
تسمع الركض الايقاعى للخيول السريـــة .
آنئـذ تدخـل المرأة الصـامتة ،
ولك أن ترى أنها حريصة على ألا تدوس هذه الزهـور .

ما لا يصـدق ربما يمكن قبوله من شخصين معا
رغـم أنه لا يكشف نفسه ـ أبدا ـ الا لشخص واحد .

* تعـــاطف

البيوت التى قضينا فيها حياتنا
نفس البيوت التى نبحث كل يوم فيها
فى الأقبيـــة ، والدواليب ، والمصـــابيح ،
خلف المرايـا ، أو تحت الأسرة ،
عن دبوس شعر ، صـــندوق مجوهرات ، سـاعة مكسورة .
عن علبــة كبريت قديـم ــ لم يعـد يشتعل ــ
عن أشياء كنا نعرفها فأصبحت فجأة
مجهولة وبعيدة ، أو العكس تماما ،
فى هذه البيوت ، تحت المناضـد
عن شريحة خبز باليــة (من يدرى من أى عشـــاء ؟)
لا لنأكلها ، بالطبع (فلم يعد أحـد جائعــا) ،
فقـط لنكتشـفها .
ولو ان شخصا ما دخل الغرفـة فى هذه اللحظـة ،
فاننـــا نقضـــم الخبز فى الحـــال
ــ رغـم الخوف من كسر سـنتنا الأخيرة ، ــ
هناك فى شـفق الأمســية الهادئـة للغرفـة ،
فى الليونـة العذبـة العميقـة للزمن
فى تعــاطفنا مع أنفســنا ، مع كل شىء ، مع الجميـــع .

* كلب عجـوز مالـوف

عرفنــا هذا الكلب لسنوات طويــلة ، ــ دائما هو
دائما بعظمة كبيرة فى أســنانه ، لا هو ياكلها
ولا هو يرميها من أسنانه (فكيف يستطيع بذلك أن ينبح ؟)
الا اذا كان يختبىء ــ كل ليــلة ، ونحن نائمون ــ
ويقضمها فى السر ،
ثم يجد ، بالتنقيب فى مكان ما ــ من يدرى ــ

عظمة جديـــدة لليوم التـــالى ،
الا اذا كان قد عرف أن النبـــاح بلا فائـــدة أبدا
أنه لا يحمى أحدا ، لا البيت ولا الحديقة
لا النافورة ولا هو نفســه من القمر ، والزمن ، واللصوص .

✻ الى أعلى

كان ذلك كل شىء .
من النافذة كان الناس يرمون عملات ذهبيــة .
والآخرون ، فى الشـــارع ، لا يأخذونها .
ظلوا بلا حراك ، بلا صوت ينظرون الى أعلى
ربما الى الجائعة ، المغلولـــة ،
ربما الى الغيمة أو التمثال الطينى
أو الى ذلك الخطاف الكبير
حيث شنقت العمة « أنـــا » نفسها منـــذ ســنوات .
بعدئذ ، انحنوا وأخـــذوها .
وبقيت أنت ــ من جديد ــ وحيدا فى الغبـــار
تخفى يدك المبتورة فى قميصك .

✻ توجيـــه

خطط اقتصادية ، خرائط ، فرجار ، أدوات رســم ــ
لم نفهم شــيئا من كل ذلك .
والتخطيط ينتهى دائما الى فشـــل .
نزلنا، ونحن نمسك بالحبل، نزلنا الى الأعمق فى البئر القديم،
ونحن نحس على نعال أقدامنا بالبرودة المظلمة للأعماق .
فى فوهـــة البئر ، وهـــناك عاليـــا ضوء ضئيـــل
(ربما كان طرف سجائرنا المشتعل)
والأحجار التى تهوى الى القـــاع
حددت موقعـــا لنا داخل العالم المعلق .

* ونواصــل

كل مرة ، اذ يقول « لقد انتهيت » ، لا ينتهى أبــدا .
ذات مرة تكون النافذة بستارتها الطويلة ، المسدلة ،
وفى المرة التاليــة الرجــل الأمامية للكرسى ،
بعدها كوب الماء المنسي تحت السرير قرب الحذاء ،
قبل كل شيء داخل الثلاجة ــ البيضاء بصورة مصطنعة ــ
بالتفاحة الحمراء المقضومة التى ما تزال محفوظة
وهى تكشف بوضوح تــام آثــار نفس الأسنان .

* على مستويـين

خميــلة الورد المتســلقة الجميــلة
هذه التى تنحنى على التعريشة الحديد ــ بلون أحمر داكن
يتحول (من يدرى بأية عملية سرية) الى قرنفلى نبيل بمسحة
فضية تقريبــا ــ
تتوهــج مشرقــة هذه الأيــام الربيعيــة
فتضىء السلالم الحجرية ، والحوائط الداخليــة
بل وفنــاجين القهوة داخل المطــبخ ،
هذا الغنى الوافر هو ما يستحضر فى الذاكرة
فصول الخريف الماضــية (والقــادمة)
عنــدما تتغطى أحجــار الرصــيف فى الساحــة ، والمخزن ،
والصهريـــج ،
حتى الغرف العلوية ، ودولاب المكتب ، والأسرة
ببتــلات ، وغصون ، وأشواك ، وأوراق شجر جافــة
ويكون عليــك أن تكنسها بين الحين والآخر .
ذلك هو السبب فى أننا ــ عندما نبدى اعجابنا بسيدة المنزل
على خميلتها الوردية الجميلة ــ يا له من لون، يا له من اشراق ــ
فانها بالكاد تبتسم بطريقة حزينــة شــاردة ،

كأن الشيء الوحيـــد الذى تتمناه
لم يكن سوى خاتم رفيـع حول اصبعها الصغير .

* بعـد مقاطعـــة

عندما جلس ليكتب شيئا بعد شهور عديـــدة
أحس فجأة أنه أشعث ، غير مغتسل ، مهجور
كامرأة غير متزوجة تمر بالصـدفة فى المســاء ـ
بعد انشغالها طول اليوم بأعمال ترتيب البيت الروتينيـــة ـ
أمام المرآة ، فتلتقط لمحـة من صورتها العانس ،
لتـــدرك فجأة أنها طوال اليوم لم تنظر الى نفسها فى المرآة :
فهل شاخت ، اذن ؟ هل هى ـ الآن ـ ميتـــة ؟
ولماذا يكون عليها الآن أن تمشط شـعرها ؟ ـ
لقد انتهى اليوم . ولن يراها أحد ـ لا أحد بعد ذلك .
تأخذ المشط الأسود وتبدأ فى تمشيط شعرها الطويل ، كله
الى أســفل
كأنها تمشط صديقة ميتة ، كانت حميمة
وتباعدت فجأة بعينين مغمضتين ، ودمل صغير على أنفها .

* المعجـــزة

انها معجزة ـ يقول ـ بل وأكثر من معجزة :
هناك حيث استهلك كل شيء (وأنا فى المقدمة) ، آكتشف
وسط الحصى على الشاطىء الجمجمة المقدســة
لأحد أحصنة أخيــل ـ ربما جمجمة « زانثوس » ،
آكتشف صولجان الأسقف وسط البابونج ،
آخذه فى اجلال ، وأصعد السلالم الرخاميــة ،

لا أخبطه فى الســلالم ، الحشــد يجتمع
أخطو على المنصــة ، أسمح شعرى ، المنسدل على كتفى
يصبح بلا حراك ، والحشد ينفد صبره ،
يتــدافعون ويتخبطون ،
أفتـــح فمى لأتــكلم
أدرك فجأة أننى أخرس وأنهم يستطيعون أن يسمعونى .

★★★

الجسد والدم

(١)

هناك حيث الآفاق رفعت بالحبال والبكرات والجواكت الممزقة
هناك حيث السكين تبلـغ العظـم
هناك حيث صرخة واحدة تعيد توحيد المدينة المتناثرة
بعد أعوام وأعوام من قضـبان حديديـة ، ودخان ، وحرس
السجن ، وسـكاكين فى الظهر
ألوان مشوهة ، سـلالم مشوهـة
وليس لك ـ حتى ـ أن تحيى شجرة ، أو شقيقك ، أو نجمة
خلال شق فى البــاب
صعدت الأتوبيس ، هبطت فى المحطة الخطأ، صعدت أتوبيسا
آخر
كان الزحام دافئـا رغـم اللامبـالاة الزائفـة
نظرة مختلسة الى جريدة الرجل المجاور لك أو الى عينى شخص
ما أبعــد
هبوط القلب ، هبوط اليد الصغيرة على المنبـه الكبير
دم ينساب من منابـع خفيـة تحت الصخور
أعرفـك ـ قال ـ من ظلك على الجـدار
من يديك فى جيوبك دون استغراق ذهنى كسول
من عينيك فى أعمـاق العـالم
نزولا الى العمق « أعرفك بالنصل » ـ كانوا يرفعون أثقالا

أعمدة كانت تصعد من آبـــار سوداء
أعمدة فى شــكل الآبار ، أعمدة معلقة فى الهواء
عمودا عمودا لبنــاء المعبد الهائل هناك فى الأعلى
شبان ونساء وقواصر نار مع خيول ، مع مسطرين ، مع ألواح ملاط
عاليا نساك الحقبة الأخيرة فى التاريخ الجوهرى ،
صحت صباح الخير لثلاثة أيام وثلاث ليال وسط الغاز المسيل للدموع
مثل المشاعل . والسفن الحارقة فى البحار البعيــدة
نيران فوق نيران ، دخــان فوق دخــان
أحرقت الثياب والحذاء ، الخطابات ، وبطاقة الهوية ، ايصالات الضرائب
قصائد الحب الأولى فى جيبك السرى
الى هويــة واحـــدة للفرد ، للكثيرين
ـ ماذا كان اسمها ؟ (يقول)
الى نار واحـــدة تلغى الليــالى والليــالى
عليــك أن تقول اسمها (يقول) .

(٢)

أحدهم يكتب شــعارات على الجدران ،
الآخر يهتف بشعارات فوق الشوارع ،
الثالث ـ داخــل اطار النــافذة ـ ينشد علنا « روميوسيني روميوسيني »
حملوا الجريــح الى المكتبــة
ورقــة عنب مثل الكف على الركبــة الجريحــة
تماثيــل حزينة وسط الدخان ـ أين نسيت الحب
طلاب ، بناءون ، لعنات ، لافتات ، هتافات ، أعــــلام
الحب هو الحلم ، الحب هو العـــالم

الرأس المنحنية للمخبر ، ناس أكثر فأكثر يأتون
كبار وصغار ، تلاميذ مع حفنة جوز ، مع حقائب الظهر
طائران أحمران مرسومان متقاطعين على كراساتهم
المتزوجون حديثـا يطلون من حقيبة المصـور
يربطون أشرطـة فى البوابـة الحديـد
باعة أوراق يانصيب عميان، جيتار منتصب، مصابيح صيدلية
الليل يحل بالمدينة ، أرقام مضيئة ، مسارح موصـدة ،
ختامات مغلقة ، قصائد سريـة ، زهور مثقوبـة
المشهد الطبيعى الخفى يصعد فى السر فوق الليلة من الأعماق
اللانهائيـة ٠
الليـلة هى أوان كل شىء ـ يقول
الليـلة هى استمرار لكل شىء ـ يقول
الغد للانسانية كلها ، للمستقبل كله
ذلك ما قالـه على السـطح
كان يمسك بعجلة قيـادة هائلة ويقود المدينـة
وفى الأسفل على الأسـفلت يمكن للمرء أن يسمع ضوضـاء
الزحام
كلب أسود ، سـلة ، مرآة صغيرة
حذاءان ضخمان للمهرج الحزين والكوب المكسور
والرائحة تأتى من شواية بائع الكستناء الكبيرة مثل سفينة ٠

(٣)

الشخص الذى كان يتكلم داخل نفسه وكان مسموعا بالخارج
الشخص الذى صعد الدرج الرخامى درجتين درجتين
الشخص الذى كان ينتظر فى الساحة بشوكة طويـلة
المرأة العجوز التى جاءت بالخبز والملح فى منديلها المربعات .
الفتاة بالوردة ، الولد بالطائر والمنـديل
الحشود التى تجلس متربعة على الرصيف ، والرموش تخترقها
نظرات داخلية

جاءوا بأسبرين ، ويود ، وكحول ، وقطن ، وشاش
هذا الشخص جاء بالنـار فى كفيـه ، كعصفورين
مزقـوا القميص أربطـــة
وظلت صـــدورهم عاريــة
لأنهم كانوا كثيرين فأكثر ، فأكثر يصلون من لحظة الى أخرى
عبارات أخويـة كتبت على عجـل بأقـلام حمراء
رسائل قصيرة لثورة صامتة على الزجاج الأمامى للسيارات
الشوارع تفضى الى هنـا ، والأتوبيسات تتوقف هنـا ،
والأيدى ضفرت مزقا من بطاطين المنافى على أشجار الزعرور
صرخات وفولاذ ، يخلع حذاءه ويحك أصـابعه
له قدمان قويتان ، باصبع قدمه الكبير يحفر حفرة فى الأرض
ويدس مفتاح غرفتـه المستأجرة
لأنه الشيء الوحيد الذى لا ينقسم ويمكن المشاركة فيه بالعدل
ليس ملكك ولا ملكى لكنـه ــ فقـط ــ ملكنـا
الشـــوارع تنســاب كأنهار فى الشـــوارع
والحائط الأصفر يتخذ وهجا ورديـــا فى فجر السهر العظيم
بينما فى جيوب الأولاد وآبـاط البنـــات
شذرات من ترانيم قديمة ممنوعـة تبحث عن مأوى ،
أوراق دفلى طويلة ، وقرفـة وحمص
شاب ينزل عن دراجته ويقف على الجسر
تحت الجسر كانت الأسماك الحمراء والخضراء
وسمكة صفراء كبيرة تجر بأسنانها ستارة بيضاء
هى التى تبـقى بالبيت عنـدما نكون بالخارج وتحلـم ــ فى ضبابيـة ــ بالمستقبل
والخواتم تصلصل واحدا بعد الآخر على درجات الماء بأصوات صغيرة
كأصوات قيود المساجين على القضبان الحديدية عندما يحل المســاء
أو كأصوات الطابعـة المخبأة فى طابق تحت الأرض

والتى تواصل ـ من تلقاء نفسها ـ كتابة القصيدة القادمة
عن الأبطـال الذين أعـدموا أخيرا ٠

(٤)

مبنى قديم باهت بسلمين دائريين من رخـام
فى الماضى كانت أشجار نخيل لا تراهـا الآن
منديـل ملطخ بـدم ومنى على العشب الجاف
كبقعـة بيضـاء فى مركز الدائـرة ،
المحيط اللانهائى طوى داخله المدينة، والضواحى، والساحات البعيـدة
باتيسيا العليا ، ثيماراكيا ، بانجراتى ، جيزى ، كيسارياني، بترالونـا
رائحة بطاطس مشوية فى الشوارع الضيقة المجاورة للبحر
سفن صدئة قديمة ، سفن جديدة ، رافعات ، صناديق شحن
فى الأسفل البعيد الصدى العجول لصوت الشاب فى الراديو
وهـج سيجارة ، وأبعد منها أسى الموت
شرائط حمراء ، سهر أحمر ، الحراس بالتفصيل الدقيـق
ميجارا ترد، ثيسالونيكى ، فولوس، بريفيزا، ايونينا، دارما، أركاذى ، ميسولونجى ، ثيودور العجوز بخوذته القديمة
فيضان من الناس داخل البوابـة ، خارج البوابـة
كرسى مكسور ، أمبول كينين أزرق
كوب على الأرض ، العلم الثالث ، غصن موسيقى على العتبـة
هنا حيث بقينا صامتين مع ثمرتى بطاطس مسلوقتين وخمس سجائر
هنا حيث لم يكن لديهم ما يقدمونه سوى حياتهم
التى بدت لهم ضئيلة للغاية فى ساعة الشباب العظيمة
الفتاة ذات الرداء الأحمر بكت
وبكى الفتى ذو القميص الأزرق

قمر كان يتخـل النخالـــة

ناس أكثر جاءوا ، عبروا ، وسيعودون بالفوانيس

فيما وراء الموت ، فيما وراء البعث ، ليسوا ـ أبدا ـ موتى

مقاتلون شبان ، عمال يومية ، رؤوسهم على صوانى الكرتون

أى ، أى ، صـاحت المرأة العجوز ، أولاد أولادنـا ، أكثر من أولادنـا

سوف نمشط شعركم الطويل بأمشاط كبيرة للعرس الكبير

فاض الدم ، الدم يمتزج بالدم ، الوجوه والأيدى تصبح حمراء

أصبح الطريق أحمر ، والبيوت ، والخبز ، وشرفـة آريتوسا

لقاء الأحمر باعادة الشباب الى العالم العجوز

وطفـل يجلس فى المنتصف ، محدقا فى أظافره التي طالت فجأة بفعل الشمس .

(٥)

الرعب ، الثورة ، المرارة ـ أيهم الأول ، أيهم الثانى ، أيهم الثالث

عيون ساهرة بلا شكل ، ضائعة فى نظرتها المتنقلة

المثبتة هنا ، هناك ، فى لا مكان ، فى كل مكان

الشفاه اشتعلت بكثافة الشـعارات

بالبحـة وبمجهول الليـلة القادمـة

والأطفال الذين كبروا فجأة ، أشخاص منحوتون وسط الشعر واللحى الحمراء

كبروا وكبرت ـ أيضا ـ أياديهم تجاه ملامح ثابتـة

والشخص ذو النظارات ، ذو البنطلون المتعدد الألوان ، معه عام على قمـة الدرج

يهتف ، يهتف ، فيرمون جرائد فى النيران

هذا الشخص الذى يمسك بسياج السلم ، يصبح الحديد دافئا فى راحـة يـده

والأربعـة جلسوا على الأرض مع كراسـاتهم ،

مع القوارير ، والدوارق من المعمـل الكيميائي ، والصمامات
المفرغة ، وأجهزة ارسال الراديو
هؤلاء الذين يلتزمون السكون في انتظار
أن يسمعوا
الشـخص الذي ينصت للهباء وسـط الشمسـيات السوداء
المبلولة في الممر القديم
وسط منبهات فارغـة تنطلق أحشاؤهـا بعنف
الشخص الذي قطـع نصفين متساويين تماما
توحدا فجأة من جديد فيمارس الجنس مع تمثاله ومع العالم
ومضات متقاطعة ، تقارير اخباريـة ، أعـلام
أسـنان تحت الأرض تقضـم الجـذور
ها هنا البداية الجديدة ، الأغنية المنفردة ، الليمونة المقطوعـة
ملصق كبير على بوابة قبضـات البروليتـاريا .

(٦)

ضوضاء من جرارات الصهاريج ، العرف المرتفع لليـل
« أخوتي » صرخوا في البداية « أخوتي ، أخوتي »
ثم « قتـلة » صاحوا « مرتزقـة ، قتـلة »
« حملة النقـالات ، ببطء ، ببطء أكبر »
يخرجون ببطء ، يمكثون ببطء ، يعودون ببطء
فلتخبيء جمرة نار في جيبك الداخلي ، خبيء العلم
الباب الأول، الباب الثاني ، الثالث ، أصوات مكتومة ، خامدة
سيحين الوقت من جديد ، وستكون هناك أشجار ، وأصائـل
على العتبـات
مع كسرة منسية في فم أحدهم في مواجهة القمر الجديد
وقت متوقف يفتح الوقت ، والشوارع المضاءة بالمصابيح
هنـا يتمدد الموتى ، يتغطون بملاءة
يحسون بالبرد، ان لم نهتم بهم، سنحولهم في الغد الى تماثيل

واحد بقيثارة ، والآخر بسيف ، وآخر بطائر على كتفه وفردة
صندل فى يده

حافظنا على المقاييس ، نفس مقياس رفاقنا
نفس المقياس الذى يحتفظ به البروليتارى فى جيبه الخلفى
مع مشطه ومفتاح بيته
مع فص ثوم وعلبة كبريت
واليد تعرف ، تبحر فى الظلام ، تعثر على الركبة ، وزجاجة
المصباح
تعرف أركان الصبر الأربعة ، الطبق الأرضى ، والسكين
واذا ما تأخر الكبريت فى الاشتعال فلأنه ينتظر اللحظة
المناسبة
يتكىء قليلا ، وينال قسطا من الراحة ، وبعدها من جديد
هناك على الرف الطائر المحنط ـ انه يتظاهر بأنه محنط
يجلس على القش ، فى انتظار بيضة سرية
داخل البيضة الريش ، والمنقار ، والأغنية
لقد صحت ، وتوقفت ، ركنت الى الصمت ، وسوف تصيح
آى ، آى ، أطفالى
تتوهج عيون الموتى كى تستطيع الكتابة فى الظلام
عمت مساء فى رقة ، عمت صباحا فى رقة ، أقيس نبضك
القوى صاخبا صباح الخير .

(٧)

فى هذه الحكاية شارك الكثيرون وأيضا آخرون لم يظهروا أبدا
مختبئين خلف الذكريات أو خلف البوابات الحديد
أو خلف المصاريع القديمة المحفورة بأظافر الزمن
وآخرون أعدوا رغيفا كبيرا من خبز وحفروا بسكين الجيب
صليبا عليه

والنسوة العجائز تجمعن فى المطبخ ، الرحمة يارب ، الرحمة
يـــارب
وعين على النـــافذة والأخرى على المنخـــل
العين الثالثة على الشارع مع الشرطى ، مع الدخان ، والجنود
لأن المفرش على المنضدة يرفرف من جديد
وبأكتافــه الدائرية الدافئة يدفــع الطائر الآخر الى أعماقهم
والنسوة العجائز مؤهلات من جديد للحمـل ،
بصرف النظر عن أن أطفالهن يلعبون مع الموت
واذا ما فكرت أن تقول سأعود ، فستخشى أن يثبت من جديد
أنك كاذب
فالعقبات هائلة ، وهائل جبين الدخان المتعالى
والترزى ، والنجار ، والحانوتى أغلقوا جميعا دكاكينهم
والرجـــل العجوز جـــالس على ألواح الخشب يـــوزع أوراق
الكوتشينة المسروقة ، ثلاثة فى كل مرة ، لا يمكن تحقيق
الفـــوز
كم من المرات قلنا « آمين » فأطاحوا بنا من جديد
أطلت الفئران من جحورها ثم انسحبت مرة أخرى
بقية الجحور لم تكن للفئران ، الهواء يتخللها ، كانت مفتوحة
على الخارج
أجزاء من أبراج الجرس، من الغيوم ، من لافتات محلات الجزارة
يد تحمل شيئا ما ، ساق بمفاصل متصلبـة
لا تركع ، ففى طرقات على الرصيف مثل ساق خشبية ، مثل
حجر تدخـــل البـــاب
آنئذ يتساقط الجبس عنها والحجر السابع يتداعى
فجوة مفتوحة فى السقف ، سماء بعين واحدة
سيأتى آخرون ويحكون الباقى ، لا تنس فحسب ـ قال
لا تنس ما جرى ، ما يجرى هنا والآن
والا ـ قال ـ فـــلا شىء يمكن أن يتحقق للنوافـــذ الموصدة .
والأعين الحولاء

للآلات الوترية الملفوفة بعناية فى صناديق زجاجية وكرتونية
على يد أناس قدامى منسيين
للأوتار المحفوظة فى الدرج وسط ايصالات الماء والكهربــاء
أو فى جيوب المعطف الأسود المعلق فى الدولاب بدون نفتالين
بينما الصخب فى الخارج يذوى، تمتصه طلقات البندقية الأخيرة
والأتوبيس الضخـم الذى يحترق فى ناصية « باتيسيون »
و « ستيرنـارا » .

(٨)

هناك بالطبع أشياء بلا كلمات، لم تكتشف، لم يبحث عنها أحد
اذا ما حاولت أن تقولها ، فلن تكونَ ــ بعد ــ أشياء ،
ستتحول الى غبار أو دخان أو ــ فى أفضل الأحوال ــ ومضات
كلمات صغيرة ، عظيمة ، مكثفة ، كلمات الليل ، فراشـات
الليـل ، بيضـاء وسوداء
تجتذبها النـار ، تبتلعها ، فتحترق سريعـا
هسهسة واهيـة من قضمة الدهن من أجنحتها ، من قرون
الاستشعار
فرقعة فى مكان ما ، ومضتان صفراوان أو زرقاوان
ومن جديد النار والأشياء ــ فى مواجهة النـار ــ مضاءة أكثر
حمرة ، مكبرة
فراشـات الليـل مختلفة فى شعر امرأة
أو قرب زجاج المصباح ــ تلك لها أسماء مختلفة
مثلما وقـع الخطوات على الأسفلت
والصرخات التى تنطلق عبر كشافات عربات متوقفـة
أربعة أجساد وأربعة أعلام تحت القضبان الحديد
أنا امرأة عجوز ــ تقول ــ تعذبت بألف موت
ارتعبت بألف وأحد عشر خوفـــا
لا من ألم أتكلم ، أعض على لسانى ، أغزل قطعة صوف بمغزلى

فيها ناس طيبون كثيرون وأعلام وقيثارات وذرة ودجاج .
لن أكف عنها بأى ثمن ، وبهذا الغزل أصنع سفينة كبيرة
وبكرة حمراء صغيرة من خيوط تبقت من سهر الأسبوع المقدس
لقد أصاب الخبال امرأة عجوزا بلا أسنان ــ يا بنى ــ فلابد
لیدی أن تظلا مشغولتين بشيء ما
والا فسأخلع قميصى وأطوحه في الهواء عارية تماما في الشوارع
اننى أغطى أطفالى لئلا يصابوا بالبرد لهذا يضعوننى معهم فى الزنزانـــات
وأنت تخبرنى كيف للمرء أن يناقش الأشـياء ، كيف له أن يحولها الى أفعـــال
آه يا سفينتى الصوفيـة العظيمة ذات الأقفـاص الخشبية فى البحار المفتوحـة
تأتى فى العالم وتمضى لا تعرف حدودا ولا ينالها غرق .

(٩)

وعندما تركت الشمعة على بسطة السلم ، قالت : « انتبـه »
لئلا يلتقط ثوبك الليلى النار وأنت تمر بها حافيا ومشط فى يــدك
وتحت السلالم تجمع أولئك الباقون على قيـد الحياة
ربما يقرعون الباب بقبضاتهم أو كعوب بنادقهم
لا تفتح ، سيكسرونه فى النهايـة
ظلال البراميل لا تغطى الجدار كله
والرأس الرخامى ينتصب فوقهم ، يغمز برمشه ، فيفهمون
يقل وقع الخطوات فى الشارع، يتوغل أكثر عمقا، داخل الأرض
توقف شخص آخر ليبول على نافذة دكان المجوهرات
سيعودون فيما بعد ليشعلوا نيرانا أكثر ، ليحرقوا كتبا
ليكسروا الأرفف الزجاجية ، أيد حجرية فى الرماد
خزانات الكتب واقعة ممددة ، صور فلاسفة ، فى الممر زجاج نوافـذ مهشم

جرائد ، رؤوس مشاجب ، خزانات قواقع ، شعر ، قوارير ،
طبـــاشير
ها هو الدليل ، قالوا ، دعوا الصحفيين وهذا وذاك
مسموح ، يقولون ، فوضى ، لحى ، نساء ، قبلات على السلالم
حملوا البعض الى بوليس الأمن
والبعض الى الضـــواحى
وآخرين الى المشرحـــة
وما يزال آخرون الى أن يحفروا — على عجل — مقـابر
أسماء مجهولة ، وشارع ، ورقـم ، وعائلة ، وأم
وقال من جديد ، أمى آه يا أمى ، خاتم زفاف مهشم ، حوض
غســـيل
انتظرنى بعد ثـلاثة مبـــان
ففى ورشة الخشب تركت بعض الخبز وبصـلة
لففت العلم حول صاريته ودسسته تحت مريلتى
لينخسنى فى ضـلوعى ، فى عمودى الفقرى ، فـلا يسمح لى
بالنســيان
فاذ يحل الصمت الثقيل ، فان اليقظة العظمى آنئذ تبـدأ
هذه اليقظة التى لا تسمح الا فى مفاصـل القتـلى ٠

(١٠)

أهدأ صمت بعد الدبابات ، لملموا العربات المحترقة ، والرماد
أزالوا الدماء فى الفجر البـاكر
حملوا الموتى بعيدا الى البوابة الحديد ، والأشجار المحطمة
لم يعد الصـــغار الى بيـــوتهم
أشـــباح تطوف حول آكشاك التليفون
ومن نافذة الى نافذة وجـه النـــار المنطفئـة
عثروا فى الغرفـة المستأجرة على الشخص المشنوق
والآخر فى الدولاب المغلق

والآخر وجبينه على ركبتيه كما لو كان يقرأ كتابه الأخير
مرآة صغيرة على المنضدة كانت مرمية مقلوبة، لا تريد أن ترى
قدر ، ومطفأة سجائر ، والكنارى فى قفصه بلا ماء وقد تيبس كعظمـــة
ستبكى الفتاة عندما تعود ، لحسن الحظ تركنا لحانا تنمو
حتى لاتكتشف أننا لم نحلق،فلا أمواس حلاقة فى الدكاكين الآن
ولا فى أكشاك المحاربين القدماء ــ من يدرى
طيور صغيرة فرت من النخيل العالى، وتوقفت فى أضيق شارع
« جايار جايار » ، كانت المرأة تنادى فى صوت خفيض ، كلبها فى الطابـــق الأرضى مات
مبكرا فى الأصيل تضاء أنوار الشوارع كأن الشوارع مريضة
والغرف القديمة مريضة وأسرة الطلبة خاويـة
والملاءات ملطخة بســائل منوى جـاف
والماء فى الكوب يتظاهر بالنعاس حتى لا تتم خيانتـه
الرجل الذى شرب قطرات معدودة من الماء مفقود ، لا نـدرى أين هو
أعلام صغيرة تتنفس كالمتآمرين داخل القمصان المزررة
وتدير الرقم باصبعك للمرة الرابعة، والخامسة، ولا من مجيب
تعود الدائرة ــ مع الصرير ــ الى وضعها ، دائرة ودائرة تبدو الآن مثـــل صـــفر
وهؤلاء الذين أخفوهم فى المقبرة يصيحون فى الليـــل .
ليست صفرا ، انتبـه ، انهم يصيحون ، انتبـه .

(١١)

يأتون ، يمضون ، يأتون من جديد ، خطوات مسموعـة ، ثم تتـلاشى
الصمت متزاحـم فى الأركان ، كروت البريد التى مرت على الرقابة من المنفى مبعثرة فى الهواء

٤٨ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ومزق كبيرة من ورق خشن تشـابكت بين أرجلهم
من النافذة الصغيرة عاليا هناك ، تنظر لأسـفل
أكشاك بها نظارات داكنة ، نظارات للشمس أو ـ بالأحرى ـ للظلمـة
الجرائد تتوافق بسهولة مع الأحداث الجديدة
الجيوب تصبح كافية للأصابع ، والناس ، والتاريخ
ترام قديـم مرمى فى الحقل وسط نبـات القراص المبـلول والأشواك
معان أخرى تتجمع فى تبادل حر فى قبعة الشحاذ
المرأة العجوز تقول للفتاة : انتظرى وسأغسل وجهك سأغسل ثيـابك
الرجل العجوز يشعل النار ، يضع قدرا عليها
مثل الزمن الذى ترك فيه « فانجيليس » وردة على المنضدة
وفجأة أصبح كل شىء مستحيل التفسير، محيرا و ـ مع ذلك ـ جميـلا والى الأبـد
وكنا محزونين لأننـا ـ حتى ـ لم نفهمه
وتقول « مارثـا » انها ليست تبريرات ، لا
ولا براهين تقول ـ فى الصيف حينما ذهبنا الى الشاطىء
ها هو « بيتر » ، ها هو « ليفتريس » ، ، و « كاتينـا » ، و « نيوفى » ، و « كاكيـا »
بعد توزيع الكراسات كانت هنـاك قنافذ وقنديل البحر على الرمـل
حدس شعرى عظيم بالفواكه والقوارب
فعندما يخلع الرجل ثيابه يدير العالم وجهه
وبين حصـاتين ورديتين يمكنك أن تؤمن بعمل عظيم سيأتى بالتأكيـد ليمضى
قطرات صغيرة تسقط من الشعر بين حلمتى الثديين
تلك الأشياء التى نعتبرها زائدة كانت تعود : سلة من أغصان الكروم ، ملاءة بيضـاء

قيلولة قصيرة فى الظهيرة وسط صنوبر الشاطىء والزيز
والا ــ تقول « ماريا » ــ فلن نعرف السبب فى النضال وفى أى شىء
سيكون شعورا يستحيل نقــله مثــل بار مغلق على الكؤوس المهشمة ، كما لو كان الذنب ذنبى
وكنت أقف بالشارع أنظر الى ما بداخــل النــافذة
فرأيت احدى فردتى حذائى مرمية هناك على القرميد رغم أنى كنت أرتديهما
بل اننى انحنيت لأعقــد ربــاطى الحذاء حتى أتأكد وكانتــا موجودتين بالفعل
الى أن تذكرت أخيرا أننى خارج على القانون وخلعتهما .

(١٢)

ما أسموه ــ فى النهاية ــ مجدا أو عصيانا أو تضحيــة
يوم بالغ الشفافية كأن لا شىء جديرا باللوم قد حدث الليــلة الماضــية

أبعد قليلا فى الأسفل كان يمكن للمرء أن يسمع الهتافات
اطارات النوافذ كانت تغير ألوانها ، وساد الأحمر
الموسيقى طافت فى مكان آخر ، وكراسى البارات ظلت خاوية
كانت النوافذ تتحول الى أبواب ــ كان يقول ــ « سأخرج »
وانطلق فى السماء بسهولة كبيرة
فوقها كل شىء طبيعى ، ومن جديــد
تتحول النوافذ الى نوافذ مرة أخرى
أكثر ضيقا من ذى قبل ، أكثر انغلاقــا
ثم الحائــط وحــده
ثم المسامير فى الحائــط
قمصان غير مغسولة تتدلى من المسامير
أهنا سنبقى اذن ، أهنا سوف نجول ؟ ســأل

الشيء الوحيد الذى التقطه كان باقة زهور سقطت على الضوء
بصـوت مسـموع
زهور بيضاء ، ما من واحدة أفلتت من الرباط المبلول
جاءوا بالاناء ، أخرجوا السمكة الذهبية ، وشربوا الماء
ومن المبنى السكنى عبر الشـارع ، كان النـاس ينفضـون
المناشـف
كأنهم ينفضون الغبـار عن مصباح غير موجـود
ما من أحد فى مزاج طيب ، عندما يسقط الليـــل
كيد مقطوعة فى كشاف الضوء المتلاشى لمحرك النيران
تنتصب المدينة مرئية على حافة الدخان مع الألواح المحترقة
دوافـع غريبة تخلق مواقف غير متوقعـة
تماما مثـل الأكاليل الكثيرة على مدخـل الجبـانة
مثـل نعش زجاجى يقف عموديا ويمشى بمحاذاة الأعـلام
والميت يقفز الى الاستاد ، ينتصب ملفوفا بالأسلاك والتهاليل

(١٣)

العدم هو الأسهل ــ يقول ــ فهو يتخذ شكلا بسرعة خاطفة
وخاصة لو انها الصالة بالمرآة القديمة والأحذية الملطخة بالطين
معطف المطر الأبيض على الحامل المتهالك، وتفاحتان على الكرسى
الأسـود
رحلة سعيدة قال ، رحلة سعيدة ودولاب الملابس
يرقد مفتوحا على الأرض، مع مناديل مبعثرة، وملابس داخلية
وجــوارب
احتمالات كثيرة ، نخيل ، أراجيح ، فاكهة ، بكرات
بلا حقيبة ، ديون ومسئوليات ، العدم سهل ــ يقول ــ
« يوريس » كان جالسا فى الحديقة يشـاهد سيقان الفتيات
العـابرات
تدلت حلقـــة ذهبيـــة من أعلى
كان بائع الجوز أعرج ، ماهرا فى صناعة القراطيس من الجرائد

والآخرون على ارتفاعات عالية فى صندوق زجاجى طويل مع
حاسب اليكترونى
كانوا يتكهنون بالنبوءات ، يرتبون الآلات ، أية فرصة تلتها
لكن الناس ـ يقول ـ ليس لهم سوى يدين، ويملكون التضامن
السرى
رأس ثقيلة من الضرب فى الجدار
قصاصات من جرائد ممزقة احترقت فى مطفأة السجائر وأنت
عليك أن تتحدث عن الأشياء الصعبة ، الهائلة ، الواضحة ،
الاجبـــارية
مثل الحارس على البوابة الأسمنتية طوال ليلتين ، ثلاث ليال ،
يقـاوم النوم
وكيف تجد الوقت لتأخذ من جيبه المرآة الصغيرة والمشط
لتمشط الى الوراء قليلا شاربه الذى طال فجأة
وما ان سقط فى النوم واقفـا ، حتى أتى « كارايسكاكيس »
فى منتصف الليـل ومشطه لـه

(١٤)

أولوية الماء ، والخبز ، والنوم ، تكرارات
الجذر التوى تحت النسيان ، سنلتقى من جديد
وفى ركن دكان الفاكهة ودكان الزهور ، هنـاك مقايضـة ،
أضواء فى المســاء
يمر القطار خلال النفق محملا بسمك مجمد
وأصوات عاليـة محفورة على الصناديق الخشبية
آخرون يحتاجون الى التدخل ، وآخرون يتصورون ، وأولئك
يتـــلاشون فى الابتعـــاد
حلاقو النساء فى باروكات حمراء يعودون الى البيت فى الفجر
وعمال المصانع بالمفكات ، والزرديات ، ولفـات ورق
موسيقيون عميان يدخلون المحطات ، يغنون عن المدينة المتألقة

غجر ، وعرافون يدخلون : « سيكون حظك عظيما »
والأسود سينقلب الى أبيض ، فاترك لحيتك تطول الى صدرك
وعندما تدق الطبول الصفيح فى الليل ، انتظر فى موقف الأتوبيس
فهناك منزل من زجاج مضاد للرصاص
بداخله يمكن للمرء أن يرى بيانو كبيرا ، ومقاعد جميلة ، وصورا .
فى الغرف التحتية تتآمر الفئران
وصلنى خطاب بمظروف جنائزى أسود، سيشعلون الشموع، ويروون حكايات
عن الموتى ، عن الأطفال بالمقاليع ، عن أشجار الصنوبر فى العاصفة
سفينة غريقة ، قمر تهشم بصورة رأسية
عمال التلغراف فى مواقعهم
والفتيات الكاتبات بأظافر ذهبية ينتظرن الوثائق الأخيرة
لا أستطيع احتمال هذه الهيولى ــ يقول ــ موقد الكحول ، الكوب ، أعقاب السجائر ، وشعرى
أقضم اصبعى ، أضع نعلا ثانيا لحذائى العسكرى
لأنصت الى الجذر فى الأرض وهو يصوغ الأوراق فى عقله .

(١٥)

نقلنا الموازين فى السر ، وزنا اللحوم، والكلمات، والسكاكين، والساعات
كتبنا أرقاما فى كراسات على المناضد
ونحن نجمع ، نطرح ، نضرب ، نقسم
ودائما ما يجىء المجموع ناقصا ، فنبدأ من جديد ، كنتم مخطئين
وكانت « هيلين » واقفة عند الباب ، مضاءة

بفعل نافذة دكان الألبان عبر الشارع، وجبينها ملون بالأزرق
الفاتـــح
الوهج الوردى تحت ذقنها ، وشعرها بنفسجى
لابد أنها أنهت حساباتها
يدها اليسرى كانت غايـة فى الرقـــة
ولابد أنها قد أجابتك اذا ما كنت سألتها
وانحنى رأسها كأنها قالت : « نعـــم »
أتوبيس يمر كل عشرين دقيقـة
وعليك أن تحسب بدقـة كي لا تنتظر
الضوء أكثر كثافـة فى الحفر الطينيـة
ول « فانجليس » شهوة ـ عمياء مثله عندما يتهيج للنساء
وثيابه تفوح برائحة نكاح ونيكوتين
الشبان الآن يدخنون أكثر
وهكذا الفتيات أيضا ليقللن الفارق بين الجنسين
فيما بعد عندما ذهبت الى الغرف العلويـة
صدمتنى مرة أخرى رائحة الأنتيمون غير المشروع
الا أننى لا أسـتطيع النسـيان ، فصحت بصوت أعلى لأغطى
نفسى
وكان « بيتر » واقفـا بصورة صارمـة عند البـاب
وصوت الآلة الكاتبة كان مسموعـا خلف السـتارة
وكل واحد كان يفكر فى عزلة ، لا يعرف الموتى شيئا عن هذا
المجـــد
والموت يصبح أكثر صعوبة، ستبدأ المساومات والمضاربة حالا
قيمة الخصوصية ـ يقول ـ البعد المسطح للمكعب ـ يقول ـ
علقوا منشفة حمراء هائلة فى الحمام
تغطى الحمام كله بقرميد أسود لامع
وفاح بصابون معطر ، ولوسيون ، كولونيا ، معجون أسنان .
وشـعر مسـتعار
لم تكن هنـاك رائحة لجسـد انسـانى ، أو منى ، أو لقذ
رياضيـــة ،
أو لفم قبـ بعمق ، خرجت لأبول على العشب .

(١٦)

كانت الأتوبيسات تجيء من المناطق المجاورة النائية فى الصباح الباكر
حشود ، عمال ، موظفون ، أطفال ، نساء بماكياج قليل
كعك السمسم ساخن ، جرائد ، كانت المدينة مهجورة فى الصباحات
نفس الحركات ، نفس العناوين السوداء ، ضباب خفيف
معطف رمادى ، مثقوب بالعثة ، فى « هافتيا »
وبينما كل شيء يبدو كما هو ، كان واضحا أن شيئا ما قد تغير
فى هذا الوجه قطع من حلاقة متسرعة
وهذه الفتاة الصامتة ، شعرها طوحته لأعلى هبة ريح سرية سوف تخونها
وهذا الولد يده اليسرى فى جيب بنطلونه ما تزال تتشبث
بانتصابه الصباحى ـ البلدوزر يبدأ فى العمل
هذه الضوضاء ضرورية لتغطى الصمت المحصن
تمضى مع الوريد ، مع الطرق داخل المعابد
زوج من الزرديات على الكرسى ، حلم بلسان مقطوع
منشار على الأرض ، مشط فى الجيب الخلفى للبناء
سلم ، أغنية متشظية بكلمات أخرى
صندوق خشبى مع قطرات طلاء
فعاليا فى مواقع البناء هناك أسمنت سريع الالتصاق
وبذلك فلم تنس هذه الليالى مع الشبابيك الحمراء
نيران فى الأرصفة ، الأصوات الحرة للمسجونين
الانسجام الكامل ، المنطق البسيط ، السيجارة المشتركة
النساء العجائز وكل واحدة معها حقيبة سكر ، وقليل من القهوة ، والبرتقال
الكلمات والأشياء التى تنتمى لنا جميعا ، قال
الليلة العظمى تنتهى بالأعلام .

ما قد قيل مرات عديدة كان يعود بمعان أخرى ـ
لأليكوس بحزامه المشدود تعبير طفل غاضب بعد مشاجرة
بقذف الطوب
خلف ظهره أشجار وأنهار صغيرة مختبئة
و « مارثا » ترتدى ثوبها الأزرق ،وشعرها
مصفف على طريقة يوم أحد قديم يجيء من المستقبل
« ديمترى » يبين من الحائط ، ينغلق الحائط خلفه
كيف لجبل أن يقترب وليس معه سوى شجرة واحدة وخطى
منحوتة فى الصخر
وتحت الشجرة نبع تطفو فيه الأوراق ٠
غريب ـ تقول « ماريا » ـ لقد احتفظت بشمعتين فى الدرج
ذابتا دون أن أشعلهما ، لم أجد سوى الذبالتين الصفراوين
أشياء كثيرة تحترق من تلقاء ذاتها مستسلمة لزمنها الخاص
فى الليل وأنا نائمة أسمع ناقلات ضخمة
تدخل فناء الكنيسة ، أدير مفتاح الضوء
أنظر الى صورتى فى المرآة وأبدو مشابهة كثيرا لنفسى
مشابهة تماما لشخص غريب
أريد أن أرسم وجهى أحمر ،
و « ميروبى » كانت تأتى بورد من الحديقة كأنها أصيبت
بفقدان ذاكرة مفاجىء
ولهذا يبدو الرجال ـ مع ذلك ـ مقطوعين من قماشة أخرى
ـ فلأحضر لك بعض الفاكهة من الثلاجة
هراء ـ قال « الكسندر » ـ هراء ، لقد رأيتهم
فرسانا وسيمين على جيادهم السوداء الطويلة
وحوافر الأحصنة لا تكاد تلمس الدرج الرخامى
اندفع الراقصون المحاربون نحو المعبد وهم يمسكون بالأعنة
كانوا يقفون ساكنين أمام الأيقونات ذات الحجم الطبيعى

عيونهم ـ شرارات مثبتة على العيون المرسومة
غضب على النكران واستبدال القديسين
الكبرياء الرجولى فى مواجهة الأسى الواهى
لحظة واحدة وبعدها قبضوا على الأعنة واندفعوا فى الشمس
خلفهم كانت الدراجات البخارية تسرع ، لم تستطع أن تلحق بهم
انكسرب نظارة الرجل القصير النظر على العتبة
والقلنسوة السوداء الخشنة تتماوج على الصخور كغابة أشجار كاملة
فلتتذكر التاريخ فى لحظاته العظيمة
أما الباقى فعويل على الهاربين والمخصيين .

(١٨)

ثم أصبحت الضواحى مهجورة ، تلاشت الأشجار
أصيل أصفر طويل كان يتدلى من مرآة الحلاق
وعربة بائع الجوز مهجورة أمام دكان النجار
عندى صداع نصفى ـ قالت « مارثا » ـ طنين من أشياء لا أعرفها
تلك التى حدثت وتلك التى لم تحدث بعد
وأنا فيها بنفسى ، أمسك مشطا لكنى لا أمشط شعرى
اننا نتردد بين خوف وانتصار ـ قال « اليكس » ـ عند نقطة مجهولة
ومعنى التأخر نفسه غامض
ماذا عن ، من أين ، من أجل ماذا صنعت ثقبا ـ تقول « أنا » ـ فى زجاج النافذة
ثقبا ناعما دون تهشيم الزجاج ، أدس اصبعى فيه
كأننى أبحث عن عين غريم يمكنها ـ رغم ذلك ـ أن ترى
انه من نقص النوم ، يقول « بيتر »
بل هو من الانتظار ـ تقول « مارثا » ـ

وهو بسبب شيء ما علينا أن نفعله ولا ندرى ما هو ، أو كيف.
أو متى
والشموع تنطفيء أمام الباب أو تتلاشى وراءه
عندما تغرس عصـا فى حفرة الجير الحى
وتتوقـع أن تعثر على معنى الايماءة أو تعثر على كلمة
لأن ذلك لابـد أن يحدث ليستمر
والا ما حدث شيء
ولابد أن الشبان الذين قتلوا غاضبون علينـا
وسوف يجلسون فى المسـاء على مقـاعد وطيئـة متظاهرين
بتطريز كيس وسـادة
لئلا يروا عيوننا التى فقدت الهدف
وسوف يرفعون الصمت الى أعلى مثل فتيـل المصباح القديم
المنسى
وعندما دخـل الكلب الحجرة أحس بندمنـا فورا من دخـان
السجائر الكثيف
فتظاهر بأنه لم يفهم شيئا ، شـد ـ فحسب ـ طرف ثوب
« ماريـا »
وخرج بلا صوت كأنه يرتدى حذاء من مطاط لرجل ميت
آنئذ نهضنا فى الحال جميعا ، خرجنا الى الشارع فى منتصف
الليـل
وكتبنا على جدران المخبز ، ومصنع الأسمنت، ودكان الزهور
نفس تلك الكلمـة المتجانسـة

أتناجارج أتناجارج أتناجارج

وبعدها سمعنا بوضوح فوقنا التنفس العميق للأعلام المخبأة

أتناجارج أتناجارج أتناجارج

ذلك ما كانت تهتف به الأعـلام ٠

* * *

أثينـا ، كالامـوس
١٧ نوفمبر / ١٩ ديسمبر ١٩٧٦

القصيدة مكتوبة فى الأصل بدون علامات ترقيم

روميوسينى : قصيدة ريتسوس التى قام ميكيس ثيودراكيس بتلحينها . وقد تم منعها خلال الحكم الديكتاتورى. وأصبحت رمزا للمقاومة.

ثيودوروس كولوكوترونيس : أحد قادة حرب الاستقلال اليونانية .

جورجيوس كارايسكاكيس : أحد أبطال حرب الاستقلال اليونانية .

الأنتيمون : أحد العناصر الهامة للخليط المستخدم فى الطباعة . « الأنتيمون غير المشروع » اشارة الى مطبعة سرية .

* ضـوء

غصن صغير من شجرة لوز
أمام النافذة ،
غصن صغير فحسب
يخفى نصف القرية •

الحب يخفى بكفه
كل العالم •
لا يبقى سوى الضوء •

* وحدة صغيرة

فى ركن الفناء ، وسط المياه الصابونية
انحنت بضع وردات تحت ثقل أريجها •
ما من أحد أبدا تشم هذه الوردات •
ليست هناك وحدة صغيرة •

* الخيال والواقع

« أفعال تافهة » ، قال « ناس تافهون ، أثاث تافه ،
زهريات ، مطفآت سجائر ، محابر ،

مناضد عرجاء ، أسرة غائرة ـ تكرارات » ٠
أمسك بنفسه ، بكلتا يديه ، من الهواء ، كما لو من عارضة
سقف لا مرئى وظل هناك ، معلقا ٠

شخص ما عابر ، برغيف خبز فى يديه
توقف برهة وسأله : « ما الذى يجرى ، يا صديقى ،
لماذا تسحق قدميك ، لماذا ترفع ذراعيك عاليا ؟ »
وقطع شريحة خبز وقدمها له ٠

أخذها الآخر ، وضعها فى فمه ، نظر حوله مدهوشا
وهكذا ، مع امتلاء فمه ، بدأ الكلام
فى وضوح ، فى بساطة ، فى دفء ، وتقريبا فى بهجة ٠

❋ مشهد ريفى طبيعى

منضدة فى برودة الغرفة ، ثلاثة مقاعد ٠
عنب على المنضدة ، ماء مثلج ٠
حمرة الطماطم فى مقابل الطبق الأبيض ،
رشح الملح على القطع فى لحمها ٠
أسماء صغيرة لخضروات وفواكه تنتشر فى الصالة ٠
فى المرآة على الجدار ، السماء ٠ وخارج الباب
خس ، وكمثرى ، وفول أخضر ، وبامية ، وباذنجان ـ
حديقة الله الصغيرة ٠ كيف يتمشى
الغدير فى خطوات قصيرة ، صغيرة متقافزة ٠ نعمة ٠
يد ترسم شارة الصليب ٠
ظل اليد متواضع على الأكواب ٠
مشهد طبيعى صغير ، جليل ، فى اتساق ٠ بعد ذلك بقليل
ترمى يد القداسة الهائلة المعقودة

ظلها على الظهيرة الذهبيـــة ، البـاهرة .
الهى ، فلتكن مشيئتك ألا تسمح لنا برؤية ما أمامنا ولا ما فى
الوراء .

* ظهـيرة

الشمس هنا لا تمزح ـ هذه الشمس الحانقة ، الجبارة .
بحاجبها المعقود ، بفكها القوى ،
بصدرها ذى الشعر الكثيف العارى من الكتفين حتى البحر .

شهر . شهران . شهور .
أحصيناهـم جميعا ، ظهور محملة بالحجر والفزع .
اصــبع محنى ينقر كتف الابريـق
ليسمع صوت الماء بالداخـل ،
مثلما تسمع صوت المرأة خلف البـاب ،
أو مثلما تســمع المرأة صوت أصغر نجمة .
أو مثلما تسمع النجمة ثغاء الغســق .

ظهيرة مديـدة هنـــا ،
مديدة كيوم أحد فى الريف بلا أطفـال
ـ ظهيرة تدوم من الصـباح الى المساء .

لو كنا أقل عطشا، لما فكرنا فيها ،
لو كانت هناك شجرة على منحدر فى قمة الجزيرة ،
لو كانت هناك حفنة ظل ، مرارة أقل ، ظلم أقـل .

لا نتذكر شـكل الشجرة ـ أربما
تشبه رايـة هائلة من ماء ؟
أتشـبه « شكرا » سمعت منذ زمن بعيـد ؟
أتشـبه يـدى حبيبـة عثرت على يـدك ؟

بعـد غـد سـنغرس ألف شـجرة ٠

* اعتيـاد

شمس من حجـر ذهبت معنـا
حارقـة ريـح الصحراء والأشـجار الشوكيـة ٠
استرخى الأصـيل على حافـة البحر
مثـل بصلة صفراء عاريـة فى غابـة غامضـة بالذاكرة ٠

لم يكن لدينا وقت لهذه الأشياء ـ ومع ذلك
فبين الحين والآخر كنا نرفع أبصارنا ، وهناك على بطاطيننا
مع الأقـذار ، وبقـع الزيت ونوى الزيتـون
بقيت بضع أوراق من الصفصاف، وبضع أوراق من الصنوبر ٠

وحتى تلك التى كان لها وزنها ـ أنواع عادية من الأشياء ـ
ظل مذراة على الجدار نحو الغروب
وقع حوافر حصان فى منتصف الليـل
مسحة ورديـة تتلاشى فى الماء
فتترك الصمت أكثر وحدة فى يقظته ـ
وفى الأسفل وسط القصب والبط البرى ، الأوراق المتساقطة
من القمر ٠

لا ، لا وقت لدينـا ـ ما من شىء نحتفظ به ،
عندما تتخذ الأبواب هيئة الأيـدى المعقودة
والطريق هيئة رجل يقول « لا أدرى شيئا » ٠

ومع ذلك ، عرفنا أن فى البعيد عند المفترقات العظيمة
كانت هناك مدينة يضيئها ألف نور ملون
حيث يحيى الرجال بعضهم بايماءة رأس بسيطة ـ
نتعرف عليهم من أيـــديهم
من الطريقة التى يقطعون بها الخبز
من الظلال التى يرمونها على مائــدة الغداء
عندما يزداد كل صوت نعاســا فى عيونهم
وترسم نجمة وجيــدة صليبا على وسادتهم ٠

نعرفهم من الكفاح الذى يجعد جبينهم
بل الأكثر من ذلك ـ عندما تعمق سماء الليل فى الأعالى ،
نعرفهم بطريقتهم المتآمرة ، الرصينــة
وهم يفتحون قلبهم كمنشور سرى
تحت البــاب الموصــد للعــالم ٠

* غرفــة الشـــاعر

الطاولة السوداء المنقوشة ، والشمعدانان الفضيان ، وغليونه الأحمر ٠
يجلس ، غير مرئى تقريبا ، فى مقعــده الوثير ،
وظهره دائما الى النافــذة ٠
من وراء نظارة ضخمة يراقب ـ فى حذر ـ كل زائــر
يسقط عليه الضوء الكامل ، وهو ـ نفسه ـ مختبىء وسط كلماتــه ،
خلف أقنعته فى التاريــخ ، بعيدا ، منيعــا ،
وهو يشد الانتباه الى شرك الوهج الرهيف لخاتم من ياقوت فى اصبعــه :
انه على أهبة تذوق عباراتهم ، مثل مراهقين ساذجين
يبللون شفاههم فى تبــاه ـ بلســانهم ٠

ويجلس هناك ، شرهـا ، شبقا ، ماكرا ،
امرؤ بـلا اثـم ،
متأرجحا ، بوجوده كله كدفتي ميزان في يـد الله
متأرجحا بين نعم ولا ، بين الرغبـة والنـدم ،
فيما الضوء من النافـذة وراء رأسـه
يتوجه بتـاج المغفرة والطهارة ٠
« لو لم يكن الشـعر غفرانا » ـ يهمس لنفسـه ـ
فلا انتظار ـ اذن ـ لرحمة في أي مكان » ٠

❋ لا ، لا

هذه الأشياء البطولية ، الفاتنة (ربما الساذجة ـ الفاتنة ، مع ذلك) ـ
الأحجار البيضاء الضخمة ، المطارق ، وهؤلاء العرايـا
في الورشات (معظمهم مصارعون ، وملاكمون أشـداء)
وساقان انفرجتا في توازن زائد ، لا ، لا ،
ذلك ليس شيئا مضحكا ـ يقول ، انه يتجاوز الأسى ، ـ
ذلك الكلب المهزول ، المغطى بالقراد والقروح ،
الذي يشرب ماء قذرا من دلو الغسـيل
المتروك بجوار التماثيـل شبه العارية للأبطال الموتى ٠

❋ آنئـذ والآن

كانت الآلهة دائما ما تتدخل في اللحظة الأخيرة
لتمنع ما هو أسـوأ من الوقـوع ٠
فقبل أن ينهي الرسول الكلام ،
أو قبل أن يكتمل تشكيل صورة دمار السفينة في ذهن الملك.
كانت أثينا تظهر على سطح المعبد ،
فتخاطب الملك البربري واليونانيين الذين جذفوا بعيدا

فى زورقهم ذى الخمسين مجدافا : « المصير » ، أعلنت ،
« هو واحـد لكل من الآلهة والمخلوقـات ٠
ولهذا فغضبك يا « ثاءوس » ، ليس مناسـبا ٠
أما أنتم أيها الآخرون ــ أتمنى لكم ابحارا صحوا » ٠
لكن الآن لم تعد هناك آلهة ، ونخاف الأسوأ ــ
ذلك الغضب المناسب ــ حتى ولو كانت سفينة أوريست
قد تحطمت بالفعل على الصخور في الأسـفل ، حتى ولو لم يبـق منها
سوى لوح خشب وحيد طافيا ، منقوشـا بكلمة
الصـمت ٠

* المدينـة الأخـرى

هناك قفار كثيرة تتداخل ــ يقول ــ صعودا وهبوطا
وأخرى فى الوسـط ، قفار مختلفـة أو متشابهة ، بعضها اجبـارى ، ضرورى ،
وبعضها كأنه اختيارى ، كأنه حر ــ لكنها دائما متداخلة ٠
مع ذلك ، ففى العمق السحيق ، عند المركز ، هناك قفر وحيد ــ يقول ،
مدينـة جوفاء ، كرويـة تقريبـا ،
بلا اعلانـات اليكترونيـة متعـددة الألوان ، بلا بقـالات أو موتوسـيكلات ،
وحده الضوء الأبيض الفـارغ للضـباب ،
تكسره ومضـات اشـارات غير مألوفـة ٠
فى هذه المدينة ، عاش الشعراء لزمن طويل ، طويل ٠
يمشون بلا صوت ، أيديهم معقودة ،
يتذكرون مشـاهد وكلمات وأشياء منسية ، غامضـة ،
هم ــ الذين يمنحون العزاء للعالم ــ دائما بلا عزاء ،
فريسـة للكلاب والناس ، والعثة والفئران والنجوم ٠

قريسة أيضا لكلماتهم ـ هم أنفسهم ـ التى نطقوهـا أو لم ينطقوهـا ٠

❋ حفـلة تنكريـة

وسط الأقنعة الكثيرة فقد وجهه ، ينظر ـ

القناع الأحمر ، الأزرق ، الأسود ، الأصفر ، وذلك القناع .

البنفسجى مع الترتر حول الفـم والعينـين ،

أو هذا الآخر باللحية المتعجرفة الطويلة ـ انه أول ما ارتدى

عندما كان فى العاشرة ـ كان يناسبه تماما

(وثبت أنه كان حقيقيا بشكل كامل تقريبا بعد حوالى خمسين عامـا) ،

والقناع الأبيض ، الجبسى ، بعينيه الخاويتين وبلا أنف ، كأنه يمثـل موتـه ، ـ

كان يريحه ، ارتداه كثيرا ، ولم يكن سوى

رطوبة الجبس وذلك الغبـار الدقيـق ،

كان خائفا من أن يلتصق بجلده (آه ! هذا القناع كان وجهه حقـا) ،

هناك على الجدار ـ انه هناك ، معلق ،

يدس غليون بحار بين أسنانه ، يضـع نظارات شمسية على عينيـه ـ

عينين غائرتين ، عمياوين ، تحدقان فيه ،

تدفعـانه الى اختيـار جديد ـ مرة أخرى ، القناع الأحمر ، الأصفر ، الأزرق ٠

❋ ركـود

تلك هى الكيفيـة التى اعتدت بها على كل شىء ـ قال ،

حتى تلك الأشياء التى ربما أدهشتنا ذات يوم ،

هى الآن عاديـة وباليـة ٠

وليست المسألة فحسب أن الأشياء تذوى
فعيوننا أيضا تذوى ـ الآن يتجنبون النوافذ الملونة ،
والأضواء الصناعية القوية ـ يفضلون الآن الممرات المعتمة
أو الطرق السرية المتماثلة ـ تماثلها يشبه الأبد .
ولم تعد تراها غريبة أن تبدأ السماء فى الهطول عند الفجر ،
أو أن تدق ساعة مبنى البلدية الثانية عشرة فى الظهيرة ،
والساعات المتروكة بالخارج لا مبالية ، وحيدة ،
مكشوفة فى العراء ، غير مشبعة أبدا .
امرأة مجهولة تتجول فى المنزل ، شعثاء ،
وجواربها النايلون ترتخى راكدة .

* التناقضات المعتادة

الكلمات ـ قال ـ الكلمات التى لم تنطق ، رفقتنا الوحيدة ،
ندرسها ، نقيمها ، تقيمنا ـ يتعمق المشهد الطبيعى ،
لا تعثر فحسب على عظام ، بل أيضا على أجنحة وأجساد
جميلة ـ
تلائمك ، تلائمها ، تتلاشى ، ها قد رحلت .
يعثرون علينا خلف الأبواب ، الجدران العالية ، متحفتين -
تعرف ذلك ـ انها الوسائل الوحيدة للتواصل .
الحوائط الخشبية بين الغرف تتحول الى زجاج .
ترى الكلمات وهى تسقط على منضدة الطابق التحتى العارية
بصوت أجوف
مع حشرات الليل حول المصباح الخارج على القانون .

* ازدهار غير طبيعى

أراد أن يصرخ ـ لم يعد يستطيع الاحتمال .
ما من أحد كان هناك ليسمع ،

ما من أحد أراد أن يسمع ·
هو أيضا كان خائفا من صوته ، فأغرقه بداخله ·
لا بد لصمته أن ينفجر ·
ولسوف تتناثر شظايا جسده فى الهواء ·
سوف يلملمها بعناية ، بهدوء ،
يعيدها الى أماكنها ليسد الفجوات
واذا ما عثر بالصدفة على خشخاشة ، أو سوسنة صفراء نحيلة ،
فسيلمها أيضا ، ويضعها فى جسده ،
كأنها كانت جزءا منه —
هكذا كان ، مع امتلائه بالفجوات ، مزدهرا ة غرابة ·

* حفريات ١

٢٢٠٠ ق·م ، ١٩٦٥ ق·م ، ٨٢ م — زهريات فاتنة ،
معبد أبوللو ، الساحة العامة، أبعد فى الأسفل النبع المقدس،
عملات ذهبية ، وفضية ، وبرونزية ، محفور على أحد وجهيها « بيرين »
و « بيجاسوس » على الآخر ،
المنصة حيث وقف « بول » ليدافع عن نفسه أمام القنصل « جاليو » ،
أجزاء من مبنى ، وأساسات ، وجدران ، وأجساد ساكنة من حجر ،
سلالم بلا حصر ، سلالم بيضاء الى أعماق الأرض ·
« أنا ، عزيزتى أنا » ، تمتمت المرأة العجوز ·
« ما فائدة كل هذه السلالم ؟ ،
نصف خطوة الى أسفل فلا يمكننى العثور عليك فى أى مكان» ·
واصل السيد « ويليامز » حفرياته الرائعة ·
وعلى أحد الأجناب بالخارج، كان جورج المراكبى يزرر بنطلونه ·

ومض مشبك حزامه فى الشمس ـ
تماما مثل حزام بوسيدون الكورنثى ·

✻حفريـــات ٢

عليك بالمواصلة ، الى الأسفل أكثر ، أعمق ـ
ينقصك اصـبع ، يد ، ينقصك ضـلع ، والسيف ، والعنب
الذابـل ـ فلتواصـل ·
القديم يكملنا · ما الذى يمكن أن يأخذوه فى الحاضر منك ·
لكننا نحتفظ بالآخر ـ رفيقا سريـا ، مفيـدا فى التمشيات
المنفردة
عنـد النزول الى الموانىء القـديمة فى ليشـايى وكينشيراى
وكورنثـة
أو هنـا على شواطىء سـاموس ·
فى أصـائل الصيف الحار يرتشف أهل سـيكيون الصودا
المثلجة فى مقهى كياتو ،
الآخرون يصطادون السمك فى المرفأ بالصنارة ·
نساء صامتات يحملن ماء الخلود فى جرار ملونـة رائعـة
تحت أشـجار الحور والليلك ·
دع قمـة كورنثـة الى السيد « سترونجـا » ،
دعـه ينقب عن كنوز « كياميك » بك ·
وستشعل محرقة الموتى ، فترمى بضوئها
على موكب التماثيل العارية التى نخبىء أنفسنا بينها ،
وبمفتاح ، كاعلان ، تندس قصيدة فى ابطنا ·

✻ مشـــهد

فى الرواق ، وقفت المرأة الحزينة ، والمحامى ، والحارس ·
فى المكتب المجاور للبـاب يرن التليفون · « فى الرابعة » .
قالوا « القـارب » ·

« فى الرابعة » ، قالوا ، « تماما » .
قرقعت البوابة الحديد من جديد .
كانوا يجيئون بمزيد من الناس الى الساحة .
« سأرسل لك سجائر » ، قالت المرأة .
« حان الوقت » ، قال الحارس .
على الجدار كان عنكبوت كبير يزحف .
انفتح الباب الثانى فجأة ـ انكفأ الرجل الميت على وجهه .
والآخر اختطف العنكبوت ، ودسه فى فمه ،
وهو يضحك وأسنانه منطبقة .
« تكلم » ، صرخوا فيه . « تكلم » .
« تكلم » ، هددوه . لم ينطق بكلمة . كان يضحك .
جلست المرأة على البطاطين وأخفت وجهها فى يديها .

* أحجار

تأتى الأيام ، وتمضى ، بلا مجهود ، بلا دهشة .
والأحجار تغوص فى الضوء والذاكرة .
واحد يجعل من حجر وسادة .
آخر يضع حجرا فوق ملابسه قبل السباحة حتى لا تطير مع الريح .
وآخر يستخدم حجرا مقعدا له ،
أو ليحدد شيئا ما فى حقله ، فى المقبرة ، فى الحائط ، فى الغابات .

فيما بعد ، بعد الغروب ، عندما تعود الى البيت ،
فان أية حصاة من الشاطىء تضعها على منضدتك
هى تمثال صغير ـ « تانيكى » صغيرة أو كلب « أرتميس » صغير .

وتلك الأخرى ، التى وقف عليها شاب بأقدامه المبتلة فى الظهيرة ،
هى « باتروكلوس » ذو رموش طويلة مسدلة .

* متتالية الاحساس

غاصت الشمس أرجوانية ، فبرتقالية
والبحر معتم ، أخضر لازوردى .
وبعيدا ، هناك قارب ـ
علامة سوداء متأرجحة .
شخص ما نهض وصاح : « قارب ، قارب » .
ترك الآخرون ـ فى المقهى ـ مقاعدهم ، ونظروا .
كان هناك ـ بالتأكيد ـ قارب .
لكن الرجل الذى صاح ،
كما لو كان ـ الآن ـ مذ
نظر الى أسفل ، وقال :
« لقد كذبت عليكم » .

* لحظة خشوع

كانوا ينخلون الرمل على الشاطىء ، وحملوا :
فى الشمس الحارقة كانوا يقطرون عرقا
بعد الظهر ، خلعوا ثيابهم ، امتطوا جيادهم ومضوا الى البحر،
مذهبين سمرا من الشمس الحارقة ومن شعر أجسامهم .
أطلق شاب صرخة وأسقط يده الى مفترق ساقيه .
أسرع الآخرون اليه ، حملوه ، أرقدوه على الرمل ،
وهم ينظرون اليه صامتين ، عاجزين عن الفهم ،
الى أن أبعد أحدهم اليد ـ فى خشوع ـ عن مفترق الفخذين ،
آنئذ، رسموا جميعا ـ وهم يتحلقون حوله ـ شارة الصليب.

والجيـاد ، بليلـة ، ذهبية ، تنشـقت ،
ورؤوسها تشير بعيـدا الى الأفـق ٠

* ذنـب

أخـذ قبعتـه وخـرج ٠
ظلت عند المنضدة بالقرب من المصباح ٠
عندما أصبح وقـع خطواته بعيـدا ،
نظرت الى يـدها فى الضـوء ٠
« انها جميـلة » ، قالت ٠
بعد ذلك ، كما لو كانت تبرىء نفسها أمام شخص ما هناك ،
أخذت الخبز الى المطبخ وأطفأت النور ٠
فى الخارج مرت عربـات الكارو والقمر ٠

* اذعـان

فتحـت النافـذة ٠
أطلقت الريح ، فى هبـة مفاجئـة ، شعرهـا ،
كطائرين كبيرين ، على كتفيها ٠
أغلقت النافـذة ٠
كان الطائران على المنضـدة ينظران اليها ٠
أحنت رأسها بينهما
وبكت فى هـدوء ٠

* رحيـل

تلاشى فى نهايـة الطريـق ٠
كان القمـر عاليـا ٠

صرخ طائـر على الشـجرة ·
انها قصـــة عادية ، بسـيطة ·
لم ينتبـــه أحـــد ·
بين عمودى اضـــاءة الشـــارع
بقعـــة دم كبيرة ·

* سباق الظـلال

عند انقلاب الصيف ، حينما كان شديد الحرارة ،
كنا نتمشى لساعات فى الطريق المقدس خارج جدران المدينة ·
تراب لا ينتهى ، وعـرق ، وشمس تعمى ·
المظلة البيضاء مرفوعة فوق رأسى اثنين من الكهنة
بيـد اثنين من ذريـة « اتيوبوتـادى » ،
وهم ينزون عرقا ، فى حالة يرثى لها ، متمسكين بعجرفتهم ·
كان يبدو كأن الشمس كلها قد تركزت
على هذه الخيمة البيضاء البـــاهرة المتحركـة ·
عندما وصلنا ، فى النهاية ، والصخور العارية تعمينـا ،
غطينا الأيقونـــة بالتراب ·
آنئـذ ، توقف العرق فى الحـــال ·
نـدى عـذب رطـب المظـلة ·
ظهرت غيوم خفيفة فوق قمم التلال· سقط ظل على الرموش·
ربما كان من انهاك هذا المسير · لكن لا ·
كان الشبان يخلعون ثيابهم ·
والمباريـات الرياضـية كانت تبـدأ ·

* بعـد الهزيمـة

بعد تدمير الأثينيين في « أيجوسبوتامى » ، بعده بقليل ،
بعد هزيمتنـا النهائية · تلاشت المناقشات الحرة ، والمجـد
البريكليسي ،

وازدهار الفنون ، والملاعب ، ومنتديات فلاسفتنا ٠
الآن الكآبة ، صمت ثقيل فى الأسواق ،
وقذارة الطغاة الثلاثين ٠
كل شىء (حتى أخص ما يخصنا) يحدث باهمال
دون فرصة لشكوى ، أو دفاع ، أو تبرير ، أو حتى احتجاج شكلى ٠
أوراقنا وكتبنا أحرقت ، وشرف وطننا يبلى ٠
حتى اذا ما سمح لصديق قديم أن يمثل كشاهد ،
فسوف يرفض مخافة أن يقع فى نفس المتاعب ـ
وسيكون محقا بالطبع ٠
لهذا ، فمن الأفضل أن نكون هنا ـ من يدرى ،
فربما يمكننا أن نحظى بتواصل حى مع الطبيعة ،
ونحن ننظر الى جزء من البحر ، والصخور ، والغابات
أو الى غيمة عند الغروب ، نائية ، بنفسجية ، ترحل ، خلف السلك الشائك ٠
وربما يصل ذات يوم « كيمون » آخر ، يقوده فى السر نفس النسر ،
وسيحفر ويعثر على رأس حربتنا الحديدية ،
صدئة ، متهالكة ،
فيمضى الى أثينا ، ويرفعها فى موكب للعويل أو الانتصار
مع الموسيقى وأكاليل الغار ٠

*** ونحكى عنهم ٠٠٠**

بالطريقة التى انحدرنا بها مع كلماتنا وأفكارنا ،
لا يمكن أن تربكنا الأمجاد القديمة أو اللاحقة ،
ولاكتب السيرة لأرستيديس ـ
وعندما يبدأ أحدنا ـ أحيانا ـ فى تذكر احداث الثلاثمائة أو المائتى عام ،

يقـــاطعه الآخرون على الفور بـازدراء ، أو ـ في الحـــد الأدنى ـ بريبة .

لكن أحيانا ـ مثل الآن ـ عندما يصفو الطقس ذات يوم أحد ،

ونحن نجلس تحت شـجر الأوكالبتـوس ، فى هذا الضـوء العنيـــد ،

يطغى الحنين الى الأمجاد القديمة على أحدنـا

ـ لا يهم ان كنا نصـفها بأنها رخيصـــة ـ

عندما بدأ الموكب فى الفجر ، نافخ البوق فى المقدمة ، خلفه المركبات المحملة بأغصان الغار والآس ،

ثم الثور الأسود وفتيان يحملون جرار اللبن والنبيـذ

من أجل القرابين وقوارير زيت وعطر جميلة ـ

لكن أكثر ما كان يبهرنا ، فى نهاية الموكب ،

حاكم « بلاتيآى » بكل ما يرتديه من أرجوان ،

وهو الذى لم يكن مسموحا له بقيـة العام بلمس الحديد

وعليه بالتزام الأبيض فى كل ثيابـه ،

الآن يرتدى الأرجوان ويحمل سيفا طويلا ،

عابرا المدينة فى مهابة ، نحو مقابر الأبطال ،

حاملا جرة من جرار الدولـة .

وبعد غسل شاهد المقبرة ، بعد الأضحيات السخية ،

يرفع كأس النبيذ ، يعلن وهو يريقه على المقـابر

« اننى أقدم هذا الكأس الى أشجع الرجال

الذين سـقطوا من أجـل حريـة اليونـانيين » ، ـ

وتمرق رعشة خـلال غابـات الغار القريبـة ،

رعشـة تظـل ترفرف خـلال أوراق هذه الأوكاليبتوس

وخـلال هذه الثيـاب المرقعـة من كل الألوان

المعلقة كى تجف فى الشمس .

* الرقصة الجديدة

ليست أعذارا فحسب ، بل دوافع أصيلة ، نتائج هامة ــ
أهواء، ومصالح ، ومخاطر، ومخاوف ــ باسيفاى، والمينوتور،
والمتاهة ، وأرياذنى ، وخيطها الشبقى الجميل
الذى لا يرتخى ، فيقوده فى الظلام الحجرى .
ثم عودة « ثيسيوس » الظافرة .
توقف فى ديلوس وهناك رقص « ثيسيوس » حول الكيراتون
(المذبح الشهير المصنوع بكامله من قرون الحيوانات)
مع فتيان أثينا الذين رافقوه ، رقصة جديدة خارقة
بخطوات متقاطعة ترددت ــ ربما ــ فى ضوء الظهيرة القوى ،
وفى المنعطفات المظلمة للمتاهة ،
وربما من يدرى ــ صنعت الطيور وزيز الحصاد هذا الصخب العظيم
فى غابة الصنوبر الصغيرة القريبة ــ
ما الذى لم تستطع اكتشافه ، وكنت مشدوها
من الشمس والانعكاسات الصادرة من البحر ،
زجاج دقيق مسحوق ، والحركات الباهرة للأجساد العارية ــ
رقصة خارقة .
وفيما بعد نسينا كل ما يتعلق بالمينوتورات والباسيفايات والمتاهات
وحتى أرياذنى البائسة التى تموت وحيدة مهجورة فى ناكسوس .
لكن الرقصة سرعان ما انتشرت فى البلد وما نزال نرقصها .
منذ ذلك الحين ، واكليل السعف مقضى بأن يكون
رمزا تذكاريا للمباريات الرياضية فى « ديلى » .

* أفول الأرجو

الليلة ونحن نتحدث عن كيف تمر الأشياء وتشيخ ، تصبح رخيصة ــ

النساء الجميلات ، والمآثر البطولية ، والقصائد ـ
تذكرنا السفينة الأسطورية عندما جاءت الى كورنثة ذات ليلة ربيعية ،
وقد نخرها السوس ، متهالكة ، ومساند المجاذيف محطمة ،
مليئة بالترميمات ، والثقوب ، والذكريات ·
الموكب الطويل عبر الغابة ، بالمشاعل، والاكاليل ، والنايات، ومباريات الفتيان ·
كانت الأرجو القديمة هبة فاتنة الى معبد بوسيدون ·
ليلة جميلة ، ترتيل الكهنة ، بومة تنعب من قوصرة المعبد ،
الراقصون يقفزون ـ بخفة ـ على السفينة
يقلدون الفعل العنيف بتكشيرة غير مهذبة ،
حركة المجاذيف غير الموجودة ، والعرق ، والدم ·
آنئذ ، بصق بحار عجوز عند قدميه ومضى الى الغابة الصغيرة ليبول ·

* يأس بنيلوب

لم تكن المسألة أنها لم تستطع التعرف عليه
فى الضوء الكابى للنيران ،
لم تكن أسمال المتسول ، وتنكره ·
لا ·
كانت هناك علامات واضحة :
الندبة فى مقدمة الركبة ،
جسده المفتول العضلات ، ونظرته الماكرة ·
حاولت ـ فى رعبها ، وهى تستند على الجدار ـ
أن تجد تبريرا ما ، مهلة ما ، كى تتفادى الرد ،
حتى لا تخون أفكارها ·
أكان من أجله أن ضيعت عشرين عاما ،
عشرين عاما من الانتظار والحلم

من أجل هذا البائس ، الغارق فى الدماء ، بلحيته البيضاء ؟
انهارت على المقعــد بلا كلمـــة ،
أمعنت النظر فى الثيــاب الذبيحــة على الأرض ،
كما لو كانت ترى رغبــاتها القتيلـــة ٠
قالت : « أهـــلا » ،
فتســمع صوتها كأنــه يجئ من بعيــد ،
كأنــه صــوت شــخص غريب ٠
والنول ــ فى الركن ــ يرمى بظله كقفص على الســقف ،
والطيور التى نسجتها بخيوط حمراء زاهيــة وسط الأخضر
تتحول الآن الى الرمـــادى والأســود
وترحل مرفرفة خفيضــة فى السماء الفــاترة
لمحنتها الأخــيرة ٠

✻ أثيــــنا ١٩٧٠

فى هذه الشـــوارع
يمشى النـــاس ،
يهرع النــاس ، يتعجلون
أن يبتعـدوا ، أن يفروا (ممــن ؟) ،
أن يذهبوا (أين ؟) ــ لا أعرف ــ لا وجـوه ــ
منظفات للفراغ ، أحـذية ، صناديــق ــ
يهرعـــون ٠

فى هذه الشـــوارع ، فى زمن آخر ــ
مروا بأعــلام كبيرة ،
وكان لهم صــوت (أذكر ، سمعته) ،
صــوت مســـموع ٠

الآن ،

يمشون ، يهرعون ، يجـرون ،
ســاكنين فى هـرولتهم ـ
يأتى القطـار ، يركبون ، يتدافعون ،
ضـوء أخضر ، أحمـر ،
البواب خلف الفاصـل الزجـاجى ،
البغى ، الجنـدى ، الجزار ،
الحائـط رمــادى ،
أعلى من الزمــن ٠

حتى التماثيـل لا تستطيع أن تـرى ٠

٭ تحذيــرات

ربما سـيكون عليـك أن تظـل متمالكا لصوتـك ، ـ
غـدا ، بعـد غـد ، بعض الوقت ،
وعنـدما يهتف الآخرون تحت الأعــلام ،
سيكون عليك ـ أنت أيضـا ـ أن تهتف ،
لكن تأكد أنك تسـدل قبعتـك على عينيـك ،
الى أسـفل ، أسـفل تمامـا ،
حتى لا يروا الى أين تنظر عينــاك ،
ولا يهم ان كنت تعرف أن هؤلاء الذين يهتفون
ينظرون الى اللامـكان ٠

٭ ذنب سرى

الاثم والبراءة ـ قلنا ـ شىء واحد فى نفس الليــلة ٠
الآخر أقسم ألا يقول ٠ لكن من يـدرى ـ

فأنت لا تستطيع أبدا أن تتأكد ما اذا كان وكم من الوقت
سيظل صامتا ، وستظل صامتا ، ـ
وربما ستندفع بحماقة لتسبق الآخر ،
وأنت تنظر الى المطر يقطر
أسفل الزجاج المضاء للمطعم ،
حينما يسمع المقعد وهو يسقط فى الزحام ،
والكوب يتهشم ،
وهو ، والطعنة فى جنبه ، دامى العينين ،
يمد ذراعه الكبيرة ، المفتولة
ويشير اليك .

* وظيفة الشاعر

فى الممر ، المظلة ، والحذاء المطاطى ، والمرآة ،
فى المرآة ، النافذة أقل سكونا ،
فى النافذة ، بوابة المستشفى عبر الشارع ،
هناك ، طابور طويل من المتبرعين بالدم
المألوفين ، ذوى الصبر النافد ـ
أوائلهم شمروا أكمامهم
بينما المصابون الخمسة فى الغرف الداخلية ميتون .

* رسام تجريدى

رسام ـ ذات أصيل ـ رسم قطارا .
هربت العربة الأخيرة من الورقة .
عادت الى المخزن بنفسها .

فى هذه العربة ـ بالذات ـ كان يجلس الرسام .

* ايضاح ضرورى

هناك مقطوعات معينة ـ وأحيانا قصائد بكاملها ـ
لا أعرف معناهـــا ٠
انه ما لا أعرف هو الذى يحملنى على الصمت ٠
فأنت محـق فى أن تســألنى ٠
لكن لا تســـألنى ٠
فأنا لا أدرى ، أقول لك :
ضوءان متوازيان يأتيــان من نفس المركز ٠
صــوت الماء المتســاقط فى الشـتاء
من ماسورة صرف المياه الزائـدة ،
أو صوت قطرات الماء وهى تسـاقط
من زهرة فى حديقـــة مرويـــة ،
بطيئـــة ، بطيئـــة على مســـاء ربيـــعى
كنشـــيج طائــر ٠
لا أعرف ما يعنيــه هذا الصـــوت ،
ومع ذلك ، فـــاننى أقبـــل بـــه ٠
فأيا ما كان ما أعرف ، فقـد أوضحتـــه لك ٠
لســت متجاهـــلا ٠
لكن هذه ـ أيضـــا ـ تضيف الى حياتنـــا ٠
فاننى ألاحظ ـ عنـدما نامت ـ
كيف شــكلت ركبتاهـــا زاويــة على الملاءة ـ
لم تكن ـ فحسب ـ مسألـة حب ٠
فقـد كان هذا الركن ملتقى العذوبـــة ،
وشـــذى الملاءة ، والنظافـــة ،
والربيــع المكمل لذلك الشىء المستعصى على التفسير
الذى حاولت ـ دون جـدوى مرة أخرى ـ
أن أفسره لك ٠

* لحظـــة

حى بحـارة منبـوذ • الأضـواء ناعســة •
حانات البيرة البائسـة مصفوفة فى طابور كنساء معدمات ،
ينتظرن بلا أمـل أمام المستشفى القروى •
الشـارع مظلم • الجميع قرروا النوم مبـكرا •
لكن فجـأة
تضـاء الحانـات حتى مقاعدهـا الأخيرة
بالضحكة البيضاء الناصعة لأحـد الشبان •
وبعدهـــا مبـــاشرة
جاء صوت البحر اللانهائى ، المنتظم ، الذى لا يقهر •

* تطـابق

هذا التمثال البرونزى اتخذ وضـعا وفق هواه فى منتصف الشـتاء ،
تلك الخطوة العملاقـة للحصـان
كأنه يقفز على الرياح العكسية الجبـارة ،
حتى لو كانت سيماء الفارس المتكبرة ، المتعاليـة
قد تعادلت مع الهطول والغيوم والعواصف المرعـدة
عندما حولت ومضات البرق العنان الى شعلتين نحيلتين ثابتتين
حتى أنك لا تستطيع أن تقول ما اذا كان العواء
قد صـدر من الريـح على طول الشوارع العـارية
أم من الفـم المفتـوح للتمثـال •
لكن الآن •
مع هذا الربيـع ، المسترخى ، المتساهل ، المتسامـح ،
مع هذا الضوء الناسى ، هذا الضوء ذى المزاج الطيب
(ربما بسبب الجبن ، أو منهكا من الحـر)
الذى تربط به أشعة الشمس المتاحة ورقة الشجر بالأخرى ،

الشـجرة بالأخرى أو بالبيوت ،
النظرة بالأخرى أو بالشـفاه ــ
مزاج التمثال أصبح الآن فوق الاحتمال، مستفزا ، غير لائق ،
الى حد أن الفارس البرونزى ــ نفسه ــ قد ترجل عنه ،
نادى ثلاثة عاطلين كانوا ينتظرون فى الحديقة العامة بالمعاول،
وبدأ ــ وهو ينز عرقا ، راضيا ــ فى تحطيم تمثالـه ٠

✻ مدرج مسرحى قديـــم

عندما وقف شـاب يونانى ــ حوالى الظهيرة ــ
فى مركز مدرج مسرحى قديـم دون أن يرتـــاب ،
ووسـيما مثلما كانـــوا ،
أطلق صيحة (لا من الاعجاب ، فلم يحس أبدا بالاعجـاب
وحتى اذا كان قد أحسه ، فلم يكن ــ بالتأكيد ــ ليظهره) ،
صيحة بسـيطة ، ربما من فرح لم يروض بشـبابه
أو ببســاطة ــ ليجرب خصائص السماع بالمكان ٠
فى الجهة المقابلة ، عاليـا فوق الجبل المندفع ، رد الصدى ــ
الصـدى اليونانى ، الذى لا يقلد ولا يكرر
لكنه يتواصـل ــ ببسـاطة ــ الى ارتفـاع بلا حدود
الصيحـة الخالـدة للقصـيدة الحماسـية ٠

✻ شـــجرة

تجذرت هذه الشجرة فى الجانب الأقصى من الحديقة ،
طويـلة ، نحيـلة ، وحيـدة ــ
ربما خان ارتفاعها فكرة سرية عن الاقتحـــام ٠
لم تنتـج ثمرة ولا زهـرة ،
بل ظلا طويلا ــ فحسب ــ يقسـم الحديقة الى اثنتين ،
وقياسا على التعارض مع الأشجار المحنية ، المحملة ٠

كل مسـاء ، بعد ما يتـلاشى الغروب المجيـد ،
يجثم طائر برتقالى اللون ، غريب ، صامتـا وسط أوراقها
كأنـه ثمرتها الوحيـدة ـ
مثل جرس ذهبى صغير فى برج هائل ، أخضر ·
عندما قطعت الشجرة، رفرف الطائر حولها بصرخات وحشية، قصـيرة ،
وهو يرسـم دوائر فى الهواء ، يرسـم فى الغروب
شكل الشجرة الذى لا ينفد ، وذلك الجرس الصغير
دق فى الأعلى دون أن يرى ،
بل وأعلى من ارتفـاع الشـجرة الأصـلى ·

* صعـود

جلس طوال أيـام فى حقـل أحـد الغربـاء ،
وهو يخطط دائما لتسلق شـجرة التين الجرداء ذات يوم فى السر
كى ينظر الى العالم من أعلى ، باحساس ورقـة شجر
أو باحسـاس طائـر ،
لكن دائما ما كان يمر شـخص ما ،
فاستمر بذلك ـ دائما ـ فى التأجيـل ·
ذات غسق ، تلفت فى حذر حوله ـ ما من مخلوق ـ
وتسـلق بمشـقة الى أعلى غصن ·
آنئذ ، سمع أصواتـا وسط الأدغـال :
« ما الذى تفعله عاليـا هناك ؟ »
أصوات عالية ، ورد : « تينـة ، كانت هنـا تينـة أخيرة » ·
انكسر الغصن ·
أنهضـوه ·
أطبقوا باحكام على يـده اليمنى :
عندما أجبروه على فتـح أصابعـه ، لم يجدوا شيئا ·

* اعـــادة تشـــكيل

ذلك الذى تسميه سكينة أو انضباطا ، رحمة أو لا مبالاة ،
ذلك الذى تصـــفه بأنه فم مغلق على أســـنان مطبقـــة ،
يكشف الصمت العذب للفم ، يخفى الأســـنان المطبقـــة ،
هو ـ فحسب ـ تحمل المعدن تحت المطرقة النافعة ،
تحت المطرقة الرهيبـــة ـ ذلك ما تعرف :
أنك تعبر من اللاشـــكل الى الشـــكل ٠

* أرضنـــا

تسـلقنا التـل لنلقى نظرة على أرضـــنا :
حقول قليـــلة وفقيرة ، صخور ، أشجار زيتون ٠
مزارع كروم تمتد الى البحر ٠
بجوار المحراث نار صغيرة ترســـل الدخـــان ٠
صنعنا من ثياب الرجل العجوز خيال مآتة لمواجهة الغربان ٠
وأيامنا تتقدم نحو خبز قليـــل وشمس كبيرة ٠
تحت أشجار الحور تلتمع قبعـــة من قش ٠
الديك فوق الســـياج ٠
البقرة صفراء ٠
كيف توصلنـــا الى تنظيم بيتنا وحياتنـــا
بيـــد من حجـــر ؟
وثمة ســـناج ـ حتى عتبـــة النافـــذة ـ
من شموع عيـــد الفصـــح ، عاما بعـــد عـــام :
صلبـــان صغيرة سوداء رسمها هنـــاك
الموتى العائـــدون من صـــلاة النشور ٠
هذه الأرض مفتونـــة بالصبر والكرامة ٠
كل ليـــلة ،
تشرئب التماثيل من البئر الجاف فى حذر ،
وتتســـلق الأشـــجار ٠

* العــودة

فى البدايــة ، رحلت التماثيــل ٠
وبعد قليــل ، الأشــجار والناس والحيوانات ٠
أصبحت الأرض ـ بكاملها ـ مهجورة ٠
هبت الريـــح ٠
تجمعت الجرائد والأشواك فى الشوارع ٠
فى الغسق ، انطفأت الأنوار من تلقــاء نفسها ٠
عاد رجــل وحــده ، نظر حواليــه ،
أخرج مفتاحــه ، وغرســه فى الأرض
كأنه يســلمه الى يــد تحت الأرض
أو كأنــه يزرع شــجرة ٠
ثم صــعد الســلالم الرخاميــة
وحــدق أســفله فى المدينــة ٠
فى حذر ، واحدا وراء الآخر ، عادت التماثيــل

★★★

أعمال ريتسوس الشعرية باليونانية حتى عام ١٩٨٠

١٩٣٤ : تراكتورات
١٩٣٥ : أهرامات
١٩٣٦ : ابيتافيوس
١٩٣٧ : أغنية أختي
١٩٣٨ : سيمفونية الربيع
١٩٤٠ : مسيرة المحيط
١٩٤٢ : مازوركا قديمة على ايقاع المطر
١٩٤٣ : محاولة
١٩٤٥ : رفيقنا
١٩٥٢ : الرجل ذو القرنفلة
(نيقوس بيلويانيس)
١٩٥٤ : سهر
١٩٥٥ : نجمة الصباح
١٩٥٦ : سوناتا ضوء القمر
١٩٥٧ : تأريخ
وداع
الجرة
شفافية الشتاء
وقت حجري
(ماكرونيسيوتيكا)
جيران العالم
١٩٥٨ : عندما يأتي الغريب
مدينة بلا خضوع
معمار الأشجار
فيما وراء ظل أشجار السرو

١٩٥٩ : العجوز والبحر
امرأة بجوار البحر
١٩٦٠ : النافذة
١٩٦١ : القديس الأسود
(باتريس لومومبا)
قصائد ، الجزء الأول
قصائد ، الجزء الثاني
١٩٦٢ : البيت الميت
تحت ظل الجبل
١٩٦٣ : شجرة السجن والمرأة
شهادات ــ ١
١٢ قصيدة الى كافافي
١٩٦٤ : قصائد ، الجزء الثالث
ألعاب مرحة للسماء والماء
١٩٦٥ : فيلوكتيت
١٩٦٦ : روميوسيني
أوريست
شهادات ــ ٢
١٩٦٧ : أوسترافا
١٩٧٢ : أحجار وتكرارات وقضبان
هيلين
ايماءات
البعد الرابع
عودة ايفيجيني
كريسوثيميس
ايسمين

١٩٧٣ : ١٨ أغنية قصيرة الى الوطن
المريـــر
الممـر والسـلالم
جراجـانـدا
١٩٧٤ : وعـاء السـخام
بـرج الكنيسـة
الحائـط فى المرآة
ورقيـات
محـاولات
١٩٧٥ : سيدة الكروم
القرن الأخير قبل الانسانية
أشـغار ظرفيـة
ملحق المجـد
(آريس فيلوشيوتيس)
يوميـات المنفى
النسوة المبعوثات
قصائد . الجزء الرابع

١٩٧٦ : الحراسـة
١٩٧٧ : البعيـد
ملائـم
١٩٧٨ : عسـكرى المرور
البوابـة
الجسـد والدم
امرأة مونيمفاسـيا
الرائعـة الرهيبـة
فيـدرا
اذن ؟
مطرقـة البـاب
١٩٧٩ : كتابـة الأعمى
١٩٨٠ : شـفافيـة
آلات ذات وتر واحـد
ايروتيـكا
محاكاة تهكمية

* * *

المراجع

رفعت سلام ، يانيس ريتسوس : قصائد من دم وحجر ، مقدمة (يانيس ريتسوس : اللــذة الأولى ، ترجمة وتقديـم ، الملحقيـة الثقافية اليونانية ، القاهرة ١٩٩٢) .

ريتســـوس ، القصيدة فعـل جمالي متكامل (حوار) ، ترجمة ضـياء نافع ، مجلة الأقلام (بغداد) ، يونيو ١٩٨٧ .

Edmund Keely, Ritsos in Parentheses, Princeton University Press, Princeton, New Jersey, U.S.A.

Gérard PIERRAT, La Longue Marche d'un Poéte, in : Yannis Ritsos, AVANT L'Homme, Flammarion, Paris, 1975.

Peter BIEN, Introduction, in : Yannis Ritsos, Selected Poems, Efstathiadis Group S.A. Athins, 1993.

C. CAPRI-KARKA, Doorman's Booth ;

Peter BIEN, ORESTES, Cow ;

William SPANOS, Yannis Ritsos' Romiosini, Style as Historical Memory ;

Yannis RITSOS, By way of Introduction to the Testimonies ; Upon Reading Again the Collections The Wall In The Mirror and Doorman's Booth ;

in

The CHARIOTEER, Speciel Double Issue (20-30), 1987-1988. Pella Publishing Company, New York.

تعريف بالمترجم

★ شاعر ومترجم

★ تخرج من كلية الآداب / قسم الصحافة ، بجامعة القاهرة ١٩٧٣ ٠

★ صدر له خمسة دواوين شعرية ، وكتابان فى الدراسات ، وخمسة كتب فى الترجمة ٠

★ منح شهادة تقدير من « لجنة كفافيس الدولية » عن ترجمته لقصائد ريتسوس التى صدرت عام ١٩٩٢ ، بعنوان « اللذة الأولى » ٠

★ ترجمت أشعاره الى الفرنسية الانجليزية والايطالية واليونانية والكرواتية ٠

★ منح جائزة « كفافيس » الدولية فى الشعر ، عام ١٩٩٣ ، عن دوره المتميز فى الشعر المصرى والعربى ٠

★ صدر ـ عن تجربته الشعرية ـ كتابان نقديان ، للدكتور محمد عبد المطلب أستاذ النقد الأدبى بجامعة عين شمس ، والدكتور على البطل رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب / جامعة المنيا ، بالاضافة الى عشرات الدراسات النقدية ، وفصول فى بعض رسائل الماجستير الدكتوراه ٠

★ شارك فى العديد من المهرجانات الشعرية العربية والدولية ٠

للمترجم

شعر : وردة الفوضى الجميلة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧ ·

اشراقات رفعت سلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢ ·

انها تومىء لى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ١٩٩٣ ·
سلسلة (نوافذ) ، القاهرة ١٩٩٦ ·

هكذا قلت للهاوية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٣ ·

كرغوة على جسدى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٧ ·

دراسات : المسرح الشعرى العربى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ ·

بحثا عن التراث العربى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠·
دار الفارابى ، بيروت ١٩٩٠ ·

ترجمة : الفجر ·· وقصائد أخرى ، بوشكين ، دار ابن خلدون ، بيروت ١٩٨٢ ·

غيمة فى بنطلون ·· وقصائد أخرى ، ماياكوفسكى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٨٥ ،
المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٧ ·

الابداع القصصى عند يوسف ادريس ، كربرشويك ، دار شهدى ، القاهرة ١٩٨٧ ·
دار سعاد الصباح ، القاهرة ١٩٩٣ ·

الشيطان ·· وقصائد أخرى ، ليرمونتوف ، اتحاد أدباء وكتاب الامارت ، الشارقة ١٩٩١ ·

اللذة الأولى ·· وقصائد أخرى ، يانيس ريتسوس ، الملحقية الثقافية اليونانية ، القاهرة ١٩٩٢ ·
دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٦ ·

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل
احلام الأعلام وقصص اخرى

ى· رادو نكاياوم جابوتنسكي
الالكترونيات والحياة الحديثة

ألدس هكسلي
نقطة مقابل نقطة

ت· و فريمان
الجغرافيا في مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

ج· فوربس و أ· ج· ديكستر هوز
تاريخ العلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليسرديل اى
الأرض الغامضة

والتر آلن
الرواية الانجليزية

لويس فارجاس
المرشد الى فن المسرح

فرانسو دوماس
آلهة مصر

د قدرى حفنى وآخرون
الانسان المصرى على الشاشة

اولج فولكف
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

هاشم النحاس
الهوية القومية في السينما

ديفيد وليام ماكدوال
مجموعات النقود · صيانتها
تصنيفها – عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

د· محسن جاسم الموسوى
عصر الرواية

ديلان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويس
الانسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة · الانجليزية
والفرنسية

د· عبد المعطى شعراوى
المسرح المصرى المعاصر
اصله وبدايته

انور المعداوى
على محمود طه الشاعر والانسان

بيل شول وادبنيت
القوة النفسية للاهرام

د صفاء خلوصى
فن الترجمة

رالف ئى ماتلو
تولستوى

فكتور برومبير
ستندال

فيكتور هوجو
رسائل وأحاديث من المنفى

فيرنر هيزنبرج
الجزء والكل « محاورات في مضمار
الفيزياء الذرية »

سدنى هوك
التراث الغامض · ماركس
والماركسيون

ف· ع· ادينكوف
فن الادب الروائى عند تولستوى

هادى نعمان الهيتى
ادب الأطفال « فلسفته ، فنونه ،
وسائطه »

د نعمة رحيم العزاوى
أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا

د فاضل أحمد الطائى
اعلام العرب في الكيمياء

جلال العشرى
فكرة المسرح

هنرى باربوس
الجحيم

د السيد عليوة
صنع القرار السياسى فى
منظمات الادارة العامة

جاكوب برونوفسكى
التطور الحضارى للانسان

د· روجر ستروجان
هل نستطيع تعليم الأخلاق
للأطفال ؟

كاتى ثير
تربية الدواجن

ا· سبنسر
الموتى وعالمهم في مصر
القديمة

د· ناعوم بيتروفيتش
النحل والطب

جوزيف داهموس
سبع معارك فاصلة في العصور
الوسطى

د· ليتواير تشامبرزرايت
سياسة الولايات المتحدة
الأمريكية ازاء مصر

د· جون شندلر
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى
السنة

بيير البير
الصحافة

د· غبريال وهبة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى
فى الفن التشكيلى

د· رمسيس عوض
الأدب الروسى قبل الثورة
البلشفية وبعدها

د· محمد نعمان جلال
حركة عدم الانحياز فى عالم
متغير

فرانكلين ل· باومر
الفكر الأوربى الحديث ٤ ج

شوكت الربيعى
الفن التشكيلى المعاصر فى
الوطن العربى

د محى الدين احمد حسين
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

ج· دادلى اندرو
نظريات الفيلم الكبرى

جوزيف كونراد
مختارات من الأدب القصصى

د· جوهان دورشنر
الحياة فى الكون كيف نشأت
واين توجد

طائفة من العلماء الامريكيين
مبادرة الدفاع الاستراتيجى
حرب الفضاء

د· السيد عليوة
ادارة الصراعات الدولية

د· مصطفى عنانى
الميكروكمبيوتر

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء
والمحدثين
مختارات من الأدب اليابانى
« الشعر – الدراما – الحكاية –
القصة القصيرة »

جابرييل باير
تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة

أنطوني دي كرسبني وكينيث مينوج
أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السيناريو للسينما

زافيلسكي ف. س
الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى ملايين السنين)

مهندس إبراهيم القرضاوي
أجهزة تكييف الهواء

بيتر رداي
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

جوزيف داهموس
سبعة مؤرخين في العصور الوسطى

س. م. بورا
التجربة اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة في مصر الإسلامية

رونالد د. سمبسون ونورمان د. أندرسون
العلم والطلاب والمدارس

د. أنور عبد الملك
الشارع المصري والفكر

والت ويتمان روستو
حوار حول التنمية الاقتصادية

فرد ج. هيس
تبسيط الكيمياء

جون لويس بوركهارت
العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد علي

آلان كاسبيار
التذوق السينمائي

سامي عبد المعطي
التخطيط السياحي في مصر بين النظرية والتطبيق

فريد هويل وشاندرا ويكراما سينج
البذور الكونية

حسين حلمي المهندس
دراما الشاشة (بين النظرية والتطبيق) للسينما والتليفزيون ٢ ج

روى روبرتسون
الهيروين والإيدز وأثرهما في المجتمع

دوركاس ماكلينتوك
صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا

هاشم النحاس
نجيب محفوظ على الشاشة

د. محمود سرى طه
الكومبيوتر في مجالات الحياة

بيتر لورى
المخدرات حقائق نفسية

بوريس فيدروفيتش سيرجيف
وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدرتون
تربية أسماك الزينة

أحمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الإنساني

جون ر. بورر وميلتون جولدينجر
الفلسفة وقضايا العصر ٣ ج

أرنولد توينبي
الفكر التاريخي عند الإغريق

د. صالح رضا
ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

م. هـ. كنج وآخرون
التغذية في البلدان النامية

جورج جاموف
بداية بلا نهاية

د. السيد طه السيد أبو سديرة
الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي

جاليليو جاليليه
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٣ ج

اريك موريس وآلان هو
الإرهاب

سيريل الدريد
أخناتون

آرثر كيستلر
القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ب. كوملان
الأساطير الإغريقية والرومانية

د. توماس أ. هاريس
التوافق النفسي - تحليل المعاملات الإنسانية

لجنة الترجمة،
المجلس الأعلى للثقافة
الدليل الببليوجرافي
روائع الآداب العالمية ج ١

روى آرمز
لغة الصورة في السينما المعاصرة

[illegible]
الثورة الإصلاحية في اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث غدا

ميكائيل ألابي وجيمس لفلوك
الانقراض الكبير

آدامز فيليب
دليل تنظيم المتاحف

فيكتور مورجان
تاريخ النقود

محمد كمال إسماعيل
التحليل والتوزيع الأوركسترالي

أبو القاسم الفردوسي
الشاهنامة ٢ ج

بيتون بورتر
الحياة الكريمة ٢ ج

جاك كرابس جونيور،
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر

محمد فؤاد كوبريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التمثيل للسينما والتليفزيون

تاجور، شين يي بنج وآخرون
مختارات من الآداب الأسيوية

ناصر خسرو علوي
سفرنامة

نادين جورديمر، بيتر بيس، ابيوت وآخرون
سقوط المطر وقصص أخرى

أحمد محمد الشنواني
كتب غيرت الفكر الإنساني ٧ ج

جان لويس بورى وآخرون
في النقد السينمائي الفرنسي

الفنانون في أوربا
بول كراز

موريس بير براير
صناع الخلود

زيجمونت هبز
جماليات فن الاخراج

جوناثان ريلى سميث
الحملة الصليبية الأولى وفكرة
الحروب الصليبية

الفريد ج. بتلر
الكنائس القبطية القديمة فى
مصر ٢ ج

ريتشارد شاخت
رواد الفلسفة الحديثة

ترانيم زرادشت
من كتاب الأفستا المقدس

الحاج يونس المصرى
رحلات فارتيما

هربرت شيلر
الاتصال والهيمنة الثقافية

برتراند راسل
السلطة والفرد

بيتر نيكولز
السينما الخيالية

ادوارد ميرى
عن النقد السينمائى الأمريكى

نفتالى لويس
مصر الرومانية

ستيفن أوزمنت
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج

هونى براج وآخرون
السينما العربية من الخليج الى
المحيط

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر ٢ ج

جابر محمد الجزار
ماستريخت

د. ابرار كريم الله
من هم التتار

ج. س. فريزر
الكاتب الحديث وعالمه
٢ ج

سوريال عبد الملك
حديث النهر
من روائع الآداب الهندية

لوريتو تود
مدخل الى علم اللغة

اسحق عظيموف
الشموس المتفجرة
أسرار السوبر نوفا

مارجريت روز
ما بعد الحداثة

د. بيارد دودج
الأزهر فى ألف عام

ستيفن رانسيمان
الحضارة البيزنطية

هـ. ج. ولز
معالم تاريخ الانسانية
٤ ج

جوستاف جرونيباوم
حضارة الإسلام

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
رحلة بيرتون الى مصر والحجاز
٣ ج

جلال عبد الفتاح
الكون ذلك المجهول

ارنولد جزل وآخرون
الطفل من الخامسة الى العاشرة
٢ ج

بادى أونيمود
افريقيا - الطريق الآخر

د. محمد زينهم
فن الزجاج

برنسلاو مالينوفسكى
السحر والعلم والدين

آدم متز
الحضارة الاسلامية

فانس بكارد
انهم يصنعون البشر

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ
يوميات رحلة فاسكو داجاما

ايفرى شاتزمان
كوننا المتمدد

سوندارى
الفلسفة الجوهرية

مارتن فان كريفلد
حرب المستقبل

فرانسيس ج. برجين
الاعلام التطبيقى

عبده مباشر
البحرية المصرية من محمد على
الى السادات

ج. كارفيل
تبسيط المفاهيم الهندسية

توماس ليبهارت
فن المايم والبانتوميم

ادوارد دوبونو
التفكير المتجدد

وليام هـ. ماثيوز
ما هى الجيولوجيا

كريستيان ساليه
السيناريو فى السينما الفرنسية

بول وارن
خفايا نظام النجم الأمريكى

جورج ستاينر
بين تولستوى ودستويفسكى
٢ ج

يانكو لافرين
الرومانتيكية والواقعية

محمود سامى عطا الله
الفيلم التسجيلى

جوزيف بتس
رحلة جوزيف بتس

ستانلى جيه سولومون
أنواع الفيلم الأمريكى

هارى ب. ناش
الصمر والبيض والسود

جوزيف م. بوجز
فن الفرجة على الأفلام

كريستيان ديروش نوبلكور
المرأة الفرعونية

جوزيف نيدهام
موجز تاريخ العلم والحضارة
فى الصين

ليوناردو دافنشى
نظرية التصوير

ت. ج. هـ. جيمز
كنوز الفراعنة

رودولف فون هابسبرج
رحلة الأمير رودولف الى الشرق
٣ ج

مالكوم برادبرى
الرواية اليوم

وليم هارسن
رحلة ماركو بولو ٣ ج

هنرى بيرين
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

ديفيد شنيدر
نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر

اسحق عظيموف
العلم وآفاق المستقبل

رونالد دافيد لانج
الحكمة والجنون والحماقة

كارل بوبر
بحثا عن عالم أفضل

نورمان كلارك
الاقتصاد السياسى للعلم
والتكنولوجيا

السيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الآتى

ممدوح عطية
البرنامج النووى الاسرائيلى والأمن القومى العربى)

د. ليوبوسكاليا
الحب

ايفور ايفانس
مجمل تاريخ الأدب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بينز
معجم التكنولوجيا الحيوية

الفين توفلر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شرارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت. ج. جيمز
الحياة أيام الفراعنة

جرج كاشمان
لماذا تنشب الحروب ٢ ج

حسام الدين زكريا
انطون بروكنر

ازرا ف. فوجل
المعجزة اليابانية

ونفرد هولز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول دافيز
الدقائق الثلاث الأخيرة

جوزيف وهارى فيلدمان
دينامية الفيلم

ج. كونتنو
الحضارة الفينيقية

ارنست كاسيرر
فى المعرفة التاريخية

كنت أ. كتشن
رمسيس الثانى

جان بول سارتر وآخرون
مختارات من المسرح العالمى

روزالند ، وجاك يانسن
الطفل المصرى القديم

نيكولاس ماير
شرلوك هولمز

ميجيل دى ليبس
الفئران

جوسيبى دى لونا
موسولينى

الويز جرايتر
موتسارت

على عبد الرءوف اليمبى
مختارات من الشعر الاسبانى

روبرت سكرلز وآخرون
آفاق أدب الخيال العلمى

ب. س ديفيز
المفهوم الحديث للمكان والزمان

س. هوارد
اشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و. بارتولد
تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ أوربا الشرقية

جابرييل جارسيا ماركيز
الجنرال فى المتاهة

هنرى برجسون
الضحك

د. مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م. و. ثرنج
ضمير المهندس

ا. ر. جرنى
الحيثيون

سبتينو موسكاتى
الحضارات السامية

د. البرت حورانى
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٧/٤٨٣٨

ISBN — 977 — 01 — 5171 — 8

أحس بأنى ما أزال طفلاً يافعاً، وأن عمرى يمتد إلى ملايين السنين. وكل عام يمر، أزداد فتوةً بما أكسب، أى بما أفقد. لقد عبرتُ ميتات كثيرة، وسأموت أخيراً وأنا أجمل بعض الأبدية. والنهار الذى يمر ليس نهاراً أخسره من حياتي، إنما هو جديد لا يشبه الذى مضى. إنه نهار غير مُعبر عنه يضاف إلى حياتى. فما أكتشفه اليوم كنت أجريه بالأمس. هكذا يغتنى شبابى الروحى. إننى أقيس الحياة بالمعرفة المدهشة للحياة. فالزمن الذى يمر هو إضافة لى: «إننى شِختُ شباباً لا يشيخ». أجل، أنا متفائل. لقد خرجتُ من أحلك الظلمات. خرجتُ حيًا من الأمراض، ومن جلسات التعذيب. ويمكننى القول أننى خرجتُ من أغوار الموت. والتفاؤل ليس سهلاً، وليس وسيلةً سهلةً لتجاوز الصعوبات أو تجاهلها. تفاؤلى لا يتزعزع، وهو راسخ لأنه ينجم ـ تحديدًا ـ عن اليأس.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب